

المحمدى العباسى

ثالث الخلفاء العباسيين

بمعلم

الدكتور على حسنى النخروبلى

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - النجيلة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ — ٩٠٥١٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه هي أول دراسة تاريخية لسيرة علم من أبرز أعلام العرب ، وهو محمد المهدي ثالث الخلفاء العباسيين .

اعتاد المؤرخون والكتّاب أن يعتبروا هارون الرشيد أعظم الخلفاء العباسيين . وقد تولى الرشيد بعد وفاة أبيه المهدي بسنة وثلاثة أشهر ، إذ لم تطل خلافة أخيه موسى الهادي . ولذا فنحن نعتبر عهد الرشيد امتدادا لعهد أبيه المهدي ، فقد ورث الرشيد دولة راسخة الأسس ، عظيمة المهابة ، كثيرة الأموال ، فأكمل رسالة أبيه ، وجنى ثمار جهوده . وكانت جهود المهدي واصلاحاته هي التي دفعت بالدولة العباسية الى ذروة المجد في عهد الرشيد . وقد ذاع صيت الرشيد لما حفل به عهده من أحداث ، وخاصة نكبة البرامكة التي أصبحت مصدرا لكثير من القصص والروايات . كما اشتهر الرشيد لأنه كان محورا لمعظم قصص ألف ليلة التي أقبل الناس على قراءتها في الشرق والغرب ، مما جعل الرشيد يبرز على سائر الخلفاء العباسيين العظماء .

والمهدي هو ابن الخليفة أبي جعفر المنصور ، ثاني الخلفاء
العباسيين ، والمؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، اذ لم تطل
خلافة أبي العباس . أمّا أم المهدي ، فتتسبب الى العرب اليمنيين
الحميريين الذين أقاموا الدولة الحميرية وكان عهدها من أزهى
عصور اليمن . واهتم المنصور بأن ينشأ ابنه المهدي نشأة
اسلامية عربية ، فقد كان يعدّه ليكون وليّ عهده وثالث
الخلفاء العباسيين ، فاختار له المفضل الضبي ليكون له أستاذاً
ورائداً ، فجمع المفضل له من أمثال العرب ودرر شعرهم ، وأطلعه
على أمجاد العرب ، فاتسع أفقه ، ونضج عقله ، وانطلق لسانه ،
وأصبح المهدي من الشعراء المجيدين ، والخطباء الفصحاء . كما
حرص المنصور على أن يث في المهدي مكارم الأخلاق ، وأنبل
السجايا ، فكان يتوجه اليه دائماً بنصائحه ، لينير أمامه الطريق
الى خلافة رشيدة .

وعمل المنصور على أن يشارك المهدي في مجريات الأحداث
السياسية والحربية في الدولة العباسية . فولاه وهو في الخامسة
عشرة من عمره قيادة الجيش الذي وجهه الى خراسان لاختاد
بعض الثورات ، ثم أمره بغزو طبرستان ، ثم عهد اليه بحكم
خراسان . واشترك المهدي مع أبيه المنصور في بناء الحضرة
العباسية الجديدة بغداد . حتى اذا أتم المهدي ٢١ سنة من عمره
(سنة ١٤٧ هـ) ، أخذ المنصور له البيعة بولاية العهد . ثم عهد
المنصور الى ولي عهده باخماد الثورات في سجستان ، وبني له

ولجندة المنتصرين مدينة الرصافة . ثم ولاه امارة الحج في سنة ١٥٣ هـ .

حتى اذا مات المنصور في سنة ١٥٨ هـ ، تولى المهدي الخلافة ، وبدأت الدولة العباسية تدخل في مرحلة جديدة متميِّزة . فتعتبر خلافة المهدي مرحلة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذي ساد عهد الخلفيتين الأولين ، وعهد الاعتدال واللين الذي امتازت به أيام من أتى بعده من خلفاء . فقد انشغل الخليفتان الأولان بهدم بقايا الدولة الأموية لاقامة دولة جديدة ، حتى اذا تولى المهدي كانت الخلافة العباسية قد توطدت ، وتخلصت من أعدائها ، فبدأت مرحلة من الهدوء والاستقرار والرخاء .

أجمع المؤرخون ، بدون استثناء ، على وصف سياسة المهدي بالرشد والنضوج والكمال ، وامتدحوا تدينه ، وأخلاقه وعدله ، واعتبروا عصره من العصور الزاهرة . وصف المؤرخ المسعودي المهدي ، فقال : « وكان المهدي محبباً الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وانصاف المظلوم ، وبسط يده في الاعطاء » . وقال ابن طباطبا : « كان المهدي شهما فطنا كريما ، شديدا على أهل الالحاد والزندقة ، لا تأخذه في اهلاكهم لومة لائم » . وتحدث المؤرخ السيوطي عن المهدي فقال : « كان جوادا ممدحا ، مليح الشكل ، محببا الى الرعية ، حسن الاعتقاد ، تتبع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقا كثيرا ، وهو أول من أمر بتصنيف

كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدین . وقال الذهبی :
« وما علمت قيل فيه جرحا ولا تعديلا » .

عمل المهدي على تدعيم الدولة العباسية . وقد ورث المهدي
عن أبيه المنصور دولة عظمى ، تتمتع بالرخاء والحضارة الزاهرة ،
ويسودها الأمن والهدوء والاستقرار ، ويحكمها رجالات
اشتهروا بالعدل والكفاءة . فكان على المهدي أن يمضي في نفس
الطريق الذي مهّده أبوه له ، ونجح المهدي في توطيد أسس
الدولة العباسية ، فزادت مجدا وعظمة ورخاء ، وأصبح جديرا
بأن يكون ثالث الخلفاء العباسيين .

واهتم المهدي بأن يسود الأمن والطمأنينة في أرجاء الدولة
العباسية ، ووفّر العدل لجميع رعاياه . وأدرك المهدي أن أباه
المنصور قد تولى الخلافة في فترة قلق ، ولذا امتلأت سجون
بخصومه السياسيين . ورأى المهدي أن يبدأ عهده بالتسامح
والعفو ، فأطلق سراح المسجونين السياسيين ، وردّ الأموال
التي صادرها أبوه إلى أصحابها ، وكان المهدي أول الخلفاء
الذين جلسوا للنظر في مظالم رعاياه .

اشتهر المهدي بالعدل ، والتقوى والورع ، والتسامح ،
والعفو عن أعدائه ، والحياء ، والحلم ، والكرم والجود ، وحب
الاصلاح والعمران ، وابتعد عن الظلم والعدو واللغو والمجون .
وهي صفات قلما اجتمعت في خليفة من الخلفاء . وكان المهدي
يباشر شئون الدولة بنفسه ، دون أن يدع الفرصة لوزرائه أو
ولاته ليستبدوا بالسلطة ، وكان يدقق في اختيارهم ، وبعث

الأمناء لمراقبة أعمال الولاية . وكان المهدي ديموقراطيا ، يستشير رجالات الدولة وذوى الخبرة فى مهام الأمور .

أبدى المهدي اهتماما ببلاد الحجاز ، فهى المهد الأول للإسلام ، وكانت الدولة الأموية قد أهملت شئون الحجاز وضيّقت على أهلها . كما اهتم المهدي أيضا ببلاد الشام موطن الدولة الأموية ، ليثبت للجميع أن الخليفة يسوّى فى اهتمامه بين جميع ولايات الدولة . وركن الحزب العلوى فى عهده الى الهدوء ، مطمئنا الى عدله وتسامحه وكرمه .

أغفلت الدولة الأموية تنظيم العلاقات بين العرب المسلمين ، وشعوب البلاد التى فتحها المسلمون ، مما أدى الى صراع عنيف بين العناصر غير العربية والأمويين ، وإلى ظهور الشعوبية ، وانضم الموالى الفرس الى كل ثائر على الدولة الأموية مما أدى الى سقوطها . وعمل الخليفة المهدي على أن يحفظ التوازن بين العناصر العربية والعناصر الفارسية ، واستفاد من هذه العناصر كلها فى تدعيم الدولة العباسية ، وأمسك بيده ميزان القوى .

تميّز العصر العباسى بظهور حركات خطيرة ، هى حركات الزنادقة ، التى ظهرت فى شكل سلسلة طويلة ذات حلقات متتالية مترابطة ، وكان من نصيب عهد المهدي حلقة من هذه الحلقات . واعتبر الخلفاء العباسيون الزنادقة خارجين على الإسلام ، وعلى الدولة ، ونظمها السياسية والاجتماعية . ووقف المهدي من الزنادقة موقفا حاسما ، فأخمد ثوراتهم ،

وأشأ ديوان الزنادقة لمقاومتهم ، وألف هيئة علمية لمناظرتهم ، وأمر بتأليف الكتب التى تنقض تعاليم الزنادقة وتبين فسادها .

واهتم المهدي بالسياسة الخارجية . فاستقرت الأوضاع السياسية فى بلاد المغرب طوال خلافته ، بينما حفلت تلك البلاد بالاضطرابات فى عهد أسلافه وخلفائه . وشعر الأمير الأموى بالأندلس ، الذى أعلن استقلاله عن العباسيين ، بقوة المهدي ، فلم يتخذ عداؤه للخلافة العباسية شكلا ايجابيا حريا . وتوثقت صلات المهدي بدولة الفرنجة . وبعث المهدي بجيوشه لغزو أراضى الدولة البيزنطية ، وتعدد انتصارات العرب المسلمين ، واضطر البيزنطيون الى طلب الصلح ، وتعهدوا بدفع جزية سنوية . وبعث المهدي أيضا بجيوشه لغزو بلاد الهند .

ويجمع المؤرخون على أن الخليفة المهدي كان من أكثر الخلفاء تدينا وتمسكا بتعاليم الاسلام الرشيدة ، واهتم المهدي بالأماكن المقدسة فى الحجاز ، وبشئون الحج ، وحرص على احياء السنة النبوية ، وزاد فى المسجد الحرام ، واستن سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة فى كل عام ، وكان المهدي من رواة الأحاديث النبوية .

واشتهر المهدي باقباله على العلم ، وتشجيع العلماء ، وأصبحت بغداد فى عهده قبة الأدباء والشعراء والفقهاء وطلاب العلم . وكان المهدي شاعرا مجيدا ، فأغدق على الشعراء الصلوات

والعطايا . وشمل اهتمامه الموسيقى والغناء وسائر الفنون
الجميلة .

ورغم هذه العظمة ، وتلك الأعجاز ، التي تجلت واضحة في
عصر المهدي ، فانه لم يخصص مؤرخ أو كاتب ، كتابا لدراسة
سيرة هذا الخليفة العربي العظيم . ولذا رأينا أن نفي للمهدي
بحقه علينا كمشتغلين بتاريخ العرب والمسلمين . وأرجو أن
يكون التوفيق قد حالفني في دراستي هذه لسيرته وتاريخ عصره
الزاهر ، والله ولي التوفيق .

المؤلف

ولى العيص

سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ ، حين نجح الجيش العباسى بقيادة أبى مسلم الخراسانى فى هزيمة الجيش الأموى فى موقعة الزاب فى بلاد العراق ، وتتبع أبو مسلم آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد الى بلاد الشام ، ومنها الى مصر ، حيث نجح فى قتله قرب مدينة الفيوم .

وبدأ عهد الدولة العباسية فى ذى الحجة من سنة ١٣٢ هـ ، واستمرت هذه الدولة العظيمة قائمة أكثر من خمسة قرون ، حتى سقطت سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، حين اجتاحت بغداد القائد المغولى هولاكو ، فقتل آخر الخلفاء العباسيين ، وأسقط هذه الدولة الزاهرة ، التى وصفها المؤرخ ابن طباطبا ١ بهذه العبارات : « كائت دولة كثيرة المحاسن ، جمّة المكارم ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دارّة ، والدنيا عامرة ، والحرّمات مرعية ، والثغور محصّنة » . وهذه الدولة العباسية هى التى كان المهدي ثالث خلفائها .

(١) الفخرى ، ص ١٢٥

المهدي في طفولته :

الخليفة المهدي ، هو محمد بن أبي جعفر المنصور بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فهو سليل الأسرة العباسية الهاشمية ، والبيت الهاشمي هو بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . وأبوه المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ، ويعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، بالرغم من أنه لم يكن أول الخلفاء العباسيين . فقد سبقه الى الخلافة أخوه أبو العباس . وقد تعاون الأخوان على نشر الدعوة العباسية وتنظيمها ، وتكوين قوة عسكرية نجحت في اسقاط الدولة الأموية . وتولى أبو العباس الخلافة قبل أخيه أبي جعفر ، بالرغم من أنه كان أصغر منه سناً ، لأن أم أبي العباس كانت عربية ، بينما أم المنصور كانت (أم ولد) .

نشأ المنصور بين كبار شخصيات البيت الهاشمي ، وهو بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، واشتهر بالفصاحة والبلاغة ، والالمام بتاريخ الأسلاف . وكان المنصور ساعد أخيه أبي العباس الأمين في ادارة دفة الدولة ، ونجح في توطيد دعائم الدولة العباسية الوليدة ، وكانت تتهددها أخطار كثيرة ، من ثورات قامت في بلاد الشام موطن الدولة الأموية ، الى تدمير أهل خراسان لمقتل زعيمهم أبي مسلم الخراساني ، الى ثورات العلويين في بلاد الحجاز والعراق ، الى حركات الزنادقة المخالفة لتعاليم الاسلام . وأبدى المنصور شجاعة وحزماً ، ونجح في القضاء على هذه الثورات المختلفة ، والتخلص من هذه الأخطار

المتعددة . كما قام المنصور ببناء مدينة بغداد التي أصبحت عاصمة الدولة العباسية ، ومركزا من مراكز الحضارة في العالم وقتئذ ، وما زالت بغداد قائمة حتى اليوم رمزا لحضارة العرب .

وهكذا ينتمي المهدي من ناحية أبيه الى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ، والعباسيون هم فرع من فرعي البيت الهاشمي ، بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، أما الفرع الآخر فهو الفرع العلوي ، سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فالمهدي عباسي هاشمي قرشي .

أمّا أم المهدي ، فهي أروى بنت منصور بن عبد الله بن ذي سهم بن أبي سرح ، وقد اشتهر أخوها يزيد بن منصور الحميري ، وينتهي نسبهما الى ذي رعين من ملوك الدولة الحميرية اليمنية^١ .

وهكذا كان المهدي ينتمي من ناحية أبيه الى قبيلة قريش العربية ، أشرف القبائل العربية ، وكانت لها السيادة في مكة قبل الاسلام ، فتولت الزعامة السياسية ، كما كان لها الرئاسة الروحية ، باعتبارها القبيلة التي تشرف على الكعبة المقدسة وتتولى شئون الحج ، كما برزت قريش في الميادين الاقتصادية وخاصة في التجارة ، فكانت قوافلها تجوب دول العالم القديم ، وظهر من بين القرشيين شخصيات مستنيرة ، فقد بعدت قريش عن الطابع البدوي ، فتحضرت وسكنت المدن ، واقتبست

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ، ص ٢١٩

ألوانا من الحضارات العالمية . وزادت قريش مجدا وعظمة اذ
نزلت الرسالة السماوية على أحد أبنائها ، وهو محمد صلى الله
عليه وسلم .

أمّا أم المهدي ، فتتبع الى العرب اليمنيين . وكانت بلاد
اليمن قبل الاسلام أكثر أرجاء الجزيرة العربية حضارة ، نتيجة
وفرة أمطارها وخصوبة أرضها ، وقامت فيها دول متحضرة ،
آخرها الدولة الحميرية التي وصل نفوذها السياسي الى منطقة بحر
قزوين شمالا ، حيث أنشأ أحد ملوكها مدينة (سمرقند) ،
وكافحت الأطماع الحبشية والرومانية والفارسية في بلاد اليمن .
ولد محمد المهدي سنة ١٢٦ هـ بالحميمة من أرض الشراة ،
أي أن مولده كان قبل قيام الدولة العباسية بست سنوات .
والحميمة هي المدينة التي اتخذها الأئمة العباسيون منذ خلافة
عمر بن عبد العزيز مقاما ، يشرفون منها على نشر الدعوة
العباسية ، ويعثون منها دعواتهم وكتباءهم ، الى أرجاء العالم
الاسلامي لنشر هذه الدعوة . وقد ولد المنصور أيضا في
الحميمة .

قضى المهدي سنواته الأولى في مدينة الحميمة ، ثم صحب
أباه والأسرة العباسية في صفر سنة ١٣٢ هـ الى مدينة الكوفة
ببلاد العراق ، واستتروا جميعا فيها بضعة أسابيع ، حتى نجح
أبو مسلم الخراساني في القضاء على الدولة العباسية ، فتوافدت
عليهم أنصارهم ، يزفون اليهم نبأ نهاية الدولة الأموية ،
ويعلمونهم أنه قد آن الأوان لتولي بني العباس الخلافة . وتمت

البيعة لأبى العباس — عم المهدي — بالخلافة ، وكان المهدي حينئذ في السادسة من عمره .

وبعد تولية أبى العباس الخلافة ، رحل هو وأسرته — وفيهم المهدي — من الكوفة الى الأنبار ، غربى نهر الفرات ، وهى مدينة قديمة كان قد أنشأها أحد ملوك الفرس وهو سابق بن هرمز ، فجدد أبو العباس بناءها ، وابتنى بها قصراً للخلافة ، وأصبح اسم هذه المدينة (الهاشمية) نسبة الى البيت الهاشمى . وبني المنصور قصراً فخماً أقام فيه هو وأسرته .

المهدي فى بيت المنصور :

حكم أبو العباس ، أول الخلفاء العباسيين ، أربع سنين وتسعة أشهر ، ومات فى مدينة الأنبار فى ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ ، وهو فى ريعان شبابه . فخلفه أخوه أبو جعفر المنصور . وكان المهدي حينئذ فى العاشرة من عمره . وقد وصف المؤرخ المسعودى^١ المنصور فقال : « وكان المنصور من الحزم وصواب الرأى وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وكان يعطى الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزماً ، ويمنع الحقير اليسير ما كان اعطاؤه تضييعاً »^١ ووصفه المؤرخ ابن طباطبا^٢ فقال : « كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم ، وعقلائهم وعلمائهم ، وذوى الآراء الصائبة منهم ، والتدبيرات السديدة ، وقورا

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣١٨ .

(٢) الفخرى ، ص ١٤١ .

شديد الوقار ، حسن الخلق في الخلوة ، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاج .

هذه هي أخلاق المنصور ، وقد ورثها المهدي عن أبيه .
والأب هو المدرسة الأولى التي يتلقن فيها المرء دروسه الأولى في الحياة ، ويكتسب طباعه وسجاياه . وقد اشتهر بلاط المنصور بالجد والوقار ، فلم يُعرف عنه ميل الى لهو أو عبث . وكانت دار المنصور ، حيث نشأ المهدي ، مثالا للهدوء والاحتشام . فذكر المؤرخ ابن طباطبا^١ : « ولم يكن يثرى في دار المنصور لهو ولعب ، أو ما يشبه اللهو واللعب » . فلا عجب أن نشأ المهدي على التقوى والورع ومكارم الأخلاق .

يروى المؤرخون أن المنصور عاد يوما الى داره ، فسمع صوت ضوضاء وجلبة ، فسأل أحد أتباعه ، وهو حماد التركي : ما هذا يا حماد ؟ انظر ! . وقصد حماد المكان الذي تصدر منه هذه الجلبة ، فوجد خادما قد جلس بين الجوارى يعزف لهن على الآلة الموسيقية المعروفة بالطنبور ، وهن يضحكن ، فمشى رويداً رويداً حتى أشرف عليهن ، فلما رأيته تفرقن . فأمر المنصور تابعه حماد بأن يضرب رأس الخادم بالطنبور ، فلم يزل يضرب رأسه حتى كسره ، ثم أخرج المنصور من قصره .

شهد المهدي أباه المنصور يقضى يومه في النظر في شئون الدولة ، ويعمل على تحقيق العدل ، ورعاية مصالح الناس .

(١) الفخرى ، ص ١٤٢

فاحتذى حذو أبيه ، فكان المهدي يقضى فى أمور الدولة دون الاعتماد على وزرائه ، ويجلس للمظالم ، واشتهر برد الحقوق المسلوبة .

كان المنصور ينظر فى شئون الدولة منذ الصباح حتى صلاة العصر ، فيدخل داره للراحة . حتى اذا صلى العشاء نظر فى الرسائل التى ترد اليه من الولايات المختلفة ، ويباحث وزراءه ومستشاريه ، حتى اذا انقضى ثلث الليل الأول قام الى فراشه فنام الثلث الثانى ، ثم يقوم من فراشه ، فيتوضأ ويجلس فى محرابه حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلّى بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى ايوانه ، ثم يعود الى استئناف عمله مرة أخرى ^١ .

نشأة عربية :

اهتم المنصور بأن ينشأ ابنه المهدي نشأة عربية ، فقد كان يعدّه ليكون ولى عهده ، وثالث الخلفاء العباسيين . فيجدد أمجاد البيت الهاشمى خاصة ، وأمجاد قريش أعظم القبائل العربية عامة . وكان المهدي يجمع بين أعرق الدماء العربية ، فأبوه سليل العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينتهى نسبهم جميعاً الى اسماعيل بن ابراهيم جد العرب الأكبر . أمّا الأم ، فهى — كما مرّ بنا — سليمة العرب الحميريين اليمنيين ، الأصلاء فى العروبة ، حتى أن المؤرخين يسمونهم (العرب العاربة) .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٢٢

قامت الدولة العباسية على أكتاف العناصر الفارسية التي اعتنقت الاسلام . واعترف الخلفاء العباسيون بفضل الفرس ، فنقلوا حاضرة الدولة من بلاد الشام الى بلاد العراق ، وردّوا الى الفرس حقوقهم المسلوبة ، وولّوهم المناصب الكبرى والوظائف العامة وكانوا محرومين من توليتها في العصر الأموي ، واحتفلوا بالأعياد الفارسية الى جانب الأعياد الاسلامية والعربية ، واقتبسوا بعض ألوان الحضارة الفارسية ، في العمارة والفنون ونظم الادارة .

ولكن ، ورغم تقريب الخلفاء العباسيين للفرس ، فانهم لم يتخلّوا عن عروبتهم ، واعتزازهم بقوميتهم العربية ، فقد كانوا يعتبرون أنهم في نهجهم لهذه السياسة انما ينصفون طبقة كبيرة العدد لها مركزها في المجتمع الاسلامي ، ويردون لها حقوقها المهضومة ، ويعترفون لها بالجميل .

ولذا لم يلق الخلفاء العباسيون بأنفسهم في أحضان الفرس ، ولم يتخلّوا عن العناصر العربية ، ولم يسيروا مع الفرس الى آخر الطريق . فقد كان الخلفاء العباسيون اذا شعروا أن النفوذ الفارسي قد استفحل وتخطى الحدود التي رسموها ، تدخلوا في الأمر ، وحالوا دون تطور الأحداث لصالح الفرس ، مما يهدد سلامة الدولة العباسية ، أو يثير مشاعر العرب . ولذا عمل الخلفاء العباسيون على حفظ التوازن بين طبقات المجتمع ، وقد أثبت تاريخ الخلفاء العباسيين هذه الحقائق .

تمسك المنصور بتعاليم الاسلام وبالتقاليد العربية ، في

سجاياه ، وتصرفاته ، وحياته الخاصة . وكان فصيحاً بليغاً وخطيباً مفوهاً ، ولذا أراد أن يكون ابنه المهدي صورة منه . اهتم المنصور بتثقيف ابنه المهدي ثقافة اسلامية عربية ، فحفظ المهدي في سنواته الأولى القرآن الكريم ، ودرس السنة النبوية ، الى جانب تعلّمه القراءة والكتابة والحساب ، والفروسية والضرب بالسيف والرمي بالسهم ، وهو ما اعتاد أن يتعلمه أقرانه من أبناء وجوه القوم .

حتى اذا أصبح المهدي غلاماً ، اختار له أبوه المنصور المفضل الضبّي ليكون أستاذاً ورائداً له ، فجمع المفضل له أمثال العرب ودرر شعرهم ، وأطلعه على أيام العرب وأمجادهم السالفة ، فاتسع أفقه ، ونضج عقله ، وانطلق لسانه ، وأصبح المهدي من الشعراء المجيدين ، والخطباء الفصحاء . ووصف المؤرخ ابن طباطبا^١ المهدي ، فقال عنه أنه كان « ذكياً فصيحاً ، بعيد الهمّة ، سديد الرأي ، ثاقب الفكر ، قوى البيان ، فصيح اللسان ، عالماً بضروب السياسة وفنونها » .

وكان المنصور يحث المهدي على طلب العلم فيقول له :
يا أبا عبد الله لا تجلس مجلساً الا ومعك من أهل العلم من يحدثك^٢ .

ونال المهدي في حدائته رضا أبيه المنصور واعجابه ، فكان اذا دخل على أبيه في مجلسه أتبعه ببصره لحبّه له ، واعجابه به .

(١) الفخرى ص ٦١

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣١٧

وكان المنصور ينتهز كل فرصة فيتوجه الى ابنه المهدي بنصائحه
وارشاداته ، ويرسم له طريق المستقبل السعيد الموفق .
يصوّر الطبرى ^١ عطف المنصور على المهدي واهتمامه
بتوجيهه ونصحه ، فيروى هذه القصة :

« ذكر واضح مولى المنصور قال : انى لواقف على رأس
أبى جعفر يوما اذ دخل عليه المهدي وعليه قباء أسود جديد ،
فسلم وجلس . ثم قام منصرفا ، وأتبعه أبو جعفر بيصره لحبه
له واعجابه به ، فلما توسط الرواق عثر بسيفه فتمزق سواده .
فقام ومضى لوجهه غير مكترث لذلك ولا حافل به . فقال
أبو جعفر : ردوا أبا عبد الله — أى المهدي — فرددناه اليه .
فقال : يا أبا عبد الله أستقلالا للمواهب ، أم بطرا للنعمة ، أم
قلة علم بموضع المصيبة ؟ كأنك جاهل بما لك وعليك ، وهذا الذى
أنت فيه عطاء من الله ان شكرته عليه زادك ، فان عرفت موضع
البلاء منه فيه عافاك . فقال المهدي : لا أعدمنا الله بقاءك يا أمير
المؤمنين وارشادك ، والحمد لله على نعمه ، وأسأل الله الشكر
على مواهبه والخلف الجميل برحمته » ثم انصرف .

وتحدث المؤرخ ابن طباطبا ^٢ عن حب المنصور لابنه المهدي
فقال : « وكان المنصور من أشد الناس شغفا بابنه المهدي ،
فكان اذا جَنَى أحد جناية أو أخذ من أحد مالا جعله فى بيت
المال مفردا وكتب عليه اسم صاحبه ، فلما أدركته الوفاة قال

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣١٩

(٢) الفخرى ص ١٤٢

لابنه المهدي : يا بني اني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس ،
على وجه الجناية والمصادرة ، وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فاذا
وليت أنت فأعده على أربابه ليدعو لك الناس وليحبوك .

اشتهر الخليفة المنصور بالحرص على الأموال ، والاقتصاد
في النفقات ، فقد كان يميل الى الزهد والتقشف . فكان كما
يذكر المؤرخون « يلبس الخشن ، وربما يرقع قميصه » . وباشر
المنصور بنفسه بناء بغداد ، فكان يراقب العمال ويحاسبهم ،
ولذا تم بناء بغداد بأقل النفقات .

وكان المنصور يميل الى الاعتدال فيما يمنحه من صلات
وعطايا ، وأراد المنصور أن يحتذى ابنه المهدي حذوه في تلك
السجية . ويروي الطبري ^١ في ذلك قصة طريفة . فقد امتدح
شاعر يدعى المؤمل بن أميل المهدي ، وهو ولي للعهد ، في مدينة
الري في خراسان ، فمنحه عشرين ألف درهم ، مكافأة له على
مديحه . وكتب صاحب البريد الى المنصور في بغداد ينقل اليه
خبر هذه المنحة ، فكتب المنصور الى المهدي رسالة يعاتبه فيها
ويلومه لاسرافه ، وجاء في هذه الرسالة : « انما كان ينبغي لك
أن تعطى الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم » .
كما بعث المنصور برسالة أخرى الى كاتب المهدي يطلب منه أن
يبعث اليه بهذا الشاعر . وبحث الكاتب عنه فوجده قد رحل
الى بغداد ، فأعلم المنصور بذلك . فبعث المنصور بقائد من

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٣٠

قواده ، فوقف على جسر النهر وان يتصفح وجوه القادمين حتى
رأى الشاعر ، فقبض عليه وذهب به الى المنصور ، فقال المنصور
له : أتيت غلاماً غريباً فخدعتني ! ثم طلب من الشاعر أن ينشده
الشعر الذى مدح به المهدي ، فأنشد قصيدته ، ونذكر منها
هذه الأبيات :

هو المهدي الا أن فيه

مشابه صورة القمر المنير

تشابه ذا وذا فهما اذا ما

أنارا مشكلان على البصير

فهذا في الظلام سراج ليل

وهذا في النهار سراج نور

حتى اذا انتهى الشاعر من قصيدته ، قال المنصور له : والله
لقد أحسنت ، ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم . ثم
طالبه المنصور برد الدراهم فردها ، فأعطاه المنصور منها أربعة
آلاف درهم ، وأعاد الباقي الى بيت المال .

ولما تولى المهدي الخلافة ، عهد الى ابن ثوبان بالنظر في
المظالم ، فكان يجمع رقاع الشكاوى ويرفعها الى الخليفة .
وبين هذه الرقاع ، كانت رقعة تقدم بها هذا الشاعر يطالب فيها
بدراهمه التي أخذها المنصور ، فضحك المهدي عند قراءة هذه
الشكاوى ، وأمر بمنح الشاعر عشرين ألف درهم ^١ .

(١) الطبري ج ٦ ص ٣١٩

وقد تأثر المهدي بالكثير من أخلاق المنصور ، فكان متدينا متمسكا بتعاليم الاسلام ، فصيحاً ، بليغاً ، عادلاً ، متسامحاً ، مهتماً بشئون رعيته . ولكنه لم يكن مثله في حرصه على الأموال ، بل اشتهر بالكرم والجود .

اعداد المهدي لولاية العهد :

أخذ أبو العباس ، أول الخلفاء العباسيين ، البيعة لولاية العهد لأخيه أبي جعفر المنصور ، ثم لعيسى بن موسى بن محمد العباسي من بعده . وقد ساهم عيسى بنصيب كبير في اقامة الدولة العباسية ، ولذا رأى أبو العباس أن يجعل لعيسى نصيباً في الخلافة ، مكافأة له على جهوده ، فيتولى الخلافة بعد أخيه المنصور . ولم يثب المنصور اعتراضاً على ذلك طوال خلافة أبي العباس ، أو في السنوات الأولى من خلافته .

ولكن يبدو أن المنصور لم يكن مقتنعاً بجدارة عيسى بن موسى بأن يكون ولياً عهده ، أو ربما دفعته عاطفته الأبوية الى التفكير في خلع عيسى ، وتقديم ابنه المهدي عليه ، فيتولى ولاية العهد ، على أن يتبعه عيسى . ولكن المنصور لم يتسرع في تنفيذ ما كان يدور في خلده ، بل رأى أن يمهد ويعد له . ورأى أن ينمى شخصية المهدي ، ويعدّه ليكون جديراً بتولى الخلافة في هذه الدولة الاسلامية الكبرى .

ولذا حرص المنصور على أن ينشأ المهدي — كما شهدنا — نشأة اسلامية عربية ، فعهد الى المفضل الضبي ، أحد اعلام

عصره ، بتربيته وتثقيفه . كما حرص المنصور على أن يثبت في المهدي مكارم الأخلاق وأنبل السجايا . فكان يتوجه إليه دائماً بنصائحه ، لينير أمامه الطريق الى الخلافة . وقد حفظ الطبرى^١ لنا كثيراً من عبارات النصيح والإرشاد التي وجهها المنصور الى المهدي ، نذكر بعضها . فقد قال المنصور يوماً للمهدي : يا أبا عبد الله لا يصلح السلطان الا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته الا بالطاعة ، ولا تعمّر البلاد بمثل العدل ، ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته الا بالمال ، ولا تقدم في الحياة بمثل قتل الأخبار ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره . وسأل المنصور ابنه المهدي يوماً : كم راية عندك ؟ فقال المهدي : لا أدري . فقال المنصور : هذا والله التضييع ، أنت لأمر الخلافة أشدّ تضييعاً ، ولكن قد جمعت لك ما لا يضرّك معه ما ضيّعت ، فاتق الله فيما خوّلك .

وبدأ المنصور يعمل على أن يدخل المهدي ميدان الحياة العامة ، ويشارك في مجريات الأحداث السياسية والحربية في الدولة . ففي سنة ١٤١ هـ ، وحينما أتم المهدي الخامسة عشرة من عمره ، ولأهـ أبو المنصور قيادة الجيش الذي وجهه الى خراسان ، للقضاء على الفتنة التي أثارها عبد الرحمن بن

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٥٢

عبد الجبار الأزدي والى خراسان ، وولى المنصور الى جانبه قائداً من أكبر القواد العباسيين ، وهو خازم بن خزيمة .

وكان عبد الرحمن بن عبد الجبار هذا قد أساء السيرة ، وقتل عدداً كبيراً من رؤساء خراسان الموالين للدولة العباسية ، فتعالت أصوات الشكوى . وزحف المهدي بالجيش حتى نزل نيسابور ، ثم أقفد قائده خازم على رأس فرقة من الجيش ، فتعاون مع أهل مرو على إلحاق الهزيمة بابن عبد الجبار ، وحمله المهدي أسيراً الى المنصور ، حيث أمر بقتله .

ثم أمر المنصور ابنه المهدي بأن يغزو طبرستان بنفس الجيش الذى خرج به لقتال ابن عبد الجبار ، للقضاء على ثورة الأصبهذ والى طبرستان ، ونجح المهدي وقائده خازم بن خزيمة فى فتح طبرستان ، والتجأ الأصبهذ الى قلعة ، وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره . فكتب المهدي بذلك الى أبيه ، فبعث المنصور ببعض عماله لاحصاء ما فى الحصن ، وخرج الأصبهذ الى بلاد جيلان فى بلاد الديلم ، حيث مات .

وبعد هذه الانتصارات ، أقام المهدي فى خراسان حتى سنة ١٤٤ هـ ، ثم عاد مرة أخرى الى بلاد العراق ، والتقى به أبوه المنصور عند قرماسين ، ورحلا معا الى إقليم الجزيرة لمراقبة ثغورها ، ثم عادا الى حاضرة الدولة . حتى اذا استقر المهدي فى العاصمة ، تزوج من ريطة بنت أبى العباس ، وهى ابنة عمه .

ونحن نرى أن انفاذ المنصور لابنه المهدي الى خراسان للقضاء على ثورة ابن عبد الجبار كان سياسة مرسومة ، لها أهدافها ومغزاها . فقد أراد المنصور أن يعتقد أهل خراسان أن المهدي هو منقذهم من ذلك الشاثر الذي قتل وجوه الخراسانيين ، وألحق الأذى بأهل خراسان . وبلاد خراسان هي مهد الدعوة العباسية ، والخراسانيون هم عمدة الخلافة العباسية . وقد أقام المهدي بعد قضاائه على الثورة فترة في خراسان ، نجح خلالها في اكتساب محبة أهلها .

وفي سنة ١٤٥ هـ ، بدأ المنصور بناء العاصمة العباسية الجديدة ، بغداد . ووقف المنصور الى جانب أبيه يشاركه جهوده في بناء هذه الحاضرة الكبيرة ، ويخفف عنه أعباءه . وكان المنصور يباشر البناء بنفسه ، ويتشدد في محاسبة العمال والصنائع ، فيقول لهذا : أنت نمت القائلة . ولهذا : أنت لم تبكر الى عملك . ولغيره : أنت انصرفت ولم تكمل اليوم .

تولية المهدي العهد :

في سنة ١٤٧ هـ ، وحينما أتم المهدي ٢١ سنة من عمره ، أي بلغ سن الرشد ، رأى المنصور أنه قد حان الوقت لأخذ البيعة لابنه المهدي بولاية العهد بدلا من عيسى بن موسى . فقد اكتملت شخصية المهدي ، ونضج عقله ، وأثبت كفاءته في ميادين الحرب والسياسة ، واكتسب اعجاب الناس ومحبتهم . وكان

المهدى قد اشتهر بأنه محمود السيرة ، كريم الأخلاق ، مما جعله جديراً بأن يسبق عيسى بن موسى الى الخلافة .

وكان المنصور — فى الحقيقة — طوال السنوات الماضية يكرم عيسى بن موسى ، ويظهر له المودة والمحبة ، ويعتمد عليه فى مهام أمور الدولة . فكان عيسى يجلس دائماً الى يمين الخليفة ، بينما يجلس المهدي على يساره .

ثم رأى المنصور أن يخرج مشروع تولية المهدي العهد الى حيز التنفيذ . ولم يشأ أن يحرم عيسى بن موسى من تولي الخلافة الى الأبد ، بل رأى أن يأخذ البيعة للمهدي ثم لعيسى من بعده .

تحدث المنصور الى عيسى عن رغبته فى تقديم المهدي عليه فى ولاية العهد ، وصاغ رجاءه فى عبارات هادئة رقيقة . فقال عيسى : يا أمير المؤمنين ، فكيف بالايمان والمواثيق التى على وعلى المسلمين لى من العتق والطلاق وغير ذلك من مؤكد الايمان ، وليس الى ذلك سبيل يا أمير المؤمنين !

غضب المنصور وتغيّر لون وجهه ، وبدأ الجفاء بين الرجلين ، فكان المنصور يباعد عيسى ، وأصبح يأذن للمهدي بالدخول الى مجلسه قبله ، ويتّجسّس المهدي الى يمينه ، حتى اذا دخل عيسى جلس الى جوار المهدي ، ورفض أن يجلس الى يسار الخليفة ، مما أثار غضب المنصور عليه . ثم أصبح المنصور يأذن لكثير من الناس بالدخول عليه قبل أن يأذن لعيسى . وكان عيسى

يكظم غيظه « فهو في ذلك كله صامت لا يشكو منه شيئا ولا يستعجب »^١ .

وبدأ المنصور في مضايقة عيسى بن موسى ، علته يوافق على رغبته في تقديم المهدي عليه في ولاية العهد . فكان المنصور يتعمّد أن يهمل عيسى قبل أن يأذن له بالدخول عليه ، فيطول انتظاره . كما أمر بعض غلمانه أن يحفروا حائط الحجرة التي ينتظر عيسى فيها ، حتى كان التراب يغطي ملابسه ، فاذا دخل على المنصور ، قال المنصور له : يا عيسى ما يدخل على أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار عليك والتراب ، أفكل هذا من الشارع ؟! فيجيب عيسى : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين !

وفطن بعض الجند الى رغبة المنصور في خلع عيسى من ولاية العهد ، ولمسوا تعمّده الاستهانة به ، فحذوا حذو الخليفة « فكانوا اذا رأوا عيسى راكبا أسمعوه ما كره »^٢ . وتقدم عيسى الى المنصور بالشكوى ، فنهر الجند وقال لهم : لا تؤذوا ابن أخى فانه جلدة بين عيني ، ولو كنت تقدمت اليكم لضربت أعناقكم ! . فكان هؤلاء الجند يكفون ثم يعودون .

ثم بعث المنصور الى عيسى بن موسى برسالة طويلة يطلب فيها منه أن يقبل تقديم المهدي عليه في ولاية العهد ، وذكر له أن ذلك من صالح الدولة العباسية التي تعاونوا جميعا من أجل اقامتها ، وتحقيقا لوحدة الأسرة العباسية ضد أعدائهم ، ووضّح

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٧٢

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٢٧٥

له أن رفضه يؤدي إلى الشقاق والافتقار والفتنة . وتحدث المنصور في آخر رسالته عما بلغه المهدي من مجد ، وأشاد بحب الناس له ، وخاصة أهل خراسان ، فجاء في ختام الرسالة : « ... فأحب أمير المؤمنين أن يعلمك الذي اجتمع عليه رأي رعيته ، وكنت في نفسه بمنزلة ولده ، يحب من سترك ورشدك ما يحب لنفسه وولده ، ويرى لك إذا بلغك من مال ابن عمك ما ترى من اجتماع الناس عليه ، أن يكون ابتداء ذلك من قبلك ، ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم ، أنك أسرع إلى ما أحبوا مما عليه رأيهم في صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم ، وإن ما كان عليه من فضل عرفوه للمهدي أو أمثلوه فيه كنت أحظى الناس بذلك وأسرههم به لمكانه وقرابته ، فأقبل نصيح أمير المؤمنين لك تصلح وترشد » .

ورد عيسى بن موسى على رسالة المنصور برسالة شديدة اللهجة ، جاء فيها : « ... بلغني كتابك تذكر فيه ما أجمعت عليه من خلاف الحق وركوب الائم في قطيعة الرحم وتقض ما أخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء للخلافة والعهد لي من بعدك ، لتقطع بذلك ما وصل الله من حبله ، وتفرق بين ما ألقاه الله جمعه ، وتجمع بين ما فرق الله أمره مكابرة لله في سمائه وحولا على الله في قضائه ومتابعة للشيطان في هواه ، ومن كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن ماكره عن شيء خدعه ... » ^١

وعلم الجند برسالة عيسى الى المنصور ، وما حوته من
رفض عيسى تحقيق رغبة الخليفة ، فعادوا الى ما كانوا عليه من
ايداء له ، « فكانوا يأتون باب عيسى فيمنعون من يدخل اليه ،
فاذا ركب مشوا خلفه وقالوا : أنت البقرة التي قال الله
فذبحوها »^١ . وتوجه عيسى بالشكوى الى المنصور ، فقال
المنصور : يا ابن أخى أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسى ، قد
أشربوا حب هذا الفتى ، فلو قدّمته بين يديك ، فيكون بينى
وبينك ، لكفثوا !

ضاقت السبل أمام المنصور ، اذ أصرَّ عيسى على ألا يقبل
تقديم المهدي عليه فى ولاية العهد ، فطلب المنصور من خالد بن
برمك أن يكون وسيطا له لدى عيسى ، ورأى خالد أن يلجأ
الى الحيلة والدهاء ، فصحب ثلاثين رجلا من شيعة بنى العباس ،
واتجهوا نحو دار عيسى ، وطالبوه بخلع نفسه ، فأصرَّ على
الرفض أيضا . وخرج خالد مع هؤلاء القوم الى المنصور ،
وزعموا أن عيسى قد وافق على خلع نفسه ، وشهد القوم على
ذلك ، وقالوا : نشهد عليه أنه قد أجاب وليس له أن يرجع^٢ .
وأعلن المنصور البيعة للمهدي ثم لعيسى من بعده ، وكتب بذلك
الى جميع ولايات الدولة العباسية . وشكر المنصور لخالد هذا
المعروف ، وأصبح خالد دائما موضع تقدير المهدي .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٧٩

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٢٨٠

وتذكر بعض الروايات أن عيسى بن موسى خلع نفسه نتيجة الحاح المنصور ورجال دولته ، ولينجو بنفسه من ايذاء الجند واهاناتهم له . وتذكر روايات أخرى أن عيسى قبل التنازل عن حقه مقابل عشرة ملايين درهم يأخذها هو ، وثلاثمائة ألف درهم يأخذها أولاده ، وسبعمائة ألف درهم تأخذها زوجته ^١ .

ويلخص الطبري ^٢ هذه الروايات كلها في رواية واحدة ، فيقول : « عن بعض صحابة أبي جعفر أنه قال : تذاكرنا أمر أبي جعفر المنصور وأمر عيسى بن موسى في البيعة ، وخلعه اياها من عنقه ، وتقديمها المهدي ، فقال لي رجل من القواد سمّاه : والله الذي لا اله غيره ، ما كان خلعه اياها منه الا برضاً من عيسى وركون منه الى الدراهم وقلة علمه بقدر الخلافة ، وطلباً للخروج منها أنى يوم خرج للخلع فخلع نفسه » .

وبعد البيعة للمهدي ، توجه المنصور له بالنصيحة والارشاد ، ورسم له السياسة الرشيدة التي ينتهجها في حكم رعاياه ، مسلمهم وذمّهم ، فحثه على الرأفة بهم ، والسهر على راحتهم ، وبسط العدل بينهم ، والتقرب الى الله بحسن السيرة ، واجلال أهل العلم والدين ، وعمارة الأرض بتخفيف الخراج ، ونشر الاسلام ، والجهاد في سبيل اعلاء كلمته ^٣ .

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٨٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٢ وتاريخ الاسلام لحسن ابراهيم

ج ٢ ص ٢٨

ومن نصائح المنصور لابنه المهدي بعد أن جعله ولي عهده :
يا أبا عبد الله ، استدم النعمة بالشكر والقدرة بالعفو والطاعة
بالتألف والنصر بالتواضع ، ولا تنس مع نصيبك من الدنيا
نصيبك من رحمة الله . كما قال المنصور للمهدي أيضا : لا تبرم
أمرا حتى تفكر فيه ، فان فكر العاقل مرآته ، تريه حسنه
وسپئه ١ .

دخل عمرو بن عبيد على المنصور بعد بيعته للمهدي ،
فقال المنصور له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولي
عهد المسلمين . فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطدت
له الأمور ، وهى تصير اليه ، وأنت عنه مسئول . فاستعبر
المنصور وقال له : عظنى يا عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين ،
ان الله قد أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وان
هذا الذى أصبح فى يدك لو بقى فى يد غيرك لم يصل اليك ،
فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده ٢ .

ومهما كان الدافع للمنصور على ما أقدم عليه من تقديم
ابنه المهدي على ابن أخيه عيسى بن موسى فى ولاية العهد ،
ومهما كانت الطريقة التى اتبعها فى الحصول على تنازل عيسى عن
حقه فى أن يتقدم المهدي ، فائنا نلتبس العذر للمنصور فيما
أقدم عليه .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣١٦

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣١٤

فقد كان المهدي حين ولاه المنصور شابا يتميز بصفات تؤهله للخلافة ، اكتمل له الدين والعلم والأخلاق والخبرة والدراية بالشئون السياسية والحربية ، وقد بلغ سن الرشيد ومرحلة نضوج الشخصية . كما أثبت المهدي حين تولى الخلافة أنه كان جديرا بما وصل اليه ، وكانت سنوات خلافته عصر رخاء وهدوء واستقرار واصلاح ، وأجمع المؤرخون على امتداحه والثناء عليه . واذا وضعنا المهدي وعيسى في كفتين ، كانت كفة المهدي هي الراجحة .

وأين المهدي من يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي أخذ له معاوية البيعة من الناس بولاية العهد ، وتخطى به أبناء الصحابة الأجلاء ، أمثال الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، ومحمد بن علي بن أبي طالب ، وغيرهم . وقد كان يزيد شابا عابثا ماجنا ، لا يصلح — كما أجمع المؤرخون — لتولي الخلافة . ولكن عاطفة الأبوة جعلت معاوية يقدم ابنه يزيد على سائر أبناء الصحابة ، ويحول الخلافة من نظام الشورى الى نظام الوراثة .

خليفة المستقبل :

مضى المنصور في سياسته التي خطها ، والتي ترمى الى اعداد المهدي ليكون خليفة المستقبل . فقد أخذ له البيعة من الناس بولاية العهد ، وقال ذلك قبولا وتأيدا من رعايا الدولة

العباسية . وحرص المنصور على أن يشترك المهدي في القيام بأعباء الحكم ، ويساهم في المصالح العامة للدولة .

ففي سنة ١٥٠ هـ ، أعلن أستاذ سبب الثورة في أقاليم هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من مناطق خراسان ، وبلغ عدد أتباعه ثلاثمائة ألف مقاتل ، ونجحوا في السيطرة على خراسان ، وأنزلوا ألوانا من التنكيل بأهل مرو ، ونجحوا في هزيمة عدد من قواد المنصور . فعهد المنصور الى ابنه المهدي وقائده المشهور خازم بن خزيمه بالقضاء على هذه الثورة الجامحة ، فخرج في جيش كبير تألف من ثلاثين ألف مقاتل .

نجح المهدي وخازم في هزيمة أستاذ سبب ، وقتلوا أكثر من سبعين ألفا من رجاله ، وأسروا أربعة عشر ألفا ، وهرب أستاذ سبب الى جبل ومعه قليل من أتباعه ، ونجح المهدي وخازم في القبض عليه ، وأوثقاه بالحديد^١ .

وفي سنة ١٥١ هـ عاد المهدي الى خراسان بعد هذه الانتصارات الحافلة ، فخرج المنصور الى لقائه ، وقدم على المنصور والمهدي عامة أهل البيت العباسي من الشام والكوفة والبصرة مهنئين ، فأنعم المنصور عليهم بالمال والكسوة ، كما منح المهدي كلاً منهم خمسمائة درهم^٢ .

وأراد المنصور أن يكرم المهدي ، ويكافئ جنده على

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٨٧ - ٢٨٨

(٢) الطبري ج ٦ ص ٢٩١ - ٢٩٢

استبسالهم في قتال أستاذ سيس وقضائهم على ثورته الخطيرة .
فبنى لهم مدينة في شرق بغداد سمّاها الرصافة « وعمل لها
سورا وخندقا وميدانا وبستانا ، وأجرى له الماء ، فكان يجري
من نهر المهدى الى الرصافة » ١ .

وفي نفس السنة (١٥١ هـ) جدّد المنصور البيعة لنفسه
ولابنه محمد المهدى من بعده ، ولعيسى بن موسى من بعد
المهدى ، فأخذ البيعة من أهل البيت العباسي في مجلسه في يوم
جمعة « فكان كل من بايعه منهم يقبل يده ويد المهدى ، ثم
يمسح على يد عيسى بن موسى ولا يقبل يده » ٢ .

حتى اذا قدمت سنة ١٥٣ هـ ، ولّى المنصور ابنه المهدى
امارة الحج ليرتفع ذكره بين الناس ، فخرج في موكب عظيم
حافل ، والتقى في مكة بالمسلمين الذين قدموا من جميع الولايات
العباسية للحج . وفي سنة ١٥٥ هـ عهد المنصور الى المهدى ببناء
مدينة جديدة هي (الرافقة) ، وأشرف المهدى على بنائها ،
وأنشأها على طراز مدينة بغداد .

وفي سنة ١٥٨ هـ أمر المنصور ابنه المهدى بالتوجه الى الرقة
وعزل موسى بن كعب والى الموصل ، وتولية يحيى بن خالد بن
برمك عليها . وكان الأكراد قد ثاروا في الموصل ، وتكاسل
الوالى عن اخماد ثورتهم . ونصح العباسيون المنصور بتولية

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٩٢

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٢٩٣

يحيى بن خالد بدلا من هذا الوالى . وقام المهدي بالمهمة التي عهد أبوه له بها خير قيام ، ثم عاد الى بغداد .

وفى سنة ١٥٨ هـ حانت منية أبي جعفر المنصور ، فانتقل الى الرفيق الأعلى ، وتولى المهدي الخلافة ، فأصبح ثالث الخلفاء العباسيين ، وبدأت الدولة العباسية تدخل فى مرحلة جديدة متميزة .

الخليفة الجديد

وصايا المنصور للمهدي قبيل وفاته :

كان المنصور في أواخر حياته يعاني من أمراض المعدة ، فقد كان يكثر من الطعام ، ولا يعمل بنصيحة الأطباء . وروى الطبري ^١ أن المنصور كان لا يستمرىء طعامه ، ويشكو ذلك الى الأطباء ، فيصفون له الأدوية التي تساعد على الهضم ، وينصحونه بالاعتدال في طعامه ، ويقولون : لا يموت والله أبو جعفر أبدا الا بالبطن .

عزم المنصور على الخروج الى مكة للحج ، وشعر أنها قد تكون رحلته الأخيرة ، وأنه موشك على الوفاة . فأقام في قصر عبدويه في بغداد ، واستدعى اليه ابنه وولى عهده المهدي ليوصيه وينصحه ، « فأوصاه بالمال والسلطان ، يفعل ذلك كل يوم من أيام مقامه ، بالغداة والعشي ، لا يفتر عن ذلك » . حتى اذا حل يوم الرحيل ، دعا المنصور المهدي وعهد اليه بسفط فيه دفاتر علمه ، وأعطاه مفتاحه ، وقال له : انظر هذا السفط فاحتفظ به ، فان فيه علم آبائك ما كان ، وما هو كائن الى يوم القيامة ، فان أحزنك أمر فانظر في الدفتر الأكبر ، فان أصبت

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٠٧

فيه ما تريد والا فالثاني والثالث ... وانظر هذه المدينة فاياك
أن تستبدل بها ، فانها بيتك وعزك قد جمعت لك فيها من
الأموال ، ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية
لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ
بها ، فانك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا ... » .

واستمر المنصور يرسم للمهدى طريق المستقبل ، فقال :
وأوصيك بأهل بيتك ، أن تظهر كرامتهم وتقديهم وتكثر
الاحسان اليهم وتعظم أمرهم وتوطىء الناس أعقابهم وتوليهم
المنابر ، فان عزك عزهم وذكرهم لك ، وانظر مواليك فأحسن
اليهم وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدة ان نزلت بك ،
وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين
بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك ومن لا تخرج محبتك
من قلوبهم أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم على
ما كان منهم ...^١

حتى اذا حانت ساعة الرحيل ، ووداع الأب لابنه ، وافضائه
بوصيته الأخيرة له ، قال المنصور للمهدى : يا أبا عبد الله ،
انى سائر وانى غير راجع ، فانا لله واثقا اليه راجعون ، فاسأل
الله بركة ما أقدم عليه ، هذا كتاب وصيئتي مختوما ، فاذا بلغك
أنى قد مت وصار الأمر اليك فانظر فيه ، وعلى دين فأحب
أن تتفضيه وتضمنه ، فقال المهدى : هو على يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور : فانه ثلاثمائة ألف درهم ونيف ولست أستحلها من بيت مال المسلمين فاضمنها عني ، وما يفضي اليك من الأمر أعظم منها . قال المهدي : أفعل هو عليّ . فقال المنصور : وهذا القصر ليس هو لك ، هو لي ، وقصرى بنيته بمالي ، فأحب أن تصير نصيبك منه لاختوتك الأصاغر . قال المهدي : نعم . فقال المنصور : ورقيقى الخاصة هم لك فاجعلهم لهم فانك تصير الى ما يغنيك عنهم وبهم الى ذلك أعظم الحاجة . فقال المهدي : أفعل . واستمر المنصور في وصيته فقال : أما الضياع فلست أكلفك فيها هذا ولو فعلت كان أحبّ اليّ . فقال المهدي : أفعل . فقال المنصور : سلّم اليهم ما سألتك من هذا وأنت معهم في الضياع والمتاع والثياب سلمه لهم . قال المهدي : أفعل . وختم المنصور وصيته بقوله : أحسن الله عليك الخلافة ولك الصنيع ، اتق الله فيما خولك وفيما خلفتك عليه .^١

واستدعى المنصور زوجته ريطة بنت أبي العباس ، وهي أم المهدي ، فأوصاها بما أراد وعهد اليها ، ودفع اليها مفاتيح الخزائن ، وأحلفها ووكد الايمان أن لا تفتح بعض تلك الخزائن ولا تطلع عليها أحدا الا المهدي ، وبعد وفاته ، حتى اذا مات ، اجتمعت هي والمهدي وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة^٢ . خرج المنصور من بغداد قاصدا مكة ، وكان الجو حارا فأصيب في الطريق بضربة شمس ، ومرض ، وشعر أنه مرضه

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٤٣

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٤٤

الأخير ، وأنه مفارق للحياة ، فاستدعى اليه حاجبه ومولاه
الربيع بن يونس ، وعهد اليه بوصيته . حتى اذا وصل المنصور
الى بئر ميمون ، وهى على بُعد ستة أميال من مكة ، توفى فى
السحر أو مع طلوع الفجر ، ليلة السبت لست خلون من
ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ .

وفاة المنصور والبيعة للمهدى :

أدرك الربيع بن يونس حاجب المنصور ، خطورة الموقف
بعد وفاة المنصور . فقد مات المنصور بعيدا عن حاضرة خلافته ،
وكان المهدى حينئذ فى بغداد نائبا عن أبيه فى حكم الدولة .
ودفعه اخلاصه للخليفة الراحل وولى عهده المهدى الى أن يتكتم
نبا وفاة المنصور حتى يأخذ البيعة للخليفة الجديد . فقد كان
عيسى بن موسى لا يزال على قيد الحياة ، يترقب الفرص للوثوب
الى الخلافة . ومنع الربيع نساء المنصور ومواليه من البكاء
والنواح ، وأجلس الخليفة المتوفى وأسنده وجعل على وجهه كلة
خفيفة يرى وجهه منها ، حتى لا يفطن أحد الى موته ، ثم أذن
لوجوه بنى هاشم بالدخول على الخليفة ، فلما دخلوا وقفوا بين
يديه ، وهم يحسبونه على قيد الحياة ، تقدم الربيع نحو المنصور
وتظاهر بالتحدث اليه وكأنه يشاوره ، ثم عاد اليهم وقال :
أمير المؤمنين يأمركم بتجديد البيعة للمهدى . فتقدم الجميع
بالبيعة له ^١ .

(١) الفخرى ص ١٥٦

ثم شاع نبأ وفاة المنصور بين الناس ، فقدم أهل البيت العباسي واتخذوا مجالسهم ، كما قدم بعض أبناء الأسرة العلوية ، واحتشدوا جميعا في سرادق كبير نصبه الربيع بن يونس . ثم خرج الربيع اليهم ، وفي يده قرطاس ، ففضّته وقرأ ما فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى من خلّف من بنى هاشم ، وشيعته من أهل خراسان ، دعامة المسلمين » . ثم رمى القرطاس من يده وانفجر باكيا ، فأبكى الحاضرين ، ثم عاود القراءة وهو يقول : قد أمكنكم البكاء ، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين ، لا بد أن تقرأه عليكم ، فأنصتوا رحمكم الله .

ركن الحاضرون الى السكوت ، فعاود الربيع تلاوة عهد المنصور لابنه المهدي : « أما بعد ، فاني كتبت كتابي هذا وأنا حي في آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدى ، ولا يلبسكم شيئا ، ولا يذيق بعضكم بأس بعض ، يا بنى هاشم ، ويا أهل خراسان ... » فأوصاهم المنصور بابنه المهدي ، وذكرهم ببيعته السابقة له ، ودعاهم الى تأييده ونصرته .

تقدم الهاشميون واحدا بعد آخر الى الربيع بن يونس ببيعتهم للمهدي بالخلافة ، وأراد عيسى بن موسى الامتناع عن البيعة ، فنهض على بن عيسى بن ماهان واستلّ سيفه ثم جاء اليه فقال : والله لتبايعن أو لأضربن عنقك . فخاف عيسى وتقدم بالبيعة .

وبعث الربيع الى المهدي برسول ينبئه بموت أبيه المنصور ،
ويهنئه بالخلافة ، وحمل الرسول الى المهدي قضيب النبي صلى
الله عليه وسلم ، وبردته التي يتوارثها الخلفاء ، كما بعث معه
بخاتم الخلافة .

وبعد هذه البيعة الخاصة التي أخذها الربيع من الأسرة
الهاشمية ، عباسيين أو علويين أخذ البيعة العامة من رجالات
الدواة وعامة الناس . فكانت البيعة للمهدي بالخلافة ولعيسى بن
موسى بولاية العهد ، واشترك موسى بن المهدي في أخذ البيعة
من عامة المسلمين ، وكان أهل مكة يبايعون بين الركن والمقام ،
كما بويع للمهدي في بغداد وسائر الولايات الاسلامية في
١٨ من ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ .

وعلم المهدي بما فعله الربيع ، وما كان من اخفائه نبأ وفاة
المنصور ، ودخول الهاشمين عليه وهو ميّت ، وزعم الربيع
لهم أنه على قيد الحياة . ولم يرض المهدي عمّا فعله الربيع ،
وقال له : ألم تمنعك جلالة أمير المؤمنين ان فعلت ما فعلت به ؟! ١

مطلع الخلافة :

بويع المهدي بيعة خاصة في بغداد ، وتقبّل عزاء الناس في
وفاة أبيه ، وتهنئتهم له باعتلاء الخلافة . وصف أحد الكتّاب ٢
يوم البيعة للمهدي وصفا جميلا معبراً ، فذكر أن الساحات

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥١ ، الفخرى ص ١٥٦

(٢) المدور : حضارة الاسلام في دار الاسلام ص ٦٦

كانت غاصة بجماهير الناس ، وكان أهل البيعة يلجئون باب
السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس ، حتى اذا انتهوا الى
القبة الخضراء ، فجاوزوا الحجاب الى المجلس الذى تقام فيه
البيعة ، فاذا به قد جمع الأمراء من بنى العباس وكبار القواد
والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة وآل طاهر وآل قحطبة
وآل نوبخت وغيرهم . وكان المهدى مستويا على عرش مكلّل
باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وعلى رأس العرش قبة
تتدلى منها أستار من الديباج . وعلى يمينه ويساره غلامان قد
التحفا بالذهب ، ووقفوا بمظلتين من الريش الأسود مرفوعتين
على زحيتين مكسوتين بعروق من الذهب ، قد طعّمت بالياقوت
والزبرجد والفيروز ودونهما بنو هاشم على وسائد قد ثنيت
لهم ، ولباسهم خز أسود ، وكذلك كان لباس المهدى ، فاللون
الأسود هو شعار العباسيين ، وكانت عليه الطرحة ، وعلى كتفه
بردة النبى صلى الله عليه وسلم التى استصحبها المنصور الى
الحج ، وفى يده القضيب ، وفى الأخرى خاتم الخلافة .

وكان الى يمين العرش منبر مزخرف بأنواع الزينة والجوهر
والديباج ، وقد وقف به كاتب المهدى فى خلافة أبيه أبو عبد الله
معاوية بن عبد الله الأشعرى ، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة ،
قد اتخذ له وزيرا له فى سياسة الملك ، وكان سلامان الأبرش
حاجبه واقفا على بعض مراقبة هذا المنبر للبيعة التى جاء بها منارة
من مكة ، وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة ، قد أخذ فى يده
البيعة على أمراء الحضرة — أى العلويين — الذين لم يروا الا

متابعة الناس ، بعد أن بايعت مكة والمدينة ،
والوزراء وأكابر المسلمين .

وتقدم الشاعر أبو دلامه يهنئ الخليفة الجديد
ويعزيه في وفاة أبيه ، بقصيدة رائعة ، وكأن لسانه يـرـ
مات الخليفة ، يحيا الخليفة . كما يقولون الآن : مات الملك ،
يحيا الملك ١ .

أنشد أبو دلامة قصيدة ، تنقل أبياتها عن المؤرخ
السيوطي ٢ :

عيناي واحدة تثرى مسرورة
بأمرها جَذَلِي وأخرى تذرف
تبكى ، وتضحك تارة ، ويسوؤها
ما أنكرت ، ويسرؤها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرما
ويسرها أن أقام هذا الأراف
هلك الخليفة يا لدين محمد
وأناكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة
ولذلك جنّات النعيم تُزَخرفُ
وكانت عادة الناس في مثل هذا الموقف أن يبدؤا الخليفة
بتعزيته في أبيه ، ثم يهنئوه بتوليته الخلافة . فلما أخذوا في

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٨

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٢

عزيرة المهدي خلعوا قلائسهم ونبذوها وراء ظهورهم ، لأن الخلفاء لا يعزّون بالعمائم . ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين ، فقال : « انا نبايع سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على جميع الأنام أبا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور ، على كتاب الله وسنة نبيّه واجتهاد أمير المؤمنين ، وأن لا خليفة سواه » . ثم بايعه كل من حضر المجلس ، حتى لم يكن يسمع الاّ دعاء له واشادة باسم بنى العباس^١ .

وبعد أن بايع الناس المهدي بالخلافة ، نادى المنادي في طرقات بغداد : الصلاة جامعة . واحتشد المسلمون في جامع بغداد ، لأخذ البيعة العامة . ووقف المهدي في عامة الناس المحتشدين في الجامع خطيبا ، فنعى اليهم أباه ، ثم قال : « ان أمير المؤمنين عبد^٢ دعى فأجاب ، وأمر فأطاع ، ثم اغرورقت عيناه بالدموع ، ولكنه تمالك نفسه ، ثم قال : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بكى عند فراق الأحبة ، ولقد فارقت عظيميما ، وقلدت جسيما وعند الله أحتسب أمير المؤمنين ، وبه عزّ وجلّ أستعين على خلافة المسلمين » . وكان المهدي يريد أن يسترسل في خطبته ، ولكنه كان شديد الحزن ، فترقرقت الدموع في عينيه ، ولم يتمكن من المضي في حديثه^٢ .

وقرأ الوزير رسالة المنصور الى الناس التي أمر بقراءتها

(١) المدور : حضارة الاسلام ص ٦٧

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩٢

بعد وفاته ، فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى من خلف من بنى هاشم وشيعته في خراسان وعامة المسلمين . أما بعد ، فاني كتبت هذا وأنا حي في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة . أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدي ، ولا يلبسكم شيئا ، ولا يثدق بعضكم بأس بعض ، وأوصيكم بمحمد ولي عهدكم وأذكركم البيعة له ، وأستنهضكم للوفاء بعهدہ واجتماع كلمتكم عليه ، فاتموا قوتكم تكون بالاجتماع الى رأيه ، وقد أوصيته بكم وبالرفقة عليكم والاحسان الى المسلمين والسلام » .

دخل عبد الله بن عمرو بن عتبة على المهدي يعزيه في وفاة أبيه المنصور فقال : آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله له فيما خلفه عليه ، ولا مصيبة أعظم من فقد امام والد ، ولا عقبى أجل من خلافة الله على أولياء الله ، فأقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عند الله أفضل الرزية ١ .

ولما كان المساء أقيمت في بغداد زينة حافلة ، وامتلأت العاصمة بأرباب الملاحى ، وبما يعرضون من صور الطين ، التى يصنعونها للعب الصبيان فى المواسم والأعياد . وصنع المهدي لبني هاشم وسائر قریش طعاما جاوز فيه الحد بسعة

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٥

النفقة ، حتى انه أطعم الناس الطير وخبز السميد . وكان المهدي يحمل معه بدر الدراهم والدنانير في ركوبه ، فلا يتعرض له أحد الا أعطاه . وقدمت وفود البلاد الاسلامية العربية من بغداد لتهنئته بالخلافة ، فاجتمع ببابه كثير من أشرف العرب وأمراء الولايات ، تبركون به ، فقد كان محسنا اليهم ، محبا لهم ، ساعيا فيما تصلح به أمورهم^١ .

بداية عصر ذهبي :

كان تولى المهدي الخلافة فاتحة عصر جديد يتميز عما سبقه من عهود ، وما تبعه من عصور . فقد اتصف عهده بالهدوء والاستقرار والرخاء والحضارة .

وتعتبر خلافة المهدي فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع ، الذي ساد عهد من سبقه من خلفاء بني العباس ، وعهد الاعتدال واللين الذي امتازت به أيامه وأيام من أتى بعده^٢ .

نم يكن الطريق ممهدا أمام قيام الدولة العباسية ، فقد كان على العباسيين أن يهدموا الدولة الأموية ، وهي دولة عربية عريقة ، وضعت لحكمها وسيادتها أسسا وطيدة ، ونجحت في أن تكون امبراطورية كبيرة تمتد من حدود الصين شرقا الى شواطئ المحيط الأطلسي ، وتشمل ولايات في آسيا وافريقية وأوروبا . ونجح العباسيون في القضاء على الدولة الأموية ،

(١) الدور : حضارة الاسلام ص ٧٠

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٨

وأصبح أبو العباس أول الخلفاء العباسيين . وكانت مهمته كبيرة ، فكان عليه أن يتخلص من بقايا العصر الأموي ، حتى يبدأ صفحة جديدة . واضطر أبو العباس الى أن يقتل أعدادا كثيرة من أبناء البيت الأموي وأنصارهم ، حتى يضمن سلامة الدولة العباسية الوليدة ، ويثبت أقدامها ، وقد وصف أبو العباس نفسه في خطبة له في مسجد الكوفة بأنه « السفاح المبيح ، والثائر المبير » . ولذا أطلق معاصروه عليه لقب (السفاح) .

ولا شك أن أبا العباس كان مضطرا الى اتهام هذه السياسة الحازمة ، ليحمي نفسه ودولته من الأعداء . فالمؤرخون يسوقون المديح والثناء عليه ، فيصفه ابن طباطبا^١ بأنه كان « كريما حلما وقورا ، عاقلا كاملا ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق » . ويصفه السيوطي^٢ بأنه كان أسخى الناس ، وما وعد عدة فأخرها عن وقتها . ويرى المؤرخ « نيكلسون »^٣ أن لفظ (السفاح) مرادف للفظ (المناح) وهو الكثير العطايا ، وكان هذا اللفظ يطلق على كثير من شيوخ القبائل في الجاهلية . أما أبو جعفر المنصور ، فيعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقي للدولة العباسية . فقد كانت مدة خلافة أبي العباس قصيرة (أربع سنين وتسعة أشهر) . ونجح المنصور في تخليص الدولة

(١) الفخرى ص ١٣٤

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٧١

(٣) Nicholson ; Lit. Hist of the Arabs, P. 253

العباسية من أعدائها ، ففضى على ثورة العناصر العربية التي تزعمها عمته عبد الله بن علي ، وتخلص من أبي مسلم الخراساني الذي بدأ يعتز بنفسه وينافس الخليفة في سلطانه ، كما أحمده ثورات العلويين في الحجاز والعراق . واضطر المنصور الى قتل خصومه وأعدائه ولكن بالحق ، فقد عاقب عيسى بن موسى لأنه قتل رجلا أمويا بدون وجه حق ، وأمره بالألاعاقب أحدا عن ريبة وظن . وصف المؤرخ أبو الفدا^١ المنصور فقال : « كان المنصور أحسن الناس خلقا في الخلوة حتى يخرج الى الناس » .

امتدت خلافة المنصور من سنة ١٣٦ هـ الى سنة ١٥٨ هـ ، أى ٢٢ سنة . ونجح المنصور في تثبيت دعائم الدولة العباسية ، وضمان سلامتها من الأخطار والأعداء . وكان مقتصدا في نفقاته فترك بيت مال عامر بالأموال . ولذا ورث المهدي عن أبيه دولة عظيمة الاتساع ، مستقرة الأوضاع ، ثابتة الأركان ، عامرة الخزائن ، تشع في أرجائها أنوار الحضارة والمدنية والرخاء . فقد كانت الأموال التي تركها له أبوه تكفيه للاتفاق عشر سنوات .

تحدث المرحوم الشيخ الخضري عن خلافة المهدي فوصفها بأنها مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور ، فقد كان المنصور يؤسس ملكا له خصوم ، فكان يكتفى بالريبة والظنة فيعاقب بهما . فلما جاء المهدي كانت

(١) المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٨

الخلافة العباسية قد توطدت ، وأنياب العلويين قد كسرت ،
وان كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة ، فهم لا يحتاجون
في الاحتراس منهم الى مثل ما كان المنصور يحتاج اليه من
الشدة ، فان كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد ،
والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم ، فكانوا يعرضون
عليه كل يوم ، ولذلك كانت حياة المهدي حياة سعيدة لنفسه
ولأمته .

أدرك المنصور أنه مهّد الطريق أمام ابنه المهدي ، وقد عبّر
عن هذه الحقيقة في حديثه للمهدي قبل رحيله الى مكة حيث
مات ، فقال : « يا بني انى قد جمعت لك من الأموال ما لم
يجمعه خليفة قبلى ، وجمعت لك من الموالى ما لم يجمعه خليفة
قبلى ، وبنيت لك مدينة لم يكن فى الاسلام مثلها »^١ .

ويمكننا أن نشبه عصر المهدي فى العصر العباسى ، بعصر
الخليفة الوليد بن عبد الملك فى العصر الأموى . فقد قام أبوه
عبد الملك بن مروان بنفس الدور الذى قام به أبو جعفر
المنصور . فقد تولى عبد الملك الخلافة فى ظروف قلقة حرجية ،
اذ انتشرت فى الدولة الأموية الفتن والثورات . فقد أعلن
المختار الثقفى^٢ الثورة ووقف الموالى الفرس الى جانبه ، كما
استمرت ثورات الخوارج فى أطراف الدولة الشرقية ، كما كان

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٤٥

(٢) انظر كتابنا (المختار الثقفى) سلسلة أعلام العرب العدد ١٦ .

هناك عبد الله بن الزبير^١ الذى أعلن الثورة وبايع لنفسه بالخلافة فى بلاد الحجاز وسيطر على بلاد العراق . وأبدى عبد الملك ما أبداه المنصور من شجاعة وحزم وثبات ، ونجح فى اخماد روح الثورة . حتى اذا مات عبد الملك ترك دولة متحدة يسودها الهدوء والرخاء ، ولذا تفرغ الوليد للفتوحات الخارجية ففتح شمال افريقية والأندلس وجنوب أوروبا والهند والأطراف الشرقية للدولة .

وهكذا جنى كل من الوليد والمهدى ثمار ما زرعه الأبوان ، عبد الملك والمنصور . فقد مهّدا الطريق أمام ولديهما ليعيشا حياة هادئة رغدة ، وأصبح عصر الوليد وعصر المهدى من العصور الذهبية التى شهدتها المسلمون .

مات المنصور ، وترك وراءه دولة عظمى موحدة ، تنعم بالهدوء والسكينة والسلام ، وخلف خزائنا تفر بالأموال ، وبدأ دور جديد آخر يجد فيه الخليفة والناس على أثره وقتنا للفراغ والجدة ، ومصدرا خصبا للترف والنعيم^٢ .

سياسة رشيدة :

أجمع المؤرخون ، بدون استثناء ، على وصف سياسة المهدى بالرشد والنضوج والكمال . وامتدحوا أخلاقه وسجاياه ، واعتبروا عصره من العصور الزاهرة .

(١) انظر كتابنا (عبد الله بن الزبير) سلسلة أعلام العرب العدد ٤٣

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ١١٠

وصف المسعودي^١ الخليفة المهدي فعدّ سجاياه ، وقال :
« وكان المهدي محبّا الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره
بالنظر الى المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وانصاف
المظلوم ، وبسط يده في الاعطاء » .

وتحدث المؤرخ ابن طباطبا^٢ عن المهدي ، فقال : « كان
المهدي شهما فطنا كريما ، شديدا على أهل الاحاد والزندقة ،
لا يأخذه في اهلاكهم لومة لائم » . ويصف المؤرخ السيوطي^٣
المهدي بأنه « كان جوادا ممدحا ، مليح الشكل ، محبّا الى
الرعية ، حسن الاعتقاد ، تتبع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقا كثيرا ،
وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة
والملاحدين ، روى الحديث عن أبيه ، وعن مبارك بن فضالة ،
حدث عنه يحيى بن حمزة ، وجعفر بن سليمان الضبعي ، ومحمد
ابن عبد الله الرقاشي ، وأبو سفيان سعيد بن يحيى الحميري .
قال الذهبي : وما علمت قيل فيه جرحا ولا تعديلا » . وتحدث
المؤرخ أبو الفدا^٤ عن المهدي أيضا فقال : « وكان المهدي
يجلس للمظالم ويقول ادخلوا على القضاء ، فلو لم يكن ردّي
المظالم الا للحياء منهم » .

اشتهر المهدي بالعدل ، والتقوى والورع ، والتسامح ،

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٢

(٢) الفخرى ص ١٦١

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٧١

(٤) المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٠

والعفو عن أعدائه ، والحياء ، والحلم ، وحب الإصلاح والعمران ،
والكرم والجود ، وابتعد عن الظلم والغدر واللهو والمجون .
وهى صفات قلما اجتمعت فى شخص واحد أو فى خليفة من
الخلفاء ، فقد بلغ الرشيد فى أخلاقه وسجاياه ، وفى سياسته
وحكمه .

وكان المهدي يباشر شئون الدولة بنفسه ، دون أن يدع
لوزرائه الفرصة ليستبدوا بالسلطة دونه ، أو يتصرفوا حسب
أهوائهم وأغراضهم . وكان المهدي اذا شعر أن أحد وزرائه قد
استأثر بالنفوذ أو انحرف عن الجادة ، عزله وولى غيره ممن
اشتهروا بالعدل والخبرة . ولذا كان وزراء المهدي من أبرز
الوزراء فى العصر العباسي . ولكن المهدي ، رغم ذلك ، كان
ديموقراطيا ، فكان يستشير رجالات الدولة وذوى الخبرة فى
مهام الأمور .

نرى هذه السياسة جلية واضحة فى نص^١ للمؤرخ ابن
طباطبا : « لم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه
برأيه وكفاءته ، مع أنه كان يشاور فى الأمور دائما ، وانما كانت
هيئته تصغر لها هيئة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه
وخوف ، فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق » .

صوّر المرحوم الأستاذ أحمد أمين^٢ تطور حياة الخلفاء فى
العصر العباسي ، ابتداء من أبى العباس إلى المنصور ثم إلى

(١) الفخرى ص ١٥٦

(٢) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٠٧

المهدي ، ثم الى سائر الخلفاء العباسيين ، فقال : بدأت الدولة العباسية ، وحولها أعداء كثيرون من أمويين وصنائعهم ، ولما اختير للخلافة السفاح ثم المنصور غضب كثيرون من البيت العباسي نفسه ، وغضب شيعة على ، فكان لا بدّ لقيام الدولة من خلفاء جادين غير لاهين ، يصرفون كل وقتهم في تأسيس الدولة ، واصطناع المواليين ، وكبح جماح الثائرين ، وسفك دماء الخارجين ، حتى اذا انتهى هذا الدور ، ومهدت الأمور ، وقتل الخارجون واستكان أمثالهم ، هدأت الدولة ، فكان أمام الخليفة الذي يأتي بعد وقت من الفراغ والهدوء يجد فيه متسعاً لشيء من الترف والنعيم ، ولكن ليس يجد كل وقته ، فعليه تنظيم داخل المملكة بعد أن كان أكثرهم من قبله موجهها الى تنظيم الأمور الخارجية .

صنع الخلفاء العباسيون دولتهم بصبغة دينية ظاهرة ، وأصبح رعاياهم ينظرون اليهم كأنهم حماة الاسلام . وكان أبو جعفر المنصور أكبر من أحاط الخلافة بالاجلال الديني ، وقوى من حرمة البيت العباسي ، لا من ناحية القوة المادية — فحسب — بل من ناحية القوة الروحية كذلك . وكان من أثر هذا أن الخلفاء العباسيين لما ضعف نفوذهم المادي في العصر العباسي الثاني ، ولم يك شيء من القوة في أيديهم ، ظلت هذه السلطة الروحية فيهم ، يستجلبون بها رضى العامة ، فكانت البيعة للخلفاء تحاط بأنواع من المراسم والشعائر التي لم تكن معروفة ، وتؤكد البيعة في الحرم .

وصبغة الخلفاء العباسيين دولتهم بهذه الصبغة الدينية جعلتهم يشرفون على الدين من نواح مختلفة ، ويتدخلون في المسائل الدينية أكثر مما كان يفعل الأمويون ، من ذلك أنا نرى الخليفة المهدي يتعقب الزنادقة ، ويعيثن من يلى أمرهم ، ويعاقب من ظهر منهم ، ويحث العلماء على وضع الكتب في الرد عليهم ، وسار خلفاؤه بعده سيرته ، وذلك ما لم نعهده من قبل المهدي^١.

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٧٥

الخليفة العادل المصلح

أمن وعدل :

عمل المهدي على أن يسود الأمن أرجاء الدولة العباسية ،
ووفّر العدل لجميع رعاياه . وأدرك المهدي أن أباه المنصور
قد تولى الخلافة في فترة قلقه ، فقد كان يقيم دولة كبرى بعد
أن نجح في القضاء على دولة عريقة كانت قد وطدت حكمها .
ولذا امتلأت سجون المنصور بخصومه السياسيين ، أو من
يخشى منهم على سلامة الدولة . وأدرك المهدي أن هذه المرحلة
الحرجة قد انتهت ، وأن الدولة العباسية قد نجحت في تدعيم
أركانها ، وكسبت محبة الناس ورضاهم ، فرأى أن يبدأ عهده
بالتسامح والعفو وإطلاق سراح هؤلاء المسجونين ، فأمر
بالإفراج عن كل مسجون اتهم بجرمة سياسية « إلا من كان
قبله تباعة من دم أو قتل ، ومن كان معروفا بالسعى في الأرض
بالفساد »^١ .

وتم الإفراج عن عدد كبير من هؤلاء المسجونين السياسيين
وكان من بينهم يعقوب بن داود ، مولى بنى سليم ، الذي نجح
في الوصول بعد ذلك إلى منصب الوزارة في عهد المهدي .

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٥٣

تحدث المؤرخ المسعودي^١ عن حرص المهدي على استقرار الأمن والطمأنينة في الدولة العباسية ، وإعادة الحقوق المسلوبة الى أصحابها ، فقال : « وكان المهدي محباً الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وانصاف المظلوم ، وبسط يده في الاعطاء » .
ردَّ المهدي الأموال التي صادرها أبوه المنصور الى أصحابها ، حتى انه أتفق كلَّ ما خلَّقه له المنصور من أموال ، وكانت ستمائة مليون درهم وأربعة عشر مليون دينار ، بل أتفق من أمواله الخاصة عشرة ملايين درهم ، في عشرة أيام ، منحها كلها للمظلومين والمحتاجين . وأثار هذا العدل والكرم إعجاب الناس ورضاهم ، فوقف أحدهم ، وهو شبَّة بن عقال ، خطيباً ، فقال : وللمهدي أشباه ، فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر ، والأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، فأما القمر الزاهر فأشبهه منه حسنه وبهائه ، وأما الربيع الباكر فأشبهه منه طيبه وهواه ، وأما الأسد الخادر فأشبهه منه عزمه ومضاه ، وأما البحر الزاخر فأشبهه منه جوده وسخاه^٢ .

وكان المهدي أوَّل الخلفاء العباسيين الذين جلسوا للمظالم . فكان يجلس للمظالم بنفسه ، وبين يديه القضاة ، فينظر في شكاوى رعاياه ، ولو كانت الشكاوى منه شخصياً . وكان صاحب المظالم ينظر في كل « حكم يعجز عنه القاضي ، فينظر

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٢

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٣

فيه من هو أقوى مزيدا » . وقد وضّح الماوردي^١ الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء . ومن أهم الفروق ، أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة ما يكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب ، وأنه يستعمل من الارهاب ومعرفة الامارات والشواهد ما يصل به الى معرفة المحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم اذا اتصلوا الى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراض . وليس للقاضي ذلك الا عند رضا الخصمين بارد ، وانه يجوز له اخلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم ، ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يتبدى باستدعاء الشهود وسؤالهم عمّا عندهم ، وعادة القضاة تكليف المدعى احضار بيّنة ، ولا يسمعون البيّنة الا بعد سؤاله .

وفي بداية الأمر ، كان لا يسمح لأصحاب المظالم بالدخول على المهدي والاكتفاء بعرض مظالمهم في رقاع من الورق ، فينظر المهدي في كل رقعة بعناية واهتمام ، والى جانبه قضاته يرجع اليهم فيما أشكل عليه من أمور . ثم علم المهدي أن بعض أتباعه يأخذون رشوة من أصحاب المظالم في مقابل عرض مظالمهم على الخليفة . فأمر المهدي بفتح شبّاك من حديد في قصره ، فيلقى كل صاحب مظلمة بالورقة التي عرض فيها مظلمته من هذا الشبّاك الى داخل القصر ، ثم كان المهدي يسمح بدخول المظلومين الى مجلسه يعرضون عليه مظالمهم .

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٧٣ وما بعدها .

وكانت محكمة المظالم تختص بالنظر في كثير من القضايا ،
أبرزها :

(١) النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على
الولاية اذا انحرفوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمّال
الخراج اذا اشتطوا في جمع الضرائب ، أو كتّاب الدواوين اذا
حادوا عن اثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

(٢) النظر في تظلم المرتزقة اذا نقصت أرزاقهم أو تأخر
ميعاد دفعها لهم .

(٣) تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من
الأحكام .

(٤) مراعاة اقامة العبادات ، كالحج والأعياد والجمع ،
والجهاد^١ .

ويروى المؤرخون روايات كثيرة تبين عدل المهدي وحرصه
على ردّ كل مظلمة . فروى الطبرى^٢ أن المهدي ردّ على أهل
بيته وغيرهم قطائعهم التي كانت مقبوضة عنهم . وليس أدلّ
على عدل المهدي من هذه الرواية التي تبين كيف قبل المهدي
حكم القضاء ضدّه . فقد تقدم المسور بن مساور بشكواه
فقال : ظلمنى وكيل المهدي وغصبنى ضيعة لى ، فأتيت سلاما
صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدي ، وعنده
عمّه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضى ، فأمر المهدي

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٨٠ ، تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٢٤

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٦٧

بإدخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها . فقال له المهدي : ترضى بأحد هذين ؟ فقال : نعم . فقال : تكلم . فقال مساور : أصلح الله القاضي ، ان هذا ظلمني في ضيعتي . وأشار الى المهدي . فقال القاضي : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : ضيعتي في يدي . فقال مساور : أصلح الله القاضي ، سله صارت اليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها ؟ فقال المهدي : بعد الخلافة . فقال القاضي : أطلقها له . فقال المهدي : قد فعلت ^١ .

وروى المؤرخ السيوطي ^٢ أن امرأة اعترضت المهدي ، فقالت : يا عَصْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انظر في حاجتي . فقال المهدي لأتباعه : ما سمعتها من أحد قط ، اقضوا حاجتهم ، واعطوها عشرة آلاف درهم .

كما روى الطبري قصة تدل على اهتمام المهدي برد المظالم ، فروي : « ذكر علي بن محمد بن سليمان قال : حدثني أبي قال : حضرت المهدي وقد جلس للمظالم فتقدم اليه رجل من آل الزبير فذكر ضيعة اصطفاها عن أبيه بعض ملوك بني أمية ، ولا أدري الوليد أم سليمان ، فأمر أبا عبيد الله أن يخرج ذكرها من الديوان العتيق ، ففعل . فقرأ ذكرها على المهدي ، وكان ذلك أنها عرضت على عدة منهم لم يروا ردّها منهم عمر بن عبد العزيز . فقال المهدي : يا زبيري هذا عمر بن عبد العزيز وهو منكم معشر قريش كما علمتم لم يردّها . قال : وكل أفعال

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٥٠

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤

عمر ترضى ؟ قال : وأى أفعاله لا ترضى ؟ قال : منها أنه كان يفرض للسقط من بنى أمية في خرقة في الشرف من العطاء ، ويفرض للشيخ من بنى هاشم في ستين . قال : يامعاوية ، أكذلك يفعل عمر ؟ قال : نعم . قال : اردد على الزيرى ضيعته « ١ .

هتم المهدي بتنفيذ تعاليم الشريعة الاسلامية بكل دقة ، وتولى تنفيذ أحكامها أبو يوسف أشهر قضاة عصره . ودقق المهدي في اختيار قضاة ، فكان يختار من اشتهروا بحسن السيرة ، ورجاحة العقل ، ووفرة العلم ، ويعاقب كل من انحرف منهم . تحدث السيوطي^٢ عن اهتمام المهدي برد المظالم ، فقال : « لما حصلت الخزائن في يد المهدي ، أخذ في رد المظالم ، فأخرج أكثر الذخائر ، وبر أهله ومواليه » .

ومن أشهر المظالم التي نظر فيها الخليفة المهدي ، المظلمة التي رفعها بعض آل أبي بكر ، يطلبون فيها من المهدي رد نسبهم في ثقيف الى ولاء الرسول صلى الله عليه وسلم . ونظر المهدي في هذه المظلمة وقال لهم : ان هذا نسب واعتزاء ماتقرون به الا عند حاجة تعرض لكم وعند اضطراركم الى التقرب به الينا . فقال صاحب المظلمة : يا أمير المؤمنين من جحد ذلك فانا سنقر ، أنا أسألك أن تردني ومعشر آل أبي بكر الى نسبنا من ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمّر بآل زياد بن

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٩٩

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤

عبيد فيخرجوا من نسبهم الذي ألحقهم به معاوية رغبة عن قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن (الولد للفراس وللعاهر الحجر) فيردوا الى نسبهم من عبيد في موالى ثقيف .

فأمر المهدي في آل أبي بكر وآل زياد أن يرد كل فريق منهم الى نسبه وكتب الى محمد بن سليمان ، في البصرة ، أن يرد آل أبي بكر الى ولائهم من الرسول ، وأن يعلن ذلك في جامع البصرة ، ويرد اليهم أموالهم المغتصبة . كما كتب المهدي الى ابنه هارون الرشيد ، وكان يحكم البصرة ، يأمره بأن يخرج آل زياد من قریش ، وأن يعرض ولد أبي بكر على ولاء الرسول ، فمن أقر منهم ترك ماله في يده ، ومن اتقى الى ثقيف اصطفى ماله ، فعرضهم فأقروا جميعا بالولاء الا ثلاثة نفر فاصطفيت أموالهم^١ .

اهتمام المهدي ببلاد الحجاز :

نالت بلاد الحجاز نصيبا كبيرا من اهتمام المهدي ، فهي مهد الاسلام الأول ، وموطن الرسول وصحابته الأولين . وكانت الدولة الأموية قد أهملت شئون الحجاز ، واتبعت سياسة اقتصادية جعلت أهل الحجاز يضيقون بالحكم الأموي ، مما شجع الحجازيين على الالتفاف حول عبد الله بن الزبير الذي أعلن الثورة في الحجاز على الدولة الأموية وباع لنفسه بالخلافة .

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٦٣ - ٣٦٤

وهدد سلامة الدولة . وعاقب الأمويون أهل المدينة ، فكانت واقعة الحرّة في عهد يزيد بن معاوية التي سقط فيها كثير من أهالي مدينة الرسول قتلى وجرحى . كما حاصر الأمويون الكعبة وضربوها بالمنجنيق مرتين ، في عهد يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان^١ .

وضع المهدي سياسة ترمى الى كسب ولاء أهل الحجاز وتأبيدهم للدولة العباسية . وكانت هذه البلاد قد شهدت في عهد أبيه المنصور ثورة قوية ، اذ ثار محمد النفس الزكية زعيم الحزب العلوي في الحجاز ، كما ثار أخوه ابراهيم في البصرة . وبذل المنصور جهودا كثيرة حتى نجح في القضاء على هذه الثورة العلوية .

رحل المهدي الى بلاد الحجاز في سنة ١٦٠ هـ ، وقسم في أهل مكة وأهل المدينة مالا كثيرا . فقد حمل معه من بغداد ثلاثين مليون درهم ، كما وصل اليه وهو في الحجاز ثلاثمائة ألف دينار بعثها اليه والى مصر ، ومائتا ألف دينار أرسلها والى اليمن . وفرّق من الثياب مائة وخمسين ألف ثوب . وعمل المهدي على استمالة أهل الحرمين بالاحسان والتكريم ، ورد اليهم الوظائف التي أبعدهم أبوه عنها ، واتخذ لهم مآدب اهتم بزخرفتها وتنميقها للدلالة على عظمته وأبهته . وحمل الثلج الى المهدي من الشام الى مكة ، فكان أول ثلج يدخل الى

(١) انظر كتابنا (عبد الله بن الزبير) تجد كثيرا من التفاصيل .

مكة^١ . وكما يقول السيوطي^٢ : « ولم يتهياً ذلك لملك قط » .
ويعلق المدور^٣ على جلب الثلج الى مكة ، فيقول : وهذا من
الأمور التي توسع أهل البادية تعجبا من اقتدار الملوك على
الغريب .

واصفى المهدي لنفسه من الأنصار خمسمائة نفر ، أجرى
عليهم الأرزاق الواسعة ، واتخذهم لمراتب السيف في العراق ،
كأنه يعارض أباه في تقديم الموالي على العرب ليستبدل بجفائهم
له محبتهم اياه . فقد كان المنصور يعتمد في ادارة دفة الدولة على
العناصر الفارسية والخراسانية أكثر مما يعتمد على العناصر
العربية ، فأراد المهدي أن يحفظ التوازن بين الطبقات المختلفة
في المجتمع الاسلامي ، وخاصة بين طبقتي العرب والموالي
الفرس ، فقد كان المهدي يدرك أن هذا الصراع الطبقي ، وذلك
النزاع العنصري ، يعرض سلامة وحدة الدولة العباسية . وقد
أدى عدااء العرب للموالي الى سقوط الدولة الأموية ، لأنها
تعصبت للعناصر العربية وأهملت سائر العناصر ، مما جعلها
تتكاتف من أجل التخلص من الحكم الأموي .

وصادف أن كانت السنة التي رحل فيها المهدي الى الحجاز
(سنة ١٦٠ هـ) سنة تميزت بالرخاء وانخفاض الأسعار وكثرة
الخيرات ، وكانت السنوات السالفة التي مر بها الحجازيون قد
حفلت بالوباء وارتفاع الأسعار وقلة الخصب . فاستبشر أهل

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٦٦ - ٣٦٧

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣

(٣) المدور : حضارة الاسلام ص ٨٤

الحجاز من قدوم الخليفة محمد المهدي خيرا ، وأحبوه ، وتبركوا به ، وقالوا : هذا هو المهدي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُميته ١ .

ونالت الكعبة الشريفة اهتمام المهدي ، فقد كساها كسوة جديدة ، واتَّبَعَ السنة النبوية في المنابر والمقاصير ، وأمر بإنشاء أروقة المسجد الحرام ، مما سنفصله فيما بعد ، ونال المهدي بهذه الأعمال رضا جميع المسلمين في كل الولايات الإسلامية .

اهتمام المهدي ببلاد الشام :

وكما اهتم المهدي ببلاد الحجاز ، فقد اهتم أيضا ببلاد الشام ، ليثبت للجميع أن الخليفة يساوي في معاملته واهتمامه بين جميع ولايات الدولة ، وينظر الى رعاياه نظرة واحدة ، على قدم المساواة ، مهما اختلفت أجناسهم أو تعددت بلادهم أو أديانهم . وهذه هي سياسة العدل والمساواة التي اتبعها المهدي . كانت بلاد الشام مركزا للخلافة الأموية منذ سنة ٤٠ هـ الى أن قامت الخلافة العباسية سنة ١٣٢ هـ . وارتبطت الأسرة الأموية ببلاد الشام ارتباطا وثيقا منذ أن فتح القائد يزيد بن أبي سفيان هذه البلاد ثم تولى حكمها ، وخلفه في الحكم أخوه معاوية . وشهدت بلاد الشام أمجاد الأمويين ، ولذا شعر أهلها بالألم والحسرة حين سقطت الدولة الأموية ، وانتقلت عاصمة الدولة من دمشق بالشام الى بغداد بالعراق .

وأراد المهدي أن يطيب خاطر أهل الشام ، وينسيهم ألمهم ومرارتهم ، ويشعرهم أن بلادهم تقف على قدم المساواة مع بلاد العراق وسائر الأمصار الإسلامية ، وأن الدولة العباسية هي دولة الشام والعراق والحجاز ومصر والمغرب وغيرها من الأقطار .

ولذا اهتم المهدي باختيار ولاته وعماله في بلاد الشام ، فاختار أكثرهم عدلاً وأحسنهم سيرة ، كما أغدق الأموال على وجوه الشام ورجالاتها ، وخاصة زعماء القبائل العربية المستقرة في بلاد الشام . ثم رأى المهدي أن يخرج بنفسه لزيارة هذه البلاد ، فزار حلب ودمشق وبيت المقدس ، وصلى بأهلها في المساجد ، وفرّق بين أهلها أموالاً كثيرة^١ . كما توقف التنكيل بالأسرة الأموية في عهده ، وأكرم المهدي نساء مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وسمح لهن بالإقامة في قصره ، فكن موضع تكريمه .

اصلاح وعمران :

اهتم المهدي بالاصلاحات والانشاءات ورغم قصر مدة حكمه (١٥٨ — ١٦٩ هـ) فقد حفلت هذه الفترة بضروب مختلفة متنوعة من العمران والانشاء ، وانتشر الرخاء في أرجاء الدولة العباسية ، مما أدى الى ازدهار الحضارة والمدنية . وساعد المهدي على المضي في سياسة الاصلاح والانشاء ، ما تركه

(١) الأصفهاني : الأغاني ج ٦ ص ٦٧

المنصور من أموال طائلة حفلت بها بيوت المال في الدولة العباسية .

قال البريد اهتماما من المهدي ، فقد اتسعت الدولة العباسية ، وأصبحت امبراطورية كبرى تمتد من جبال طوروس شمالا الى السودان جنوبا ، ومن حدود الصين شرقا الى المحيط الأطلسي غربا ، وشملت أقطارا في آسيا وافريقية وأوروبا . ولذا كانت هذه الدولة في حاجة الى تنظيم البريد بين ولاياتها المختلفة ، لمربط بينها ، وتسهيل وصول قرارات الخلافة وأوامر الخليفة الى ولااته في وقت قصير . الى جانب حمل رسائل عامة الناس الى أقاربهم وأسراتهم وضمان قضاء مصالحهم .

أقام المهدي البريد بين بلاد العراق وبلاد الحجاز ، فكان كما قال الذهبي : « أول من عمل البريد من الحجاز الى العراق » . فأقام البريد من المدينة المنورة واليمن ومكة ، الى العراق . واستخدم في البريد البغال والابل ، وأقام محطات البريد على طول الطريق بين العراق والحجاز ، وأمدّها بالرجال والحيوانات اللازمة لهذه الخطوط البريدية^(١) .

كان للبريد ديوان كبير في بغداد له محطات على طول الطريق . وقد ظل حمام الزاجل مستخدما في نقل الرسائل حتى عهد الخليفة العباسي المستعصم . وساعدت معالم الطرق التي أقامتها الدولة التجار في أسفارهم ، كما كانت أساسا للبحوث الجغرافية .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣

وكان صاحب البريد يراقب العمال ، ويتجسس على الأعداء ،
ويقوم بأعمال إدارات المخابرات في الدول الحديثة الآن ، وكانت
مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من
عماله في الأقاليم ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً
للخليفة ، ينقل أوامره إلى ولايته ، كما ينقل أخبار ولايته إليه .

وقد استخدم أبو جعفر المنصور عمال البريد الذين كانوا
عيوناً له وعونا على الإشراف على أمور دولته ، وبواسطتهم
كان يقف على أعمال الولاية ، وعلى ما يصدره القضاة من
الأحكام ، وما يرد بيت المال من الأموال ، وما إلى ذلك . كما
كان ولاية البريد يوافقونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب
ومأكولات وغيرها . وبلغ من انتظام إدارة البريد في عهده أن
عماله كانوا يوافقونه بذلك مرتين في كل يوم . فإذا صلى
المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح كتبوا
إليه بما جرى في الليل من أمور . وبهذا كان يقف المنصور على
كل ما يحدث في الولايات الإسلامية ، لذا كان شديد الاتصال
بولاياته ، فيوقف القاضي عند حده إذا ظلم ، ويرجع السعر إلى
حالته الأولى إذا غلا ، وإن رأى تقصيراً من أمرهم وبخه ولأمره
أو عزله من عمله مهاناً^١ .

واتبع المهدي سياسة أبيه ، فأعطى البريد أهمية خاصة ،
وطوّر نظامه ، وتوسع فيه ، وأنشأ طرق البريد ومحطاته ، وأتفق
في سبيل ذلك أموالاً طائلة .

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٠٦

فقد أمر المهدي ببناء القصور في طريق مكة ، أوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية الى زبالة ، وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس ، وترك منازل أبي جعفر التي كان قد بناها على حالها ، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل ، وبتجديد الأميال والبرك ، وحفر الركايا مع المصانع ، وولّى ذلك يقطين بن موسى^١ .

وفي سنة ١٦٤ هـ بنى المهدي بعيسا باذ الكبرى قصراً من لبن ، الى أن أسس قصراً آخرًا بناءً بالآجر وسماه (قصر السلامة) ، وكان تأسيسه اياه يوم الأربعاء في آخر ذي القعدة . وفي هذه السنة ، شخص المهدي حين أسس هذا القصر الى الكوفة حاجاً ، فأقام برصافة الكوفة أياماً ، ثم خرج متوجّها الى بلاد الحجاز للحج ، حتى انتهى الى العقبة . وأصيب المهدي بالحمى ، وعانى الحجاج من قلة الماء في الطريق ، فأبدى المهدي غضبه على عامله يقطين بن موسى الذي عهد اليه بالاشراف على توفير الماء في الطريق بين الحجاز والعراق ، ولم يتمكن المهدي من اكمال رحلته الى مكة للحج ، فعهد الى صالح بن أبي جعفر المنصور ليحج بالناس بدلا منه^٢ .

وفي سنة ١٦٦ هـ ، رحل المهدي الى عيسا باذ ، فنزل القصر الذي بناه ، وسماه قصر السلامة ، ونزل الناس حوله وابتنوا لهم دوراً . وضرب المهدي بها الدنانير والدراهم .

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٦٨

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٧٨ - ٣٧٩

رخاء اقتصادى :

هذا المهدي حذو أبيه المنصور في الاهتمام بالموارد الاقتصادية في الدولة العباسية ، فاهتم بشئون الزراعة والتجارة والصناعة . وقد قام المنصور بمشروعات عمرانية كثيرة ، مثل بناء المدن ، وحفر الأنهار والترع ، وإنشاء الطرق ، واستصلاح الأراضي ، وأكمل المهدي كثيرا من هذه المشروعات التي لم تمهل الحياة المنصور ليكملها . كما جنى المهدي ثمار جهود أبيه المنصور في الميادين الاقتصادية . وسار المهدي على منوال أبيه في إصلاح مرافق الدولة والعناية بتنمية مواردها الاقتصادية .

امتلأت خزائن بيوت الأموال في الدولة العباسية في عهد المنصور بالأموال ، فقد كان حريصا مقتصدا في النفقات ، ولذا خلف للمهدي أموالا طائلة ، أتفقها المهدي — كما رأينا — في ردّ المظالم وفي القيام بالمشروعات العمرانية ، وفي تحقيق الرخاء الاقتصادي في الدولة العباسية .

لم تمدنا المصادر التاريخية بمقدار الجباية في عهد المهدي ، ولكن نستطيع أن نلّم بمقدارها ، مما روته هذه المصادر عن عصر هارون الرشيد الذي تولى الخلافة بعد وفاة المهدي بأقل من عامين ، إذ لم تطل خلافة الهادي . فقد بلغت أموال الجباية في عهد الرشيد أكثر من اثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينة التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب . حتى قيل إن الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى السحابة

المارة ويقول : « اذهبى حيث شئت يأتنى خراجك »^١ . وبلغ دخل الدولة العباسية فى عهد الرشيد ٢٧٢ مليون درهم وأربعة ملايين ونصفاً من الدنانير فى السنة .

وأدى هذا الرخاء الاقتصادى الى انخفاض الأسعار فى عهد المهدي ، حتى كان الكباش يباع بدرهم ، والحمل بأربع دوانق (والدانق سدس درهم) ، والتمر ستين رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم^٢ .

اهتمام المهدي بالزراعة :

لقيت الزراعة اهتماما كبيرا فى عهد الخلفاء العباسيين الأوائل ، لأن عاصمتهم ، بغداد ، كانت تقع فى أحسن البقاع من ذلك السهل الخصيب المعروف باسم السواد . وفطن العباسيون الى أن الزراعة هى أهم مورد من موارد الدخل فى الدولة . وكانت فلاحه الأرض يقوم بها السكان الوطنيون الذين تحسنت حالتهم الى حد كبير فى ظل الدولة العباسية^٣ .

اشترك المهدي مع أبيه الخليفة المنصور ، حين كان وليا للعهد ، فى بناء مدينة بغداد ، ومدّها بالأنهار والترع ، حتى اذا تولى المهدي الخلافة قام بدوره بحفر المجارى المائية .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ص ٢٧٠

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠

(٣) حتى : تاريخ العرب ص ٤٣٩

وكانت الأراضى الواقعة بين نهري دجلة والفرات من
أخصب بقاع الدولة العباسية ، وكانت الحكومة تشرف على
ادارتها اشرافا مباشرا ، وتعمل على النهوض بمحصولاتها
وتنمية مواردها . وأمدتها المنصور ثم المهدي بشبكة من الترع
والمصارف ، زادت من خصوبتها ، واتسعت المزارع والبساتين .
ولما كان ماء الفرات لا يكفى وحده لرى أراضى السواد ،
عمل المنصور والمهدي على تنظيم وسائل الرى ، بحفر الترع
والجداول ، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لرى الأراضى
الواقعة على شاطئه الغربى وعلى ساحل الخليج الفارسى (الخليج
العربى الآن) ، وأمكن بذلك رى جميع الأراضى الممتدة بين
الصحراء العربية وجبال كردستان ، وتحويلها الى أرض
خضراء ، تنتج محاصيل وفيرة .

اهتم الخلفاء العباسيون ، وخاصة المنصور والمهدي
والرشيد ، بالزراعة وفلاحة البساتين التى قامت على دراسة
عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التى كان لها أثر كبير
فى اثارة عقول المسلمين ، فتوسعوا فى البحث النظرى ، ودرسوا
أنواع النباتات وصلاحيه التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة
المختلفة لأنواع النباتات ^١ .

وقد اتبع الخلفاء العباسيون سياسة حكيمة ترمى الى
تخفيف أعباء الضرائب عن الفلاحين ، واهتم بعض هؤلاء الخلفاء

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٢٧

بوضع قواعد ثابتة لأنواع الخراج بحسب نوع المحصول وجودة الأرض ، وراعوا خفض الضرائب اذا قل المحصول نتيجة آفة أو فيضان . وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الخنطة والشوفان ، واستبدلها بنظام المقاسمة ، وهو دفع الضرائب نوعا بنسبة خاصة من المحصول ، على أن النظام القديم قد ظل على النخيل والفواكه وأشباهاها .

وتوسع الخليفة المهدي في تطبيق النظام الذي ابتكره المنصور ، فعممه ، وجعل الضرائب تجبى دائما بالنسبة للمحصول ، واذا كانت الأرض ممتازة الخصب ولا تحتاج الى عمل كثير ، كان على المزارع أن يقدم الى الحكومة نصف غلة أرضه ، واذا صعب عليه ارواؤها ، دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعا لحالة الأرض أما الكروم والبساتين والنخيل فكانت غلتها تقوّم بالمال ، ويدفع عنها النصف أو الثلث . ويسمى هذا النظام (المقاسمة) تمييزا له عن النظام القديم الذي كان يعرف بالمحاسبة ، والذي كان يقضى بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض^١ .

واهتم المهدي بتخفيف الأعباء عن المزارعين ، بتخفيض الضرائب وتنظيم جبايتها . فقد كان الناس في صدر الاسلام يؤدون ما في أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر ، لا يفرّقون في الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم التجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبرى ،

(١) المصدر السابق .

الذى هو أربعة دوانيق ، ويَتمسكون الوافى ، الذى هو مثقال ، فلما تولى زياد بن أبيه صار يطلب الوافى ، ثم تولى الحجاج بن يوسف الثقفى فطلبه كذلك ، حتى اذا تولى الخليفة أبو جعفر المنصور أزال الخراج عن الخنطة والجبوب ، وصيَّره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يسقط الكسور . فلما تولى الخليفة المهدي قال : معاذ الله أن ألزم الناس ظلما فى ذلك ، فقيل له ان أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله فى السنة ١٢ مليون درهم ، فقال : على أن أقرر حقا وأزيل ظلما ، لأن العدل مؤقّرٌ للجباية ، كفىل بعمران الأمصار ^١ .

ويعلق أحد الكتّاب ^٢ على سياسة المهدي فى الضرائب الزراعية فيقول : ولقد أعظمت للمهدي هذه المآثرة التى أحسبها من أجمل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فان لنا فى سقوط الدول التى قامت فى هذا المكان نفسه من النبط والكلدان وغيرهم ما يدلنا على أن الظلم يقتل العباد والبلاد جميعا ، فانما كان غرض الناس من الاجتماع تحت لوأئهم القيام بأعمال الزراعة والمقام فى بلدان الخصب ، لِمَا يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تناسلوا فى ظلال العدل ، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا اذا اجتمعوا لحرب أو غزوة بلغوا ألوف من الخلائق ، ثم لما غفلت الدولة عن مصلحتهم ، وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٢٧

(١) المدور : حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٦٩

ما دعتها اليه مطالب الترف ، لم يبق في نفوسهم شيء من حب البلاد ، وهم لا يتغنون منها الاّ تحصيل القوت الذي يأتيهم على اجهاد النفس ، فضعفت فيهم أسباب الهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مردّ العدو بهم ، وقد ماتت نفوسهم من الظلم ، فخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وكان أبو جعفر المنصور قد أقطع بعض رجالات دولته قطائع من الأرض ، يعمرونها ويسكنونها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات جليلة . وكان المنصور قد استرد بعض هذه القطائع من بعضهم ممّن غضب عليهم لأسباب سياسية ، فأعادها المهدي الى أصحابها مرة أخرى ، فعادوا الى بذل جهودهم لتنمية إنتاجها ممّا ادى الى وفرة المحصولات وازدياد الرخاء الاقتصادي .

وحفر المهدي عددا من الأنهار والترع ، نذكر منها نهر الصلة . كما أعاد حفر كثير من الأنهار التي كانت موجودة في عصر البابليين ثم اندثرت وعفى عليها الزمان .

وكانت حاصلات العراق الرئيسية في عصر المهدي ، تتكون من الشعير والقمح والأرز والبلح والسمسم والقطن والكتان . وكان السواد ، وهو السهل المغطى بالغرين الى الجنوب ، خصبا وينتج كميات عظيمة من الفاكهة والخضر مما تنتجه المناطق الباردة والحارة على السواء ، وكانت هذه الأراضي تنتج بكثرة

البندق والبرتقال والباذنجان وقصب السكر والترمس عدة
الأزهار كالورد والبنفسج^(١).

عناية المهدي بالتجارة :

وكما اهتم المهدي بالزراعة ، فقد نالت التجارة جانبا عظيما
من عنايته ورعايته . فقد اتسعت الدولة العباسية ، وأصبحت
أعظم دول العالم في ذلك الحين ، وشملت أقاليم متنوعة البيئات
والمناخ . وأدى هذا التنوع الى تنوع في المحصولات الزراعية
واختصاص كل اقليم بأنواع خاصة من المصنوعات ، وقامت
حركة تبادل على نطاق واسع بين ولايات الدولة العباسية تحقيقا
لسياسة الاكتفاء الذاتي . كما قامت حركة تجارية عالمية ، ترمى
الى تبادل أنواع التجارة المختلفة مع دول العالم .

نوغل التجار المسلمون في الشرق حتى وصلوا الى الصين
التي تقول الروايات العربية : انها كانت تدرك من البصرة منذ
أيام الخليفة أبي جعفر المنصور . وكانت هذه التجارة عمادها
الحرير ، وهو أقدم هدايا الصين الفاخرة الى الغرب ، وكانت
المتاجر تتبع ما يسمى في الغالب باسم « طريق الحرير الأعظم » ،
وهو يمر بسمرقند والتركستان الصينية ، وهي منطقة لا يطررها
أحد من العالم المتمددين في أيامنا هذه وكانت البضائع تحمل
على التتابع اذ قل من القوافل ما كان يقطع المسافة كلها . أما في

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٤٤٠

العرب فقد توغل هؤلاء التجار المسلمون حتى وصلوا الى المغرب الأقصى واسبانيا العربية .

وقد جاوز العرب في العصر العباسي الأول جزيرة سيلان وبعد أن كان الصينيون حتى أوائل العصر العباسي الأول يجوبون بكثرة البحار الواقعة على ساحل الهند وفي الخليج الفارسي ، أصبح من النادر وجودهم في الخليج الفارسي ، لأن العرب أخذوا يقومون برحلات طويلة ، حتى انهم وصلوا الى بلاد الصين . وقد اتخذ ميناء سيراف مرسى لهذه السفن ، التي كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرهما من هذه الجهات وتنقل تجارة العرب والفرس الى بلاد الصين ^١ .

بعث المهدي جيوشه لغزو الهند ، مما فتح الطريق أمام التجارة العباسية . وأنشأ العرب على سواحل الهند وفي بعض مدنها جاليات عربية ، كما استولى العرب على بلاد السند ، واعتنق بعض أمراء ملبار الاسلام . وكانت سفن العرب والفرس تعرج على الهند في طريقها الى الصين ، وتعود حاملة محصولاتها . وكانت عناية المهدي وسائر الخلفاء العباسيين بالتجارة ، وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها البرية والبحرية ، كان لها أكبر الأثر في ترقية التجارة التي تقوم على تبادل المحاصيل ، كما مهد السبيل أمام الرحالة والكاشفين ، فكثرت رحلاتهم في هذا العصر كثرة تدعو الى الاعجاب ، فوصفوا البلاد المختلفة وصفا دقيقا مبنيا على المشاهدة .

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٣٤

ازداد الرخاء في بغداد في عصر المهدي ، وكثرت الأموال في أيدي الناس فأقبلوا على شراء الحاجات الضرورية والكمالية ، مما أدى الى رواج تجارى واسع النطاق . وأصبحت بغداد مركزا للتجارة العالمية . كما كانت دمشق مركزا هاما للقوافل القادمة من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات الى الجزيرة العربية أو مصر . وكان الفرات ودجلة طريقين تجاريين عظيمين . وحفر المنصور عند بنائه بغداد قناة للملاحة تبدأ عند نهر الفرات ، وتخترق أراضي العراق حتى بغداد ، وربطت هذه القناة بغداد بآسيا الصغرى والشام والجزيرة العربية ومصر بطريق مائى الى جانب طرق القوافل العديدة التى كانت تربط بغداد بالأطراف الشرقية للدولة العباسية .

اهتم المهدي بتنظيم أسواق بغداد ، ونقل معظمها الى الكرخ ، وجعل لكل حرفة سوقا خاصة بها ، منها سوق العطارين ، وسوق القصايين ، وسوق البزازين ، وسوق الرياحين ، وسوق الحدادين ، وسوق النجارين .

وكان حرص المهدي على التيسير على أهل الحجاز وتنمية مواردهم — كما مر بنا — عاملا على عودة النشاط التجارى الى بلاد الحجاز ، وخاصة في مكة والمدينة ، في موسم الحج . كما أدى اهتمام المهدي بإنشاء الطرق بين بلاد العراق والحجاز واليمن ، ومدّها بالماء والاستراحات الى رحيل قوافل التجارة في أمن وطمأنينة .

اهتمام المهدي بالصناعة :

وشملت النهضة الاقتصادية في عهد المهدي ، نهضة الصناعة . وهذا النشاط التجاري الكبير الذي لمسناه ما كان يقوم الا اذا اعتمد على اقتاج زراعي وصناعي وفير . استخرج الخلفاء العباسيون كثيرا من المعادن ، وخاصة الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان ، والحديد من مناجم قرب يروت ، والخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالي فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج . وأصبحت هذه المعادن أساسا لصناعات معدنية كثيرة .

اشتهرت بلاد الشام بصناعة السجاجيد والطنافس والحرير والقطن والمنسوجات الصوفية والديباج ، وأواني الطهى . ونبغ أهل الشام في صناعة الزجاج وتقشبه بالذهب والألوان الزاهية ، وبرعت دمشق في المنسوجات الحريرية (الدمقس) .

وامتازت بلاد العراق بصناعة المنسوجات المختلفة ، وخاصة الحرير والأطلس ، والسجاجيد ، والورق . وبنى الخلفاء العباسيون دور الطراز في فارس ، لعمل الملابس اللازمة لجندهم ورجال قصورهم ، وتقش أسماء الخلفاء عليها . واشتهرت خراسان بصناعة المنسوجات الصوفية والبسط والستور . واشتهرت مصر بصناعة المنسوجات والورق والمراكب النيلية .

أصبحت بغداد في عهد المنصور والمهدي مركزا لكثير من الصناعات والأدوية والعقاقير والصياغة ، فقام بها عدد كبير

من دور الصناعة ، فكان بها أربعمائة رحا مائية ، وأربعة آلاف
معمل لصنع الزجاج ، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف ^١ .

تطور بغداد والرصافة والكرخ في عهد المهدي :

حقا قامت بغداد في عصر المنصور ، ولكن المهدي كان
ساعد أبيه الأيمن في انشائها ، كما أكمل المهدي ، عند توليه
الخلافة ، معظم القصور والمباني والأسواق التي بدأ المنصور
بناءها ، ومات قبل اتمامها . وقد بدأ معظم منشآت بغداد في
سنة ١٥٧ هـ أو في سنة ١٥٨ هـ ، وتوفي المنصور في ذي الحجة
من سنة ١٥٨ هـ ، فقام المهدي باتمام ما شرع المنصور في بنائه .
فقد بدأ المنصور بناء قصر الخلد ، ومدينة الكرخ ، في
سنة ١٥٧ هـ ، وتوفي المنصور قبل الفراغ من البناء ، فتولى
المهدي ذلك . كما عمل المهدي على تطوير منشآت أبيه ،
واضفاء الجمال والفخامة عليها ، حتى أصبحت دليلا على عظمة
الدولة العباسية . فقد كان المنصور حريصا على الأموال ،
مقترا ، فكان يهتم بالجوهر أكثر مما يهتم بالمظهر . بينما كان
المهدي كريما سخيا ، فاهتم بالزخرفة والفنون الجميلة ، ولذا
تحولت مباني بغداد الى قطعة فنية رائعة .

بدأ المنصور بناء حاضرتة الجديدة ، بغداد ، فأحضر
المهندسين والبنائين والعمّال من الشام والموصل والجزيرة

(١). أمين زكي : كتاب عمران بغداد ص ٥٠ ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام

والكوفة وواسط وبلاد الديلم ، وبلغ عددهم مائة ألف درهم ، واختار جماعة ممن يثق بفضلهم وعدالتهم وعلمهم وأماتتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأمر بضرب اللبن وطبخ الآجر . ووضع أساس بغداد في الوقت الذي اختاره المنجمون ، واحتفل بوضع الحجر الأساسى لبناء بغداد احتفالاً شائقاً شهدته رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والقواد والأعيان . وجعل المنصور حاضرتة الجديدة مدورة ، وجعل داره وجامعه في وسطها ، حتى لا يكون أحد أقرب إليه من الآخر ، وهو نوع جديد في بناء المدن عند المسلمين ، ويبدو أنهم اقتبسوه من الفرس ^١ .

توقف البناء في بغداد ، فقد تفرغ المنصور للقضاء على ثورة عنيفة قام بها محمد النفس الزكية زعيم البيت العلوى في بلاد الحجاز ، وأخوه ابراهيم في البصرة سنة ١٤٥ هـ . حتى اذا أخمده المنصور الثورة العلوية وقضى على الأخوين ، عاد الى معاودة بناء حاضرتة الجديدة .

بنى المنصور لبغداد سورين ، سور داخلى وآخر خارجى وحوله خندق عميق ملاء بالماء . وكان بالسور الخارجى أربعة أبواب ، باب الكوفة في الجنوب الغربى ، وباب البصرة في الجنوب الشرقى ، وباب خراسان في الشمال الشرقى على نهر دجلة ، وكان يسمى باب الدولة ، لأن خراسان هى عماد الدولة

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ١ ص ٧٦ ، وتاريخ الاسلام

العباسية ، وباب الشام في الشمال الغربي . ونقل المنصور بعض أبواب مدينة واسط التي كان قد بناها الحجاج بن يوسف الثقفي في العصر الأموي . وبني المنصور قصراً له سماه (قصر الذهب) ، وبني جامعاً في مواجهته ، وأصبح القصر والجامع مركزاً للدائرة . وازدهمت بغداد بالأهالي وأرباب الحرف والتجار والصناع ، حتى ضاقت بسكانها ، ورأى المنصور أن يقيم خارج أسوار بغداد ، فبنى لنفسه سنة ١٥٧ هـ قصراً سماه قصر الخلد ، وقد أكمل المهدي بناءه .

قسّم المنصور أرباض بغداد أربعة أقسام ، جعل على كل منها رئيساً ، وعهد إلى كل رئيس منهم بإقامة سوق في القسم الذي يشرف عليه ، كما أمر أن تخط الشوارع والدروب بحيث تكون المباني منتظمة ، وأن يسمى الشارع أو الدرب باسم القائد أو الرجل النابه الذكر الذي يقيم به ، كما تفعل المجالس البلدية الآن ، وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات ١ .

أما الرصافة ، فقد كان المهدي سبباً في ظهور فكرة بنائها ، وبدأ المنصور في إقامتها ، ولم يتم بناؤها إلا في خلافة المهدي . فقد كان المهدي قد خرج إلى خراسان لاختماد عدة ثورات قامت بها ، وقد مر بنا الحديث عنها ، ثم ولّاه أبوه المنصور حكم خراسان ، فأقام بها سنوات قليلة ، ثم عاد على رأس

(١) تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٨١

جيشه الى بغداد ، ففكر المنصور في أن يبنى الرصافة ليقيم فيها المهدي مع جيشه .

روى الطبري ^١ : « أن المهدي لما قدم من خراسان أمره المنصور بالمقام بالجانب الشرقي وبنى له الرصافة ، وعمل لها سورا وخندقا ، وميدانا وبستانا ، وأجرى له الماء فكان يجري من نهر المهدي الى الرصافة » .

حقق بناء بغداد الغرض الذي قصده المنصور وهو منع الوصول اليه ، الا أنه لم يحل دون ما قد يحدث اذا شغب الجند عليه . وقد مر المنصور بتجربة قاسية ، فقد ثار عليه بعض جنده وحاربوه عند باب الذهب ، وهو أحد أبواب بغداد ، ولذا نصحه أحد رجاله ببناء مدينة جديدة يقيم فيها جنده ليكون بآمن من شغبهم وثورتهم .

التقى قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ، وهو يومئذ شيخ كبير مقدم عند القوم ، بالمنصور ، فقال المنصور له : أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ، قد خفت أن تجتمع كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فما ترى ؟ فقال قثم : يا أمير المؤمنين ، عندي في هذا رأى ، ان أنا أظهرته لك فسد ، وان تركتني أمضيته صلحت لك خلافتك وهابك جندك . ثم تقدم قثم بنصيحة للمنصور فقال : قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزابا كل حزب منهم يخاف أن يحدث عليك حدثا

فتضربه بالحزب الآخر ، وقد بقى عليك فى التدبير بقية . فسأله المنصور : ما هى ؟ فقال قثم : أعبر بابنك — أى المهدي — فأنزله فى ذلك الجانب قصرا وحوله وحول من جيشك معه قوما فيصير ذلك بلدا وهذا بلداً ، فان فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب ، وان فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية ، وان فسدت عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مضر وغيرها ١ .

وهكذا اتخذت الرصافة فى بداية أمرها ثكنات للجند ، وسميت (رصافة بغداد) أو (بغداد الشرقية) لوقوعها فى شرق بغداد . وتمّ بناؤها فى سنة ١٥٩ هـ فى خلافة المهدي . وتطورت الرصافة فى عهد المهدي فأصبحت مدينة عامرة ، تضاهى بغداد فى اتساعها وعمرائها ، وتكاد تكون مدينة مستقلة ، وقامت فيها الميادين المتسعة ، والمباني الفخمة ، وانتشرت فيها الحدائق والمتنزهات .

أما مدينة الكرخ ، فقد شرع المنصور فى بنائها ، وتم تشييدها فى عصر ابنه المهدي . وكان المنصور قد أقام أسواق بغداد داخلها ، ثم حدث أن قدم عليه أحد بطارقة الروم ، فطلب المنصور من حاجبه الربيع بن يونس أن يطوف بالضيف فى بغداد ، ليرى معالمها وأسوارها ، وأبوابها وأسواقها . حتى اذا عاد البطريق من جولته أراد المنصور أن يقف منه على رأيه

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٩٢ - ٢٩٣

في حاضرتة الجديدة ، فأجاب البطريق في صراحة : يا أمير المؤمنين انك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب : أما أول عيب فيه فبتعده عن الماء ، ولا بد للناس من الماء لشفاهم ، وأما العيب الثاني فان العين خضرة وتشتاق الى الخضرة ، وليس في بنائك هذا بستان ، وأما العيب الثالث فان رعيتك معك في بنائه ، واذا كاثت الرعية مع الملك في بنائه فشا سره .

وكان المنصور معجبا بحاضرتة الجديدة ، ويعتقد أنها بلغت الكمال في الانشاء والتشييد ، ولذا دافع عن بغداد فقال للبطريق : أما قولك في الماء فحسبنا من الماء ما بل شفاها ، وأما العيب الثاني فاتا لم تخلق للهو واللعب ، وأما قولك في سري فما لي سر دون رعيتي ! ولكن المنصور أدرك حقيقة العيوب التي كشفها له هذا البطريق ، ولذا ما كاد يغادر مجلسه حتى دعا باثنين من رجاله وأمرهما باصلاح العيوب ، فقال لهما : مدا الى قناتين من دجلة ، واغرسا لي العباسية ، واقلنا الناس الى الكرخ^١ .

وأمر المنصور حاجبه الربيع بن يونس ببناء الكرخ سنة ١٥٧ هـ ، وأن ينقل اليها أسواق بغداد ، ووضع له تصميمًا للكرخ على رقعة قماش ، وحدد له الأماكن الجديدة للأسواق ، وأمره ببناء مسجد ومساكن لأهل الأسواق حتى لا يدخلوا بغداد .

(٢) ياقوت : معجم البلدان (لفظ بغداد) .

بدأ الربيع في تنفيذ أوامر الخليفة في إقامة الكرخ ، ولكن المنصور مات سنة ١٥٨ هـ قبل أن يتم البناء ، وقام ابنه الخليفة المهدي بإتمام تشييد الكرخ من أمواله الخاصة ، وعهد الى الربيع ابن يونس الذي أصبح حاجب المهدي أيضا ، بأن يتم ما شرع في بنائه في عهد أبيه .

وكانت الفكرة الأولى في عهد المنصور أن تصبح الكرخ مقرا لأسواق بغداد ، ولكن الكرخ تطورت في عهد الخليفة المهدي فأصبحت مدينة عامرة ، وبعد أن كانت منطقة محدودة تقع جنوب بغداد بين الصراة ونهر عيسى ، اتسعت في عهد المهدي وامتدت حتى أصبحت في وسط بغداد .

وصف ياقوت الحموي ^١ مدينة بغداد فقال : « بغداد جنة الأرض ، ومدينة السلام ، وقبة الاسلام ، ومجمع الرافدين ، وغرّة البلاد ، وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الظرائف واللطائف ، وبها أرباب الغايات في كل فن ، وآحاد الدهر في كل نوع » .

وأشيد طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن هذين البيتين ،
يصف فيهما مدينة بغداد وقصر الخلد ، ومدينة الكرخ :
سقى الله سقى العاديات محلة

بيغداد بين الخلد والكرخ والجسر

هي البلدة الحسنة خصت لأهلها

بأشياء لم يجمعن مذ كن في مصر

(١) معجم البلدان (لفظ بغداد) .

حصارة بغداد في خلافة المهدي :

أصبحت بغداد ، عاصمة الدولة العباسية ، مركزاً من مراكز الحضارة في العالم . فقد استقرت الأحوال الداخلية في الدولة ، وبدأ المهدي يجني ثمار جهود أبيه المنصور وعمه أبي العباس ، فانتشر الرخاء والأمن والسلام ، وارتقت الفنون والآداب والعلوم ، وحفلت بغداد بالشعراء والأدباء والعلماء والموسيقيين والمطربين ، وتبارى وجوه بغداد في انشاء القصور الفخمة وجذب الشعراء اليهم ليتمدحوهم بقصائد عصماء .

كان المهدي يتنقل بين قصر الذهب الذي أنشأه المنصور في وسط بغداد ، وبين قصر الخلد الذي أتم المهدي بناءه على الشاطئ الغربي لنهر دجلة ، واهتم المهدي بزخرفته وتجميله ، وسمّاه (الخلد) تشبيهاً له بجنة الخلد . وبني وجوه بغداد حوله قصورهم ، حتى قامت ضاحية تسمى (الخلد) . وأقام المهدي في القصر عرشاً سمّاه (مجلس الأمير) قامت فيه أعمدة الرخام المجزع ويحيط بها قضبان من ذهب . وفرش المهدي هذا المجلس بالبسط والديباج ، وقد نقش عليها أبياتاً من الشعر تمدح الخليفة . وحول العرش اصطففت مقاعد مرصعة باللؤلؤ يجلس عليها رجال الدولة . وكان المهدي يجلس على عرشه داخل قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير المطعم بالخيوط الذهبية .

اتبع العباسيون في مبانيهم الطراز الفارسي غالباً ، والطراز الروماني الذي شهدوه في بلاد الشام أحياناً . وكان البناء

بالآجر المغطى بالكلس . وكانت قصور الأغنياء تشمل ثلاثة أقسام هي : مقاصير الحرم ، وحجرات الخدم ، وأماكن للضيافة ، ويحيط بالقصور حدائق يانعة ، تحفل بالأزهار والفاكهة. وزيتونوا أسطح قصورهم بقباب مرفوعة على عمد دقيقة فتظهر للعين كأنها معلقة في الفضاء ، ويحيط بكل قصر سور واحد . أما دور العامة فكانت تشرف على الشوارع مباشرة دون أن يحيط بها سور . وحفلت بغداد بالمباني الشاهقة التي تتألف من عدة طوابق ، وفرشت بأثمن الأثاث والرياش التي جلبت من كل مكان في العالم . وكانت قصور البرامكة في عهد المهدي من أجمل قصور بغداد ، واشتهر القصر الذي بناه محمد بن سليمان في البصرة وذاع صيته بين الناس . وكان العباسيون يقلدون الفرس في تخفيف حرارة الشمس في الصيف فيعملون لبيوتهم سقوفا من الطين يجددونها في كل يوم يقضى الخليفة القيلولة فيه^١ .

كان قصر الخليفة بما يحيط به من ملحقات للحريم والخصيان وموظفي الخاصة يشغل ثلث بغداد . وكانت قاعة الاجتماعات بما فيها من بسط وستور ووسائد من أحسن ما أتجه الشرق ، ذات تأثير خاص في النفس ، ولها روعة كبيرة . وكانت بغداد تأخذ زينتها ويبدو ثراؤها في المناسبات ، وخاصة في الاحتفالات كالاحتفال بتولي الخليفة أو حفلات الزواج أو الحج أو استقبال

(١) المدور : حضارة الاسلام في دار السلام ص ٩٢ وما بعدها .

السفراء الأجانب . وكان يلى الخليفة فى حياة البذخ أفراد الأسرة العباسية والوزراء والرؤساء والموظفون وغيرهم من الأتباع الذين كانوا يملأون قصر الخلافة . وكان أفراد البيت الهاشمى ، الذى ينتمى إليه العباسيون ، يتلقون باقظام من خزانة الدولة أعطيات ، وظل الحال كذلك حتى عهد المعتصم^١ .

واهتم المهدي بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها وطرقها ، فكافت الرحاب تكس كل يوم ، ويحمل التراب الى خارج المدينة .

كان العباسيون يعنون بتنويع الطعام . وكان أبو جعفر المنصور يقبل على الطعام ولا يستمع الى نصيحة أطبائه مما أدى الى ضعف صحته وموته . كما اهتم المهدي بنصب الموائد الفاخرة فى المناسبات العامة ، واستضافة كثير من رعاياه ، فى كرم وسخاء . وقد تحدثنا عن الموائد التى نصبها المهدي لوجوه مكة ، وقد حفلت بأنواع الطعام الفاخر ، وخاصة بالطيور وخبز السميد ، وجلب المهدي لضيوفه الثلج من بلاد الشام لأول مرة الى مكة .

انتشرت الأزياء الفارسية فى مدينة بغداد منذ مطلع الدولة العباسية ، حتى أصبح اللباس الفارسى لباس البلاط الرسمى ، فقد قرر أبو جعفر المنصور لبس القلانس ، وهى القبعات السود

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٧٧

الطويلة المخروطة الشكل ، بصفة رسمية ، كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعتها على الناس من حق الخليفة ، وحذا المهدي حذو أبيه المنصور .

وكان لباس الخليفة العباسي في المواكب القباء الأسود أو البنفسجي الذي يصل الى الركبة ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرات عالية . وكان الأمراء والنبلاء يقلدون الخلفاء في ملابسهم . أما الخلفاء والقضاة فكانوا يلبسون العمامة والطيلسان ، مقتدين في ذلك بالرسول صلى الله عليه وسلم ، كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة ، حولها عمامة ذات لون أسود ، وهذا اللون هو شعار العباسيين . وكان اللباس العادي للطبقة الراقية في العهد العباسي يشتمل على سروالة فضفاضة ، وقميص ودراعة وسترة وقفطان وعباءة وقلنسوة . أما لباس العامة فيشتمل على ازار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام ، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال ١ .

أما ملابس النساء ، فتكونت من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة ، يحلّيه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد . وكانت المرأة العربية اذا خرجت من بيتها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها ، وتقي ملابسها من التراب ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة . وقد تطورت ملابس النساء في العهد

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣١١

العباسي تطورا كبيرا عما كانت عليه في العصر الأموي ، اذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعا بالجواهر ، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . ويعزى ابتكار هذا الغطاء الى علية بنت المهدي ^١ .

شهدت طرقات بغداد مواكب الخليفة المهدي ، وقد فاقت مواكب الخلفاء العباسيين أسلافهم الخلفاء الأمويين . في أيام الجمع يبدأ الموكب بسير حراس الخليفة حاملين الأعلام ، ثم يليهم أمراء البيت العباسي على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطيا جوادا شديد البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة . وكان الخليفة يلبس في تلك المواكب القباء الأسود ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة عالية ، ويده قضيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخاتم الخلافة ، ويتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة . وكان من مظاهر سيادة الخليفة في بغداد أن يضرب على باب قصره بالطبول والدبابت والأبواق في أوقات الصلاة . ومن أعظم مواكب المهدي موكبه عندخروجه الى الحج ، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأقطار الاسلامية الشرقية ، وخاصة أهل العراق وفارس وخراسان وغيرها .

وكان المهدي يحمل معه في موكبه يدّر الدراهم والدنانير ،

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣١١

فلا يتعرض له أحد الا أعطاه ، فكان أرباب الدولة يخافون تفاد
ما في بيت المال ، وخاصة أن المهدي أمر بتخفيف الضرائب مما
أدى الى نقص إيرادات بيت المال . وكثيرا ما يتوقف موكب
المهدي للاستماع الى شكوى أحد رعاياه .

اهتم الخلفاء العباسيون بحفلات الزواج ، وشهدت بغداد
ليلة حافلة ، حينما احتفل الخليفة المهدي بزواج ابنه هارون
الرشيد بالسيدة زبيدة ، فقد أقام يوم زفافهما وليمة لم يسبقه
اليها أحد في العصر الاسلامي ، ووهب للناس في هذا اليوم
أواني الذهب مملوءة بالفضة ، وأواني الفضة مملوءة بالذهب
والمسك والعنبر ، وزين العروس بكثير من الحلى والجواهر ،
حتى أنها لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من هذه الحلى
والجواهر . وأنفق المهدي على احتفاله بزواج هارون مليوناً
و ٣٨٨ ألف دينار من أمواله الخاصة ، عدا ما أنفقه هارون .
أما السيدة زبيدة فقد قدرت نفقات ليلة الاحتفال بزواجها من
الرشيد بمبلغ يتراوح بين ٣٥ و ٣٧ مليون دينار .

احتفل المهدي بالأعياد الاسلامية احتفالاً دينياً ، فكان يؤم
الناس في الصلاة ، ويلقى خطبة بليغة في فضائل العيد ، وكان
المهدي فصيحاً بليغاً ، فيحث المسلمين على التمسك بتعاليم
الاسلام ، فقد كان المهدي متديناً تقياً ورعاً . وكانت بغداد
تسطع بالأنوار في ليالي العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين
بالتهليل والتكبير ، وتزدحم دجلة بالزوارق المزينة بأبهى

الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل . وتتلاأ الأنوار الساطعة من قصور المهدي ، وخاصة قصر الذهب وقصر الخلد .

كما احتفل المهدي بالأعياد الفارسية مجاملة لرعاياه من أهل فارس وخراسان ومشاركة لهم في أعيادهم . فقد كانت الدولة العباسية تعتمد على الفرس والخراسانيين . ومن أشهر هذه الأعياد النوروز والمهرجان . أما النوروز فهو أول أيام السنة عند الفرس ، ويقع عند أول الربيع ، أما المهرجان فهو آخر السنة الفارسية ، ويوافق غالبا أول الشتاء .

حكومة المهدي

نظام الخلافة في عهد المهدي :

كان الخليفة العباسي يقوم على رأس الحكومة باعتباره مصدر كل السلطات . وقد كان من حقه أن يعهد بممارسة سلطته المدنية الى وزير ، وسلطته القضائية الى قاض ، ووظيفته الحربية الى قائد أو أمير . ولكن الخليفة نفسه رغم كل هذا العهد ، كان يظل أبدا الملجأ الأخير في كل شئون الحكومة . وقد اقتفى خلفاء بغداد الأول في وظيفتهم وسلوكهم أثر الفرس القدماء ^١ .

وضع أبو جعفر المنصور أساس النظام السياسي الذي سارت عليه الدولة العباسية في العصر العباسي الأول ، وهو النظام الذي كان منتشرا في الشرق ، وكان مألوفا عند الفرس منذ أيام (اكزركيس) ، وبذلك تمكن العباسيون من أن يحكموا البلاد على النحو الذي كان يحكم به آل ساسان من قبل .

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة . فان تلك الدولة التي قامت على كواهل الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم تسويتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٩٥

ذلك لحق المساواة الذى أقرّه القرآن والسنة بين البشر . وقد
حذا العباسيون حذو الأمويين فى تولية العهد لأبنائهم .

وكان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكى المقدس^١ ، بمعنى
أن كل رجل لا ينتسب الى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر
مغتصبا لحق غيره . لذلك أصبح الخليفة العباسى فى نظرهم يحكم
بتفويض من الله لا من الشعب ، ويتجلى هذا واضحا فى قول
أبى جعفر المنصور : « انما أنا سلطان الله فى أرضه » . وذلك
ما يخالف ما كان عليه الخلفاء الراشدون الذين استمدوا سلطانهم
من الشعب . يدل على ذلك قول أبى بكر عقب توليته الخلافة :
« ان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى » . وقول الخليفة
الأموى عمر بن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ولكنى
أثقلكم حملا »^٢ .

تحدث السيد أمير على عن نظام الخلافة فى العصر العباسى
الأول الى عهد الرشيد ، فقال : لقد ظل نظام الحكم فى الدولة
العباسية استبداديا الى عهد الرشيد ، وعلى الرغم من أن
أصحاب الدواوين أو البارزين من أفراد البيت العباسى كانوا
بجانب مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل
قوة ، كما كان مرجعا لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة^٣ .
استفاد العباسيون من حركة الرجعية التى قامت ضد بعض

(١) The Divine Right of Kings.

(٢) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٠٥

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب .

الخلفاء الأمويين غير الأتقياء ، فطبع الخلفاء العباسيون من أول خلافتهم أنفسهم بالطابع الدينى ، وأحاطوها بالوقار الذى تستلزمه مظاهرهم باعتبارهم أئمة^١ .

صبغ الخلفاء العباسيون خلافتهم بصبغة دينية ، ورأينا النزعة الدينية عند الخلفاء العباسيين الأولين واضحة جلية ، ورأينا اتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين أقوى وأوضح ، فأبو جعفر المنصور يقرب العلماء والفقهاء ويصلهم ، والمهدى يشتد على الزنادقة وينشئ ديوانا للتنكيل بهم وعقابهم ، ويهتم بالأماكن المقدسة فى الحجاز ، ويروى الأحاديث النبوية ، وغير ذلك مما سنفصل الحديث عنه فى فصل (المهدى نصير الدين والعلم) .

وحرص الخلفاء العباسيون على ارتداء بردة الرسول صلى الله عليه وسلم عند تولي الخلافة ، أو فى الحفلات الدينية ، باعتبار الخليفة نائبا عن الرسول فى حكم المسلمين . كما تلقب الخليفة العباسى بلقب (امام) توكيدا للمعنى الدينى فى خلافة العباسيين ، بعد أن كان يطلق هذا اللقب فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس فى الصلاة ، على حين كان الشيعة يطلقونه على أفراد البيت العلوى الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم . وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند الى نظرية الحق الالهى ، قرب الخلفاء اليهم

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٩٤

العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هذه النظرية التي أصبح لها شأن في الحياة السياسية في الدولة العباسية ^١ .

المهدي يولى ابنه عهده :

تحولت الخلافة في عهد الأمويين من نظام الشورى والانتخاب الى النظام الملكي الوراثي ، فقد بايع معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد بولاية العهد دون أبناء الصحابة ، مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن العباس ، وغيرهم . وكان الخلفاء الأمويون يولون العهد أحيانا لأكثر من واحد .

واتبع العباسيون هذا النظام وغالوا فيه ، فقد عهد أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) بالخلافة الى أخيه أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ، ثم الى ابن أخيه عيسى بن موسى بن علي ابن عبد الله بن عباس . فلما تولى المنصور خلع عيسى بن موسى ، وباع لابنه المهدي ، ثم لعيسى من بعده . ولما تولى المهدي الخلافة (١٥٨ - ١٦٩ هـ) خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وولّى ولديه الهادي ثم هارون الرشيد . كذلك أراد الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، مثلما فعل المهدي مع عيسى بن موسى ، لولا أن مات الهادي قبل أن يضع مشروعه حيّز التنفيذ .

ويعلق الدكتور حتى ^٢ على نظام ولاية العهد في العصر

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٩٥

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٢٩٤

العباسي فيقول : ولقد حذا العباسيون حذو الأمويين في نظام الوراثة غير الواضحة المعالم ، وكانت تبيجته سيئة عليهم ، كما كانت سيئة على أسلافهم الأمويين . وكان الخليفة المتولى الحكم يعين أحد أبنائه ، ممن كان يحبهم أو يرى فيهم الكفاية ، وليًا للعهد من بعده ، كما كان في بعض الأحيان يعين أحد أقربائه وليًا للعهد إذا كان يرى أن صفاته تؤهله لذلك .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا^١ عن اقتداء المهدي بأبيه المنصور في خلع عيسى بن موسى وتولية ابنه الهادي ، فقال : « ولما ولي المهدي الخلافة جدّد الكلام في خلع عيسى بن موسى والبيعة لولديه موسى الهادي وهارون الرشيد ، فقد تقدم شرح كيفية خلعه في أيام المنصور ، وأنه قدّم المهدي عليه ، فلما ولي المهدي أراد لبنيه ما أراد المنصور له ، فطلب من عيسى بن موسى أن يخلع نفسه ، فأبى فأرهبه وأرغبه ، حتى أجاب وأشهد عليه بالخلع وبايع لولديه الهادي والرشيد » .

وصف المؤرخ الطبري^٢ اليوم الذي أخذ فيه المهدي البيعة لابنه موسى بولاية العهد ، وصفا عمدًا بصورة عن المراسيم العباسية المتبعة عن تولية ولي العهد : « أذن المهدي لأهل بيته ، ثم أخذ بيعتهم رجلا رجلا لنفسه ، ولموسى بن المهدي من بعده ، حتى أتى إلى آخرهم . ثم خرج إلى مسجد الجماعة بالرصافة فقعده على المنبر ، وصعد موسى حتى كأنه دونه ، وقام

(١) الفخري ص ١٦٢

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٦٠

عيسى على أول عتبة من المنبر ، فحمد الله المهدى وأثنى عليه
وصلّى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخبر بما أجمع عليه
أهل بيته وشيعته وقواده وأنصاره وغيرهم من أهل خراسان من
خلع عيسى بن موسى ، وتصيير الأمر الذى كان عقد له فى أعناق
الناس لموسى ابن أمير المؤمنين لاختيارهم له ورضاهم به ،
وما رأى من اجابتهم الى ذلك ، لما رجا من مصلحتهم وألفتهم ،
وخاف مخالفتهم فى نياتهم واختلاف كلمتهم ، وأن عيسى قد خلع
تقدّمه وحلّهم مما كان له من البيعة فى أعناقهم ، وأن ما كان
له من ذلك فقد صار لموسى ابن أمير المؤمنين ، بعقد من أمير
المؤمنين وأهل بيته وشيعته فى ذلك ، وأن موسى عامل فيهم
بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بأحسن السيرة
وأعدلها ... وجلس موسى دونه معتزلاً للمنبر لئلا يحول بينه
وبين من صعد اليه يبايعه ويمسح على يده ، ولا يستر وجهه ،
وثبت عيسى قائماً فى مكانه ، وقضى عليه كتاب ذكر الخلع له
وخروجه مما كان اليه من ولاية العهد وتحليله جماعة من كان
له فى عنقه بيعة مما عقدوا له فى أعناقهم ، وأن ذلك من فعله
وهو طائع غير مكره راض غير ساخط ، محب غير مجبر ، فأقرّ
عيسى بذلك . ثم صعد فبايع المهدى ، ومسح على يده ، ثم
انصرف .

وبايع أهل بيت المهدى على أسنانهم ، يبايعون المهدى ،
ثم موسى ، ويمسحون على أيديهما ، حتى فرغ آخرهم ، وفعل
من حضر من أصحابه ، ووجوه القواد والشيعه مثل ذلك .

ثم نزل المهدي ، فصار الى منزله ووكل بيعة من بقى من الخاصة
والعامة ، خاله يزيد بن منصور ، فتولى ذلك ، حتى فرغ من
جميع الناس ، ووفى المهدي لعيسى بما أعطاه وأرضاه مما خلعه
منه من ولاية العهد ، وكتب عليه بخلعه اياه كتابا أشهد عليه
فيه جماعة أهل بيته وصحابته وجميع شيعته وكتّابه وجنده
في الدواوين ، ليكون حجة على عيسى ، وقطعا لقوله ودعواه
فيما خرج منه .

وسجل شاعر المهدي ، مروان بن أبي حفصة ، يوم
البيعة لموسى الهادي بولاية العهد ، في شعره ، فأنشد ١ :
عقدت لموسى بالرصافة بيعة

شدّ الاله بها عرى الاسلام
موسى الذي عرفت قریش "فضله

ولها فضيلتها على الأقوام
بمحمد بعد النبي محمد

حيّ الحلال ومات كل حرام
مهدى أمته الذي أمست به

للذلّ آمنة وللإعدام
موسى ولي عهد الخلافة بعده

جفت بذاك مواقع الأقسام
وروى المؤرخ الطبري ٢ أن المهدي فكّر في أواخر عهده

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٩١

في تقديم ابنه هارون الرشيد على ابنه الأكبر موسى الهادي الذي كان قد بايع له بولاية العهد بعد خلع عيسى بن موسى ، وأن هذا المشروع لم يتم بسبب وفاة المهدي . فقال الطبري : « ذكر أن المهدي كان في آخر أمره قد عزم على تقديم هارون ابنه على ابنه موسى الهادي ، وبعث إليه وهو بجرجان بعض أهل بيته ، ليقطع أمر البيعة ، ويقدم الرشيد ، فلم يفعل . فبعث إليه المهدي بعض الموالى ، فامتنع عليه موسى من القدوم ، وضرب الرسول ، فخرج المهدي بسبب موسى ، وهو يريد بجرجان ، فأصابه ما أصابه » .

نظام الوزارة في عهد المهدي :

كانت كلمة (وزير) معروفة للعرب قبل الفتوحات الإسلامية ، ففي القرآن الكريم على لسان موسى (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخى) . وفي حديث السقيفة « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » . وفي طبقات ابن سعد : « ان أبا بكر كان وزيرا للنبي صلى الله عليه وسلم » . وفي الدولة الأموية كان اللفظ مستعملا ، يقول الطبري : « ان زيادا كان يسميه معاوية وزيرا » .

ولكن الكلمة في كل المواضع لم تستعمل في المعنى الاصطلاحي الذي نعرفه الآن من كلمة الوزير ، وانما هي بمعنى المؤازر المناصر . قال ابن خلكان : « وقد اختلف أرباب اللغة في اشتقاق الوزارة على قولين : أحدهما أنها من الوزير وهو

الحمل ، فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ، وهذا قول ابن قتيبة . والثاني أنها من الوَزَر وهو الجبل يعتصم به لِيَتَجى به من الهلاك ، وكذلك الوزير معناه : الذي يعتمد عليه الخليفة أو السلطان ، ويلتجى الى رأيه ، وهو قول أبي اسحاق الزجاج .

ويرجح المرحوم الأستاذ أحمد أمين^١ أن أصل الكلمة عربى ، ولا يوافق على ما ذهب اليه بعض المستشرقين من أن أصل الكلمة فهلوى مأخوذ من (قيشيرا Vi-chira) ومعناه الأمر أو التقرير .

لم تكن كلمة وزير بدعا في العصر العباسى ، انما المبتدع هو انشاء هذا المنصب واعطاء صاحبه السلطة الرسمية ، وتلقيه بهذا الاسم ، وهذا المنصب فارسى ولم يكن معروفا قبل العباسيين .

قال ابن خلكان في ترجمة أبى سلمة الخلال : ان أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشهر بالوزارة في دولة بنى العباس ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا الاسم ، لا في دولة بنى أمية ولا في غيرها من الدول .

اقتبس الخلفاء العباسيون نظم الحكم في دولتهم عن الفرس ، ومنها الوزارة . وكان الوزير في عهدهم ساعد الخليفة الأيمن ، يقضى باسمه في جميع شئون الدولة ، فكان له الحق في تنصيب

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٧٢

العمال والاشراف على الضرائب ، فكان بذلك ينوب عن الخليفة في حكم البلاد ، ويجمع في شخصه بين السلطتين المدنية والحربية ، بجانب الواجبات العادية من نصيح الخليفة ومساعدته ^١ .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا عن نظام الوزارة في العصر العباسي الأول ، فقال : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليتعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة ... والوزارة لم تتمهد قواعدها ، وتتقرر قوانينها الا في دولة بني العباس . فأما قبل ذلك فلم تكن متفنة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فاذا حدث أمر استشار ذوى الحجا والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقرررت قوانين الوزارة ، وسمي الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » .

وفصل ابن خلدون ^٢ واجبات الوزير وأعماله في العصر العباسي ، فقال : « فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد ، وتعيّنت مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج اليه خطته من قسم الأعطيات في

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ١٩٦

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧

الجند . فاحتاج الى النظر فى جمعه وتفريقه ، وأضيف اليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر فى القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور . وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذيع والشياع ، ودفع اليه ، فصار اسم الوزير جامعاً لخطتى السيف والقلم ، وسائر معانى الوزارة والمعاونة .

كان معظم وزراء الخلفاء العباسيين من الفرس ، فأبو سلمة الخلال أول وزير عباسى ، مولى فارسى ، وأبو أيوب المورىانى وزير المنصور فارسى من (مورىان) وهى قرية من قرى الأهواز . ويعقوب بن داود وزير المهدي مولى كذلك . وكذلك كان البرامكة . وكان الوزير قائماً مقام الخليفة فى كل الشئون ، فينظر فى الشئون الحربية ، وفى الشئون المالية ، ويكتب الرسائل الى الجهات المختلفة ، ويوقع على ما يرفع اليه من أوراق ، ولم يتعدّد الوزراء فى الدولة العباسية بتعدّد الأعمال ، فيجعل للحرب وزير ، وللمال وزير ، وهكذا . وانما كان تعداد الوزراء بتعداد الأعمال ، من نظام الدولة الأموية بالأندلس ، ولكن العباسيين جمعوا بين السيف والقلم ^١ .

وكان الوزراء فى العصر العباسى الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم ، فكان كل منهم يتجنب أن يسمّى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم على يد المنصور . وكان خالد بن برمك

يعمل عمل الوزراء ، ويأبى أن يسمّى وزيراً ، على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء .

استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكى أبا أيوب المورياني اشتراه المنصور صبيّاً قبل أن يلى الخلافة ، فثقفه وعلمّه ، واتفق أن أرسله مرة الى أخيه الخليفة أبى العباس السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته ، فأبقاه عنده وأعتقه ، وجعله من أخص رجاله المقربين اليه ، وأدر عليه عطاءه وصلاته ، وظل على ذلك حتى ولى المنصور الخلافة ، فقلده الوزارة ، وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء الا خالد بن برمك .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا^١ عن الوزارة فى عهد المهدي فقال : « فى أيامه ظهرت أبهة الوزارة بسبب كفاءة وزيره أبى عبد الله معاوية بن يسار ، فانه جمع له حاصل المملكة ، ورتب الديوان وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حذقا وعلمًا وخبرة » .

وقد اختار المهدي أحسن الوزراء سيرة وعدلا ودراية بشئون الدولة ، وأثبتوا كفاءة واضحة . ورغم ذلك ، فقد كان المهدي يشاركهم أعباءهم ومسئولياتهم . فكان كما وصفه ابن طباطبا^٢ « ينظر فى الدقائق من الأمور » .

(١) الفخرى ص ١٦٣

(٢) المصدر نفسه .

وزراء المهدي :

ولّى المهدي الوزارة أبا عبيد الله معاوية بن يسار ، وهو مولى الأشعرين ، وكان كاتب المهدي ونائبه قبل أن يتولى الخلافة ، ضمه المنصور إليه ، وكان المنصور ينوى أن يستوزره ولكنه أثر ابنه المهدي ، فكان غالبا على أمور المهدي لا يعصى له قولا . وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ويأمره بامثال ما يشير به . فلما مات المنصور وتولى المهدي الخلافة فوض إليه تدبير أمور الدولة ، وسلم إليه الدواوين ، وكان مقدما في صناعته ، فابتكر أمورا كثيرة ، منها أنه قل الخراج الى المقاسمة ، وكان الخليفة قبله يأخذ عن الغلات خراجا مقررًا ولا يقاسم ، فلما تولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، واستمرت الحال على ذلك طوال العصر العباسي . كما وضع أبو عبيد الله كتابا في الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنّف كتابا في الخراج ، وتبعه غيره في ذلك ١ .

كان الوزير معاوية بن يسار متكبرا متعاليا ، وكان الربيع ابن يونس حاجب المهدي يحقد عليه ويبغضه لتكبره عليه وعدم اكتراثه به ، وأقسم الربيع على أن يعمل على عزل الوزير ، فأخذ يدس له عند الخليفة ، فأوغر صدره على ابن الوزير واتهمه بالزندقة ، حتى اذا اختبر الخليفة ابن الوزير في القرآن الكريم ،

(١) الفخرى ص ١٦٤

وأدرك جهله بالآيات القرآنية ، حجب الوزير عنه ، واضطر
الوزير الى اعتزال الوزارة ، ولزم داره حتى مات سنة ١٧٠ هـ ،
وسنفصل الحديث عن ابن الوزير عند حديثنا عن (المهدي
والزنادقة)^١ .

ثم ولي المهدي الوزارة أبا عبد الله يعقوب بن داود بن
طهمان مولى بنى سليم ، وكان أبوه داود واخوته كتنابا لنصر
ابن سيار أمير خراسان الأموي . وكان يعقوب في أول الأمر
يعتق مذهب الشيعة ، مؤيدا للزعيم العلوي عبد الله بن الحسن
ابن الحسن « ثم ان المهدي خاف من بنى الحسن أن يحدثوا
أمرا لا يتدارك ، فطلب رجلا ممن له أنس ببنى الحسن ،
ليستعين به على أمرهم ، فدله الربيع على يعقوب بن داود
لصداقة كانت بين الربيع وبينه ، وليتفقا على ازالة دولة
أبي عبيد الله معاوية الوزير ، فاستحضره المهدي وخاطبه ، فرأى
أكمل الناس عقلا ، وأفضلهم سيرة ، فشغف به واستخلصه
لنفسه ، ثم استوزره ، وفوض الأمور اليه »^٢ .

ويروى الطبري^٣ قصة طريفة عن سبب تولية المهدي يعقوب
ابن داود الوزارة ، فروى : « قال المهدي : ووصف لي يعقوب
ابن داود في منامي ، فقيل لي ان اتخذه وزيرا ، فلما رآه قال :

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٧١ ، الفخرى ص ١٦٥

(٢) الفخرى ص ١٦٦

(٣) الطبري ج ٦ ص ٣٧٢

هذه والله الخلقة التي رأيتها في منامي ! فاتخذة وزيرا
عنده غاية الحظوة » .

وروى ابن طباطبا أن يعقوب بن داود عرض مو . . .
المهدي مما أكسبه رضا و إعجاب المهدي ، فولاه الوزارة وقربه
اليه . فقد قال يعقوب للمهدي : يا أمير المؤمنين هاهنا أمور
لا تنتهي الى عملك ، فان وليتني عرضتها عليك بذلت جهدي
في نصيحتك ، « فقرّبه وأدناه ، فصار يعرض عليه من قبل ،
فاستخضه وكتب كتابا بأنه أخوه في الله تعالى ، واستوزره ،
وفوض اليه الأمور كلها ، وسلم اليه الدواوين ، وقدمه على
جميع الناس ، حتى قال بشار يهجوّه :
بنى أمية هبوا طال نومكم

ان الخليفة يعقوب بن داود »^١

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لاسحاق بن الفضل ، وزعم
الحاقدون على يعقوب أنه يمهّد الأمور ليتولى اسحاق الخلافة بدلا
منه ، وأن ذلك من الأمور اليسيرة على يعقوب ، فقد أصبحت
ولايات المشرق والمغرب في يده ويد أصحابه ، وانما يكفيه أن يكتب
لهم فيثوروا جميعا في وقت واحد ، ويتولى اسحاق الخلافة .
وصدّق المهدي هذه الوشايات « ولم يزل مواليه يحرصونه
عليه ويوحشونه منه حتى عزم على ازالة النعمة عنه »^٢ .
ثم حدث بعد ذلك أن طلب يعقوب من المهدي أن يولى

(١) الفخرى ص ١٦٦

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٨٣

اسحاق بن الفضل حكم مصر ، مما أثار غضب المهدي ، وتأكد من صحة الوشائات . ثم دس اليه جارية من جواريه ، وهبها له ، لتنقل اليه أخباره . ثم أراد المهدي أن يختبر وزيره ، فسلم اليه علويا وأمره بقتله ، ولكن العلوي استعطف يعقوب فأطلق سراحه دون أن يستأذن الخليفة ، وزعم له أنه نفذ أمره وقتله . وتقلت الجارية الى المهدي خبر اطلاق سراح هذا العلوي ، مما أغضب المهدي ، وأمره بالقاءه في سجن مظلم ، فظل مسجوناً حتى أطلق هارون الرشيد سراحه ، وكان قد فقد بصره . ثم أمر المهدي بعزل جميع أنصار يعقوب وولاته في الأمصار الاسلامية ، وسجن بعض أهل بيته ، فكانت مدة وزارة يعقوب نحو خمس سنوات ^١ .

ثم استوزر المهدي بعده الفيض بن أبي صالح ، ويتحدث ابن طباطبا ^٢ عنه فيقول : « هو من أهل نيسابور ، وكانوا نصارى ، فانتقلوا الى بني العباس ، وأسلموا ، وتربى الفيض في الدولة العباسية وتآدب وبرع ، وكان سخياً مفضالاً متخرقاً في ماله ، جواداً عزيز النفس كبير الهمة ، كثير الكبر والته ، حتى قال فيه بعض الشعراء :

أبا جعفر جئناك نسأل نائلاً

فأعوزنا من دون نائلك البشر

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، الفخرى ص ١٦٨ - ١٦٩

(٢) الفخرى ص ١٦٩

فما برقت بالوعد منك غمامة

يرجى بها من سيب نائلك القطر

فلو كنت تعطينا المنى وزيادة

لنغصها منك التجير والكبر»

وأستمر الفيض يتولى الوزارة حتى مات المهدي ، ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده ، حتى مات في أوائل عهد هارون الرشيد سنة ١٧٣ هـ .

كانت الوزارة في عهد المهدي من نوع (وزارة التنفيذ) ونم تكن (وزارة تفويض) كما كانت في عهد خلفائه من بني العباس . وقد تحدث الماوردي^١ عن الفرق بين النوعين ، وقارن بينهما . فذكر أن الفروق أربعة ، أولها ، أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . وكان المهدي كما رأينا يجلس للمظالم واشتهر — كما ذكر المؤرخ ابن طباطبا — بالتدقيق في كل الأمور . وثاني الفروق ، أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاية ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والمصادر التاريخية تتحدث عن تدخل المهدي دائماً في اختيار الولاية ، بل كان يعزل الوزراء — كما رأينا — اذا شعر بانحرافهم . وثالث الفروق ، أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدير الحروب ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٦

وقد رأينا كيف كان المهدي يخرج بنفسه في مقدمة جيوشه ، أو يولّي ابنه هارون الرشيد القيادة ، أو يولى غيره من القادة . ورابع الفروق : أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرّف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . وكان المهدي يتدخل في جباية إيرادات الدولة ويشرف على مصروفاتها ، وقد رأينا كيف أمر المهدي بتعديل نظم الخراج ، كما أنشأ ديوان الأمانة للإشراف على سائر دواوين الحكومة ومراقبة الإيرادات والمصروفات فكان يشبه ديوان المحاسبة اليوم ، كما أوجد وظيفة الأمين لأول مرة ، فبعث الأمناء الى الولايات لمراقبة ولاية الأمصار الإسلامية .

البرامكة في ظل المهدي :

بدأ مجد أسرة البرامكة في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وبرز البرامكة في عهد الخليفة المهدي ، ثم بلغوا أوج عظمتهم في عهد ابنه الخليفة هارون الرشيد ، ثم انهار مجدهم فجأة ، بعد أن كانوا في القمة ، فقد نكبهم الرشيد ونكّل بهم .

كان برمك جدهم الأسرة البرمكية سادن بيت النار ببلخ ، فكان يقوم بالإشراف على هذا البيت . وكان برمك وأسرته يدينون بالمجوسية دين الفرس القديم . وبعد الفتح الإسلامي للدولة الفارسية ، أسلم بعض البرامكة ، وظهر منهم في أوائل الدولة العباسية خالد بن برمك ، الذي تقلّد الوزارة في عهد

الخليفتين أبي العباس والمنصور ، واتخذ هارون الرشيد يحيى ابن خالد قبل أن يلى الخلافة كاتباً له ، يرجع الى رأيه وتديره ، كما يرجع الخليفة الى رأى الوزير وتديره . ولما ولى الخلافة استوزر يحيى ، فعلا شأنه ، وبعد صيته ، وأصبح هو وأولاده كعبة الآمال ، وغدت تشد اليهم الرحال ^١ .

ظهر نبوغ خالد بن برمك فى عهد أبى العباس ، فولاه الوزارة ، وان لم يتخذ لقب وزير ، فيقول المؤرخ ابن طباطبا ^٢ : « وكان خالد بن برمك من رجال الدولة العباسية فاضلاً جليلاً كريماً حازماً يقظاً ، استوزره ، وخفّت على قلبه ، وكان يسمى وزيراً ، وقيل ان كل من استوزر بعد أبى سلمة كان يتجنب أنه يسمّى وزيراً تطيراً مما جرى على أبى سلمة ، ولقول من قال :

ان الوزير وزير آل محمد

أودى فمن يشناك كان وزيراً

فكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمّى وزيراً ، وكان خالد عظيم المنزلة عند الخلفاء » .

ومما يدل على علو منزلة خالد عند الخليفة أبى العباس ، أن أبا العباس قال يوماً لخالد : يا خالد ما رضيت حتى استخدمتنى ؟ ففزع خالد وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك ؟ ! فضحك أبو العباس وقال : ان ربطة ابنتى

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٤٩

(٢) الفخرى ص ٥١

تنام مع ابنتك في مكان واحد ، فأقوم بالليل فأجدهما قد سرح
الغطاء عنهما فأرده عليهما . فقَبَّل خالد يده وقال : مولى
يكتسب الأجر في عبده وأمته . وريطة هذه هي التي تزوجها
المهدي فيما بعد .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك ومدحه الشعراء ،
وانتجعه الناس ، وكان الوافدون قبل ذلك يسمّون سوءاً ،
فقال خالد : انى أستقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء ومنهم الأشراف
والأكابر . فسَمَّاهم الزوار ، وكان خالد أول من سمَّاهم
بذلك ، فقال له بعضهم والله ما تدرى أى أياديك عندنا أجل ،
أصلتنا أم تسميتنا ؟

ولما بنى المنصور مدينة بغداد عظمت النفقة عليه ، فأشار
عليه أبو أيوب المورياني بهدم ايوان كسرى واستعمال أنقاضه .
فاستشار المنصور خالد بن برمك في ذلك ، فقال : لا تفعل
يا أمير المؤمنين فإنه آية الاسلام ، فاذا رآه الناس علموا أن
مثل هذا البناء لا يزيله الا أمر سماوى ، وهو مع ذلك مصلّى
على بن أبى طالب عليه السلام ، والمؤنة في تقضه أكثر من
تفعه . فقال له المنصور : أبيت يا خالد الا ميلا الى العجمية !
ثم أمر المنصور بهدمه . فهُدمت بعض أجزائه ، فكانت ثققات
هدمه أكثر مما عاد على المنصور من فائدة ، فأمسك المنصور
عن هدمه ، وقال : يا خالد قد صرنا الى رأيك ، وتركنا هدم

الايوان . فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، أنا الآن أشير بهدمه
لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك . فأعرض
المنصور عن الايوان وأمسك عن هدمه .

وكان يحيى بن خالد البرمكى أشهر رجال عصره ، علما
وأدبا وفضلا ، وجودا ونبلا . وكان فى الثانية عشرة من عمره ،
لمّا قامت الدولة العباسية ، فتربى فى كنفها ، وشمله الخليفة
المنصور بعطفه ، فولاه أذربيجان سنة ١٥٨ هـ ، واختاره المهدي
كاتبا ونائبا لابنه هارون ، فخرج معه فى الصائفة لغزو
البيزنطيين . ولمّا تولى هارون بلاد المغرب ، ساعده يحيى
على النهوض بأعبائها ، ولمّا أراد الهادى أن يخلع أخاه هارون
من ولاية العهد ، نصح له يحيى بالعدول عن هذا الرأى .

تحدث ابن طباطبا عن أمجاد البرامكة فى الدولة العباسية ،
فقال : « اعلم أن هذه الدولة كانت غرّة فى جبهة الدهر ، وتاجا
على مفارق العصر ، ضربت بكمارمها الأمثال ، وشدت إليها
الرحال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ،
ومنحتها أوفر اسعادها ، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ،
والبحور زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة ، أسواق
الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية .
والدنيا فى أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللهف
ومعتصم الطريد » .

كما تحدث المؤرخ المسعودي^١ عن نبوغ خالد بن برمك ،
الذى برز فى عهد الخليفة المهدي ، فقال : « لم يبلغ مبلغ خالد
ابن برمك أحد من ولده فى جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله ،
لا يحيى فى رأيه ووفور عقله ، ولا الفضل فى جوده وبراعته ،
ولا جعفر بن يحيى فى كتابته وفصاحته ، ولا محمد بن يحيى فى
سروه وبعد همته ، ولا موسى بن يحيى فى شجاعته وبأسه .
وفيمن ذكرنا يقول أبو الغول الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهُمُ
أربعة سيد ومتبوع
الخير فيهم اذا سألت بهم
مفرق فيهم ومجموع »

النظم الحكومية فى عهد المهدي :

كان الوزراء الظاهرون فى العصر العباسي من الموالي
الفرس ، فأبو سلمة الخلال أول وزراء العباسيين مولى فارسي ،
وأبو أيوب المورياني وزير المنصور فارس ، ويعقوب بن داود
وزير المهدي مولى كذلك ، وكذلك كان الوزراء البرامكة فى
عصور المنصور والمهدي والرشيد .

وكان الوزير يجمع الى الادارة الحرية والمالية خطة القلم ،
أى انفاذ الرسائل الى الجهات ، والتوقيع على ما يتعرض عليه
من مطالب ورسائل ، ولذا كان من شروط تولية الوزير أن

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧٧

يكون عالما مطلقا ، كاتبا بليغا . وتاريخ الوزراء العباسيين ، يدلنا على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ في اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغة .

وقد مرّ بنا كيف كان المهدي يختبر وزراءه قبل أن يوليهم ، وقد أحسن المهدي الاختيار ، فكان وزراءه على جانب كبير من الكفاءة والصلاحية . وقد رأينا وصف المؤرخ ابن طباطبا لوزير المهدي معاوية بن يسار ، فقد وصفه بأنه كان مقدما في صناعته فابتكر أمورا كثيرة ، وقد وضع معاوية أول كتاب في الخراج . وكان يعقوب « أكمل الناس عقلا ، وأفضلهم سيرة » . كما أشاد ابن طباطبا ببراعة الفيض بن صالح الوزير الثالث للمهدي .

وهذه القدرة الكتابية التي كان يشترطها الخلفاء في الوزير ، كانت من أكبر الأسباب في قصر الوزارة على الفرس — غالبا — فالعرب كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية . ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان ، فقالوا رجل لَسِن إذا كان ذا بيان وفصاحة ، ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة ^١ .

لمّا كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول ، أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير للإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها . ومن أشهر الكتاب في هذا

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٧٤

العصر كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة .
وقد حرص الخلفاء على أن تدوّن الرسائل بأسلوب شائق بليغ ،
كما حرصوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق
الأسر ، وممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب ^١ .

وكانت طائفة الكتاب تؤلف وحدة على رأسها الوزير ، بل
وتتدرج في الرقي الى الوزارة ، معتمدة على كفايتها وبلاغها ،
وكان لهؤلاء الكتاب أثر كبير في نشر نوع من الثقافة خاص ،
ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وكانت معارفهم
ودائرة اطلاعهم واسعة شاملة ، لأنهم — بحكم مناصبهم —
مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم ، وأن
يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافيه
والتاريخ طرفا ، لأن كثيرا من مواقفهم يحتاج الى ذلك ، وقد
تعرض للخليفة أو الوالى مسائل من هذا القبيل ، ويضطر
الكاتب ازاءها أن يكون ملما بجميع ذلك ، اذ هم الذين كانوا
يعرضون على الخلفاء ما يرد عليهم ويحررون ما يصدر منهم ^٢ .

كان الخلفاء الراشدون لا يحتجبون عن رعاياهم ، فكانوا
يجلسون يومهم في مسجد الرسول بالمدينة ، ويلتقون بالمسلمين
على اختلاف مراتبهم بدون حجاب . ثم احتجب معاوية بن أبى
سفيان عن الناس بعد مصرع على بن أبى طالب ومحاولة اغتيال

(١) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ١٨٠

(٢) ضحى الاسلام ١٧٧

معاوية ، وازدحام الناس على أبواب قصره في دمشق ، وحذا الخلفاء الأمويون حذو معاوية في الاحتجاب عن الناس .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في العصر الحديث ، وكان يقوم بادخال الناس على الخليفة حسب مراتبهم ومراكزهم في المجتمع . واتخذ الخلفاء العباسيون الحجاب ، فلم يقابلوا رعاياهم الا من قدم لأمر خطير . وصار بين الناس وبين الخليفة داران : دار الخاصة ، ودار العامة ، يقابل الخليفة كل طائفة في مكان معين ، كما يحدده الحاجب . وكان الحاجب من كبار الموظفين ، وموضع ثقة الخليفة ، فكان يستشير في مهام الأمور ، ومرتبته بعد الوزير مباشرة .

اشتهر أمر الربيع بن يونس حاجب المهدي . وكان يتولى الحجابة أيضا في عهد أبيه المنصور . وقد مرّ بنا الدور الهام الذي قام به الربيع بعد وفاة المنصور قرب مكة ، فقد أخفى نبأ موت المنصور حتى أخذ البيعة للمهدي . كما مرّ بنا الدور الكبير الذي قام به الربيع للخلاص من الوزير معاوية بن يسار ، فعزله المهدي بسعى من الربيع ، ثم رشح الربيع للمهدي يعقوب بن داود ليتولى الوزارة .

كان النظام الإداري في العصر العباسي نظاما مركزيا ، وأصبح العمّال على الأقاليم مجرد عمال لا ولاية مطلقى السلطة ، على عكس ولاية الأمويين الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه . كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة ، ولذلك استحال النظام اللامركزي الى نظام مركزي ، مما يشعر

بتقلص تفوذ العمّال . وكان من أهم الموظفين في الولايات
الاسلامية في العصر العباسي الأول : صاحب بيت المال ،
وصاحب البريد ، والقاضي . واقتصر عمل الوالى على الصلاة
وقيادة الجند .

اهتم الخليفة العباسي في هذا العصر بأن يختار عمّال الأقاليم
بنفسه لإدارة شئونها . بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم
تكن خالصة من كل قيد ، فلم يترك العامل في ولايته زمنا
طويلا . واذا عزل عن منصبه طلب منه أن يقدم بيانا مفصّلا
عن شئونه ولايته . وكان أقل شك في صدقه كافياً لمصادرة أملاكه
جميعها ^١ . وفي أيام المنصور والمهدى ، لم تكن مهمة الولاية
أكثر من وظيفة صورية . واهتم المهدى باختيار ولاته ، ولم
يترك الوزراء يستبدون بتعيين الولاة ، فقد رأينا كيف استشار
الوزير يعقوب بن داود المهدى في اختيار اسحاق بن الفضل
لولاية مصر ، ورفض المهدى هذا الاختيار . وكان الخلفاء
العباسيون يولون أولادهم حكم الولايات الهامة ، فقد ولى
المنصور ولى عهده المهدى حكم خراسان ، وولّى الخليفة
المهدى ولى عهده الهادى حكم جرجان ، وولى ابنه الثانى
هارون الرشيد حكم البصرة ثم مصر .

وكانت الدولة العباسية في عهد المهدى تنقسم سياسيًا الى
عدة ولايات هى : (١) الكوفة والسواد . (٢) البصرة واقليم

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٠٣

دجلة والبحرين وعمان . (٣) الحجاز واليمامة . (٤) اليمن .
(٥) الأهواز ويشمل : خوزستان وسجستان . (٦) فارس .
(٧) خراسان . (٨) الموصل . (٩) الجزيرة . (١٠) أرمينية
وأذربيجان . (١١) سورية . (١٢) فلسطين . (١٣) مصر وأفريقية
(١٤) السند .

وقد جرت العادة أن يولى الخلفاء العباسيون الولايات
الاسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسى وأكابر القواد ،
وخاصة خراسان ومصر .

وقد ظل نظام الحكم فى الدولة العباسية كما وضعه المنصور
الى عهد الرشيد ، على الرغم من أن أصحاب الدواوين وأبناء
البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة
فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة
بإدارة الدولة . ولكن ظهر بتوالى الأيام أن هذه الأعباء كانت
مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد ، ومن ثم أصبح من
الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير فى الاشراف على
الدواوين المختلفة وإدارة شئونها^١ .

تحدث السيد أمير على عن الإدارة فى الدولة العباسية
فقال : أما الإدارة فكانت قائمة على قواعد محدودة مماثلة للنظم
الحديثة فى الأمم المتحضرة . فكانت كل مناصب الدولة ، كما

(١) المصدر السابق .

كان الحال في الدولة العثمانية ، مفتوحة أمام كل من المسلمين واليهود والنصارى على السواء^(١) .

وكان النظام الإدارى في عصر المهدي من حيث توزيعه العمل ، يعادل خير النظم الحديثة . وهذه هى أهم دواوين الدولة التى كانت تشبه الوزارات في العهد الحاضر : ديوان الخراج ، وديوان الدية ، وديوان الزمام ، وديوان الجند ، وديوان الموالى والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده) ، وديوان البريد ، وديوان زمام النفقات ، وديوان الرسائل ، وكانت مهمة صاحبه اذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان النظر في المظالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، وديوان الحوائج ، وديوان الأحشام ، وديوان المنح أو المقاضاة ، وديوان الأكره وكان يشرف على الترع والجسور وشئون الرى .

أنشأ الخليفة المهدي ديوانا جديدا ، هو ديوان الأزمة أو الزمام ، ويشبه ديوان المحاسبة اليوم ، وأصبح من أهم دواوين الدولة . وكانت مهمة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق وهى أغنى أقاليم الدولة العباسية ، وتقديم حساب للضرائب فى الأقاليم الأخرى . ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن ، التى كانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان ، فيتخذ دواوين الأزمة ويولى على كل منها رجلا .

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى .

ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل فى شئون الجماعات الا بمقدار ، بل كانت كل بلدة أو قرية تدير شئونها الخاصة بنفسها ، ولا تتدخل الحكومة الا فى حالة نشوب الفتن أو الامتناع عن دفع الضرائب ، غير أنها — مع ذلك — كانت تقوم بالرقابة الفعلية على جميع الشئون التى تتصل بالزراعة والرى من بناء القنوات وترميمها ^١ .

اهتم الخليفة المهدي بالبريد ، وقد رأينا كيف أقام محطات البريد بين بلاد اليمن وبلاد الحجاز وبلاد العراق ، فمهد الطرق بين هذه البلاد ، وأنشأ المنازل ، وأمدّها بالمياه . وتحدث المؤرخ (فون كريم) عن نظام البريد فى الدولة العباسية ، فقال : كان على رأس كل مصلحة فى الولايات الاسلامية عامل بريد ، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة والاشراف على أعمال الولاية ، كما كان بعارة أخرى ، مندوباً أولته الحكومة المركزية ثقتها .

أولى المهدي الجيش العباسي اهتمامه ، فأصبح يضم مئات الألوف من الجند من مختلف أجناس الدولة ، وقام الجيش فى عهد المهدي بأعمال حربية كبيرة ، فقد بعث بجيش كثيف بقيادة ابنه هارون الرشيد لغزو بلاد الروم ، ووفر له الامدادات والتموين . وكان هجوم الجيش العباسي مستمرا على الأراضى الرومانية ، صيفا وشتاء . وأثبت جيش المهدي كفاءته فى قتاله

(١) النظم الاسلامية ص ١٢٢

للروم ، وانتصر انتصارات رائعة . كما بعث المهدي بجيش كبير لغزو بلاد الهند بطريق البحر . كما كان الجيش العباسي مستعدا دائما للقضاء على ما يقوم من فتن أو ثورات يقوم بها أعداء الدولة العباسية ، وخاصة الحزب العلوي . ونجح المهدي فعلا في اخماد بعض الثورات الصغيرة التي قامت في عهده ، كما نجح في القضاء على جيش المقنع والزنادقة .

وكان تقسيم الجند تابعا لجنسية أفرادهم ، فمنهم الحربية ، وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح وهم من جند العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين . وكان الجيش الأموي يعتمد على الجند العربي ، حتى اذا قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، أصبحت العناصر الفارسية تمثل غالبية الجيش العباسي . ولم يكن اعتماد الخلفاء على الفرس راجعا الى مساعدة هؤلاء لهم في اقامة دولتهم ، بل كان راجعا أيضا الى العصبية التي كانت متفشية بين الجنود العرب ، فقد انقسموا الى عرب عينية وعرب مضرية ، وكانت هذه العصبية من عوامل اخفاق الجيش الأموي أمام الجيش العباسي بقيادة أبي مسلم الخراساني مما أدى الى سقوط الدولة الأموية . ولذا فكر الخليفة المنصور في انشاء الكرخ في جنوب بغداد ، ليقوم فيها الجند العرب ، وليصبح بعيدا عن الصراع الناشب بينهم . كما أقام المنصور مدينة الرضافة ليقوم فيها ابنه المهدي وجيشه بعد عودتهم من خراسان بعد اخماد الثورات التي قامت هناك .

وقد اهتم كل من المنصور والمهدى باستعراض الجيش في
المناسبات .

اهتم الخليفة المهدى بشئون الضرائب ، وعمل على تخفيف
أعباء رعاياه . فقد رأيناه يغيّر نظام الخراج الذي اتبعه
أبو العباس والمنصور ، وأمر باتباع نظام المقاسمة ، وهو نظام
عادل أبدى الناس ارتياحهم له ، كما وضع وزير المهدى يعقوب
ابن داود أول كتاب عن الخراج ، وسار خلفاؤه على نهجه ،
فوضع أبو يوسف بعد ذلك كتابه المشهور عن الخراج .

ونال القضاء اهتمام المهدى ، فقد كان حريصا على تحقيق
العدل . وكان أول الخلفاء الذين يجلسون للنظر في المظالم ، وقد
شهدنا عند حديثنا عن المهدى (الخليفة العادل المصلح) صورا
كثيرة لعدله وحرصه على مصالح رعاياه . فقد أطلق سراح
المسجونين السياسيين الذين سجنهم المنصور ، ورد اليهم
أموالهم المصادرة . وكان يسمح للناس بالدخول عليه وعرض
مظالمهم ، ولو كانت الشكوى منه شخصا . ويقول ابن طباطبا
عن المهدى : « وكان يجلس في كل وقت لرد المظالم . روى عنه
أنه كان اذا جلس للمظالم قال : أدخلوا علىّ القضاء ، فلو لم
يكن ردى للمظالم الا للحياء منهم لكفى » .

تدعيم الدولة العباسية

دعائم الدولة العباسية :

بدأت الدعوة العباسية في سنة ١٠٠ هـ في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، وأكمل العباسيون — باعتبارهم من الأسرة الهاشمية ، أسرة الرسول — ما بدأه العلويون ، وهم الفرع الآخر من البيت الهاشمي . فقد حاول العلويون مرارا القضاء على الدولة الأموية ، واقامة خلافة هاشمية علوية ، ولكنهم أخفقوا في هذه المحاولات طوال العصر الأموي ..

ولا شك أن العلويين يعدون مسئولين عن الهزائم التي لحقت بهم ، فقد انقسموا الى عدة فرق ، وادّعت كل فرقة منهم الامامة لأحد أبنائها ، وشغلوا بالجدال والنقاش ، في وقت كانت الدعوة العباسية تمتاز بالوحدة والقوة . مما هيا لهم الاقتصار . وكان بنو العباس أكثر دهاء ، فأعدوا وسائل نجاحهم في أقاصي البلاد ، وحرصوا على استغلال تنازل العلويين لهم الى أقصى حد ، وحرصوا على كتمان أمرهم ، وهو ما كان ينقص العلويين والأمويين .

ونادى العباسيون بعزمهم على تحسين أوضاع الموالي ومساواتهم بالعرب ، وإشراكهم في الأمر متخذين ذلك أساسا لبرنامجهم الاجتماعي . ووعدوا بالعدل واتخاذ السنة والكتاب

دستورا ، وبذلوا الجهود في جمع كل العناصر المتذمرة ، وبعثوا
الوعى العام عند الفرس ، وقووا فيهم روح التوثب والسيادة ،
بل روح احياء المجد القديم المفقود ، وعملوا على أن يخلقوا
جواً من التعاون والتفاهم بين العرب والفرس على أساس
اسلامى ، وتحقيق التعاون بين الدين والسياسة . والقضاء على
العصية القبلية ، متعطين في ذلك بالمشكلات التى أضعفت
الأمويين .

وهكذا كان العباسيون أوسع أفقاً من أبناء عموماتهم
العلويين ، فوضعوا برنامجاً دينياً وسياسياً واجتماعياً يسيرون
بمقتضاه في حكمهم ، بينما اكتفى العلويون بالدعوة الى أنفسهم
اعتماداً على حب المسلمين للرسول ولعلى بن أبى طالب وأولاده .
ولذلك كتب الله للعباسيين النصر فيما أخفق فيه أبناء عموماتهم
من العلويين وشيعتهم^١ .

تولى الدعوة العباسية في آخر مراحلها ، فترة النضوج
والاكتمال ، الأخوان أبو العباس وأبو جعفر المنصور . وكان
أبوهما محمد أول من بدأ الدعوة العباسية في أواخر العصر
الأموى حتى وافته المنية سنة ١٢٥ هـ . وكان قد أوصى بالامامة
من بعده لابنه ابراهيم ، وقد بدأ ابراهيم مرحلة جديدة من
الجهاد . ولما قبض على ابراهيم وحبس في حرّان ثم قتل ، انتقلت
أسرته الى الكوفة (صفر ١٣٢ هـ) ، وهناك اختفوا عن الأنظار

(١) انظر كتابنا (تاريخ العراق في ظل الحكم الأموى) وكتابنا (الدولة العربية
الاسلامية) تجد كثيرا من التفاصيل .

فترة ، ولكن سرعان ما التف حولهم أنصارهم وطلبوا منهم الجهر بالدعوة العباسية ، وبايعوا أبا العباس بالخلافة ، وذلك في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ . وكان مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين لا يزال على قيد الحياة ، وما لبث أن قُتل مروان في ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ ومنذ ذلك اليوم بدأت خلافة أبي العباس الحقيقية ، وظل خليفة الى أن توفي بمدينة الأنبار في ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ .

ثم خلفه أخوه المنصور ، وهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، فقد وضع أسس الحكم العباسي ، وشاركه ابنه وولي عهده المهدي جهاده وكفاحه . فقد رأينا المنصور يعهد الى المهدي بالكثير من مهام الدولة ، كما جعله في مقدمة الجيش الذي وجهه الى خراسان لاختماد بعض الثورات التي قامت هناك ، ثم ولاه حكم هذه البلاد ، وكان المهدي ينوب عن المنصور في الحكم عند تغيبه عن بغداد ، سواء عند خروجه لاختماد ثورات العلويين في البصرة ، أو للحج .

وعمل المنصور على أن يعدّ المهدي ليتولى الخلافة بعده ، فاهتم بتربيته وتعليمه وتثقيفه ، ورسم له طريق النجاح ، ونصحه وأرشده . كما مهد المنصور الطريق له ، فأخمد ثورات الحزب العلوي ، وتخلص من أبي مسلم الخراساني ، وأرغم عيسى بن موسى على أن يسمح للمهدي بأن يتقدمه في ولاية العهد ، وبني مدينة بغداد التي أصبحت قلب العالم النابض ، وملاؤه بيوت الأموال ، وأضعف شوكة الزنادقة .

ورث المهدي عن أبيه دولة عظمى ، تتمتع بالرخاء وبالحضارة الزاهرة ، يسودها الأمن والهدوء والاستقرار ، ويحكمها رجالات اشتهروا بالعدل والكفاءة . فكان على المهدي أن يمضي في نفس الطريق الذي عبّده أبوه له ، ويتم رسالته ، ويدعم أسس الدولة العباسية ، وكان المهدي خير خلف لخير سلف ، جديرا بأن يكون ثالث الخلفاء العباسيين .

وجنى هارون الرشيد ثمار ما غرسه أبوه المهدي . وإن كانت المصادر التاريخية تشيد دائما بالدولة العباسية في عهد الرشيد ، وتبرز جوانب عظمتها في عصره ، إلا أن ذلك البناء الضخم كان على الأسس التي وضعها المنصور ثم المهدي ، فقد كانت جهود المهدي واصلاحاته وعدله هي التي دفعت بالدولة العباسية الى ذروة المجد في عهد الرشيد .

اخمد ثورة أموية في بلاد الشام :

قامت ثورة في بلاد الشام في عصر المهدي في سنة ١٦١ هـ ، تزعمها عبد الله بن مروان بن محمد ، الذي تزعم البيت الأموي بعد مصرع أبيه مروان آخر الخلفاء الأمويين .

ولم تكن هذه الثورة ثورة شخصية ، قام بها ثائر عادي ضد الخليفة ، بل كانت حلقة في سلسلة صراع طويل بين البيت الهاشمي والبيت الأموي . وقد بدأ الصراع بين فرعي قريش في العصر الجاهلي . فقد تنافس الهاشميون والأمويون حول السيادة في مكة ، وزعامة قريش ، والاشراف على الكعبة . وكان الأمويون

أكثر مالا ، ولكن الهاشميين كانوا أكثر جاها وعزة وموضع
احترام العرب جميعا . تنازع عبد المطلب زعيم الهاشميين وأمية
ابن عبد شمس زعيم الأمويين حول الزعامة في مكة ، واحتكما
الى بعض العرب ، فحكموا لعبد المطلب ، فخرج أمية منسحبا
من الميدان ، ورحل الى بلاد الشام ، وارتبطت منذ ذلك الحين
بلاد الشام بالأسرة الأموية^١ .

ثم ظهر الاسلام ، ونزلت الرسالة السماوية على محمد
الهاشمي ، فازداد بنو هاشم مجدا وعزة ، وحمل الأمويون لواء
المعارضة للدعوة الاسلامية والرسول . وكان التنافس بين عثمان
وعلى حول الخلافة بعد مصرع عمر ، في الحقيقة تنافسا بين
الأمويين والهاشميين . واستمر هذا التنافس واضحا في الصراع
بين على ومعاوية . ثم قامت الدولة الأموية ، وبدأ الهاشميون
يناهضون الحكم الأموي ، وقاد العلويون لواء المعارضة
الهاشمية ، فكانت ثورات الحسين بن على ، ثم زيد بن على ، ثم
عبد الله بن معاوية بن جعفر . ثم ركن العلويون الى الهدوء بعد
تكرار اخفاقهم ، وتتبع الأمويون زعمائهم بالتنكيل . وحمل
العباسيون اللواء ، ودعوا الى تولية (الرضا من آل محمد)
دون تحديد اختياره من العلويين أو العباسيين .

ونجح العباسيون في القضاء على الدولة الأموية ، وبدأت
الخلافة العباسية ، واتخذت بلاد العراق مركزا لخلافتهم ، فقد

(١) انظر كتابنا (عبد المطلب جد الرسول) تجد كثيرا من التفاصيل .

أدركوا أن بلاد الشام لم تعد تصلح لتكون مقرا للخلافة ، فقد اعتادت طاعة الأمويين ولا ترضى عنهم بديلا ، بينما كانت بلاد العراق موطن الفرس ، وهم عماد الدولة العباسية .

شعر أهل الشام بالألم والحسرة لسقوط الدولة الأموية ، وهم يعتبرونها دولتهم ، وأدركوا أن في انتقال العاصمة من دمشق الى بغداد ، نهاية عصر ذهبي شهدوه ونعموا به ، فتصبح بلاد الشام ولاية عادية مثلها في ذلك مثل سائر ولايات الدولة العباسية .

وأبدى أهل الشام ألمهم لما نال الأسرة الأموية من تنكيل وقتل وتعذيب ، فقد قتل أبو العباس ثلاثمائة من بنى أمية وصلب جثثهم ، كما قتل عددا كبيرا من أنصارهم ومواليهم ، وصادر أموالهم . كما تألم أهل الشام حينما شاهدوا العباسيين ينبشون قبور الخلفاء الأمويين في دمشق ، ويضربون جثثهم بالسياط . كما أمر العباسيون بلعن الخلفاء الأمويين على المنابر . مما أدى الى اشتعال نيران الغضب والثورة في نفوس أهل الشام .

وكنتم أهل الشام ثورتهم الكامنة في نفوسهم ، طوال خلافة أبي العباس وأبي جعفر المنصور ، فقد كانت فترة شدة وقمع . حتى اذا بدأت خلافة المهدي ، ظهرت هذه الروح الثورية . فقد تميز عهد المهدي بالهدوء واللين والتسامح ، مما شجّع أهل الشام على الجهر بما كتموه طوال خلافة الخليفين الأولين .

وتزعم ثورة أهل الشام في عهد المهدي عبد الله بن مروان ، وهو ابن آخر الخلفاء الأمويين . فقد أراد أن يأخذ بثأر أبيه

الذى قتله القائد العباسى أبو مسلم الخراسانى ، وبثأر قتلى البيت الأموى ، ونحن نعرف مدى اهتمام العرب بالأخذ بثأرهم . ولذا نعتبر هذه الثورة الأموية موجهة ضد الدولة العباسية ، وليست موجهة ضد شخص المهدي . ومن الانصاف للخليفة المهدي ، ما يجعلنا نقول انه لم يقدم على ما يسىء الى البيت الأموى ، ولم يرتكب ما ارتكبه أبوه وعمه من قتل وتنكيل ، أو ما قام به خلفاؤه ، الهادي والرشيد والمأمون ، وغيرهم . بل ان المهدي — كما سئرى — قد عفا عن عبد الله ابن مروان رغم قيامه بالثورة ضده ، وأغدق عليه الأموال والأرزاق .

كان عبد الله بن مروان حين قُتل أبوه حدثا صغيرا ، ولذا نجا من القتل . حتى كانت سنة ١٦١ هـ ، فقام بالثورة في بلاد الشام ضد الدولة العباسية ، وأعلن أنه يريد الثأر لأبيه ولبنى أمية ، واحياء الدولة الأموية . وقد شجعه على الثورة ، ما شاهده من نجاح أحد أبناء البيت الأموى ، وهو عبد الرحمن الداخل ، في انشاء دولة أموية في بلاد الأندلس ، أصبحت منافسة خطيرة للدولة العباسية . كما شجعه انتشار روح الثورة والحنق في نفوس أهل الشام ، وظن أنهم يهبون للثورة اذا دعاهم اليها .

وبعث الخليفة المهدي بجيش بقيادة نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي ، نجح في اخماد الثورة والقبض على زعيمها عبد الله بن مروان ، وحمله الى الخليفة المهدي في بغداد .

مثل عبد الله بن مروان في حضرة المهدي . وصوّر المؤرخ الطبري^١ لقاء الرجلين ، فقال : « ان المهدي أتى بعبد الله بن مروان بن محمد ، وكان يكنى أبا الحكم ، فجلس المهدي مجلسا عاما في الرصافة ، فقال : من يعرف هذا ؟ فقام عبد العزيز بن مسلم العقيلي فصار معه قائما ، ثم قال له : أبو الحكم ؟ قال : نعم ابن أمير المؤمنين . قال : كيف كنت بعدى ؟ ثم التفت الى المهدي فقال : نعم يا أمير المؤمنين هذا عبد الله بن مروان . فعجب الناس من جرأته ، ولم يعرض له المهدي بشيء » .

وأراد أحد رجال المهدي أن يرضيه وأن يوجد للخليفة مبررا لقتل عبد الله بن مروان . فتقدم عمرو بن سهلة الأشعري الى الخليفة زاعما أن عبد الله بن مروان قد قتل أباه . ولكن المهدي كان عادلا ، فعهد الى أحد قضاة ، وهو عافية القاضي ، بالتحقق من ذلك الاتهام ، وما لبث أن تقدم عبد العزيز بن مسلم العقيلي الى القاضي واعترف بأنه هو الذي قتل هذا الأب ، وبذلك أعلن القاضي براءة عبد الله بن مروان من الاتهام .

وما لبث المهدي أن عفا عن عبد الله بن مروان ، فقد كان من طباعه التسامح والعفو ، ثم أدرّ عليه الأرزاق والصلوات . وكسب المهدي بذلك إعجاب أهل الشام ، فقد قابل الاساءة بالاحسان . كما أن المهدي لم يعاقب أهل الشام لانضمامهم الى هذا الثائر ، بل عمل على الاحسان اليهم ، فكان يختار لحكم

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٦٨

الشام أكثر ولاته عدلا وكفاءة ، واهتم بالقيام بالاصلاحات في هذه البلاد . وقام المهدي برحلة طويلة الى بلاد الشام ، فزار حلب ودمشق وبيت المقدس ، وصلى بالمسلمين في مساجدها ، وشهدت بلاد الشام صورا كثيرة من بذخه وسخائه ، فسكنت الخواطر ، وهدأت النفوس ، واختفت روح الثورة في بلاد الشام طوال عهده .

ثورات صغيرة :

قامت في عهد المهدي ثورات صغيرة ، لم تكن لها أهمية كبرى ، ولم تؤد الى نتائج وخيمة ، ونجح المهدي في القضاء عليها ، وأبدى شجاعة وثباتا وتسامحا .

ففي سنة ١٦٢ هـ ثار عبد السلام بن هاشم اليشكري في اقليم الجزيرة ، وكثر أتباعه واشتدت شوكته ، وبعث المهدي عدة جيوش أخفقت في القضاء على هذه الثورة ، وتولى قيادة هذه الجيوش على التوالي عيسى بن موسى وشيب بن واج المروودي . ثم أمدَّ المهدي قائده شيباً بألف فارس ، ومنح كل فارس ألف درهم ليشجعهم على القتال ، ونجح شيب في إلحاق الهزيمة بعبد السلام ، الذي هرب الى قنسرين ، ولحقه شيب الى هناك حيث قتله ١ .

ثم قامت ثورة أخرى في مدينة الموصل ، ولكنها كانت ثورة

محدودة ، قام بها رجل من بنى تميم يدعى (ياسين) فاستولى على معظم ديار ربيعة ومضر . وهذه الثورة ليست موجهة نحو الخليفة المهدي ، ولكنها نتيجة العصبية القبلية بين العناصر العربية المختلفة ، وتحقيقا لأطماع شخصية ، ولذا يمكننا أن نصفها بأنها (فتنة) أو (شغب) أكثر مما هي (ثورة) . وقد بعث المهدي بجيش قضى على هذه الفتنة في يسر وسهولة .

كما قامت ثورة ثالثة في مصر ، حيث قامت محاولة أموية للثورة ضد الخلافة العباسية ، وتزعم هذه الثورة دحية بن مصعب بن الأصبع بن عبد العزيز بن مروان .

وكان عبد العزيز بن مروان بن الحكم من أشهر الولاة الأمويين الذين تولوا حكم مصر ، وقد نجح في الفوز بحب المصريين وتقديرهم له ، وترتبط مدينة حلوان بشخصية هذا الوالي ، ولذا التف كثير من أهالي مصر حول هذا الثائر الأموي حفيد عبد العزيز بن مروان .

أعلن دحية ثورته في صعيد مصر ، ونجح في السيطرة على جميع مدنه ، وأخفق الوالي العباسي إبراهيم بن صالح في اخماد هذه الثورة . فعزله الخليفة المهدي ، وولى بدله واليا ثانيا ثم ثالثا . ولم ينجح هؤلاء الولاة في القضاء على ثورة دحية الذي عمل على اقامة دولة أموية في مصر ، مثلما نجح عبد الرحمن الداخل في انشاء دولة أموية في الأندلس .

كثر أتباع دحية في صعيد مصر ، وبعث اليه أهل الفسطاط يدعونه للقدوم الى مدينتهم . ورأى المهدي أن يختار أحد أبناء

الأسرة العباسية ، ليكون أكثر اهتماما باخماد هذه الثورة ، فولّى الفضل بن صالح بن علي العباسي حكم مصر في آخر المحرم سنة ١٦٩ هـ ، وأمره باخماد هذه الثورة ، واشتبك الفضل مع دحية في معارك عنيفة استمرت عدة شهور حتى نجح في اخماد هذه الثورة ، وقتل دحية وصلب جثته .

وكان القضاء على دحية الأموي هو نهاية لأول المحاولات العلنية وآخرها من جانب الأمويين في مصر لاسترداد الخلافة . على أنهم بعد ذلك كانوا ينضمون أحيانا الى الثائرين على الخلافة العباسية من العلويين ، وذلك رغبة في الكيد للدولة العباسية^١ .

موقف المهدي من الحزب العلوي :

كان العلويون يرون أن علي بن أبي طالب وأولاده من بعده هم أحق المسلمين بالخلافة بعد الرسول ، وتشيع كثير من المسلمين لهم ، فظهر الحزب الشيعي بعد وفاة الرسول مباشرة ، وتطورت مبادئ الشيعة السياسية والدينية تطورا كبيرا سريعا ، فأصبحوا ينادون بأن الامامة ليست من الأمور التي تفوض الى الأمة الاسلامية ، بل ان تولّى الأئمة هو بالتعيين والنص . وقد نص الرسول على تولية علي بن أبي طالب بعده يوم غدير خم^٢ ، ثم أصبح الأئمة العلويون يتولون واحدا بعد

(١) سيدة كاشف : مصر في عصر الولاة ص ٨٧

آخر بناء على وصية كل واحد منهم خلفه . واعتبرت الشيعة
أئمتهم معصومين عن الأخطاء ، ورفعوهم فوق مصاف البشر .
وكافح العلويون كثيرا من أجل الوصول الى الخلافة ،
واتزاعها من الخلفاء الأمويين (٤٠ هـ - ١٣٢ هـ) . وناهضهم
الأمويون وتبعوهم بالقتل والتنكيل ، حتى لجأوا الى الكتمان
والتقية ، وركنوا في أواخر العصر الأموي الى الهدوء
والاشتغال بالتجارة أو الانصراف الى الدين ، بدلا من الاشتغال
بالسياسة والحرب . وتولى أبناء عموماتهم العباسيون الكفاح
والنضال ، ونجحوا في القضاء على الدولة الأموية ، وأقاموا
الدولة العباسية .

وشعر العلويون أن العباسيين قد خدعوهم حين كانوا
ينادون بتولية (الرضا من آل محمد) دون تحديد ، اذ انقرد
العباسيون بالخلافة دولتهم ، وبدأ العلويون يناضلون الخلفاء
العباسيين كما كانوا يناهضون الخلفاء الأمويين بالأمس .
واضطر الخلفاء العباسيون الى الدفاع عن أنفسهم وعن دولتهم ،
وبدأت مرحلة جديدة من العداء بين العباسيين والعلويين .

بدأت ثورات العلويين في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ،
بثورة محمد بن عبد الله ، حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب ،
والذي اشتهر باسم محمد النفس الزكية ، في بلاد الحجاز ، كما
ثار أخوه ابراهيم في البصرة بالعراق .

والحقيقة أن الخلفاء العباسيين قد حرصوا على ارضاء
العلويين وتسكين خواطرهم ، فكانوا يقربونهم اليهم ، ويغدقون

عليهم الأموال والصلوات . وأراد العباسيون أن يعود التعاون بين العباسيين والعلويين ، اذ يجمعهم البيت الهاشمي ، لمواجهة الأمويين الذين أنشأوا دولة أموية في الأندلس ، وأخذوا يترقبون الفرص للثورة والقضاء على الدولة العباسية الهاشمية .

كان محمد النفس الزكية يرى أنه أحق بالخلافة من أبي العباس والمنصور ، ولذا أخذ البيعة لنفسه بالخلافة من بني هاشم ، وتحدث ابن طباطبا^١ عن بيعة النفس الزكية فقال : « كان بنو هاشم ، الطالبيون والعباسيون ، قد اجتمعوا في ذيل دولة بني أمية ، وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل اليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وميل الناس اليهم ومحبتهم لأن تكون لهم دعوة ، واتفقوا على أن يدعوا الناس سرّاً ، ثم قالوا : لا بد لنا من رئيس نبايعه . فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية » .

ولذا امتنع النفس الزكية عن البيعة لأبي العباس والمنصور بالخلافة . ورأى المنصور حين تولى الخلافة ، أن يتخلص من محمد وأخيه إبراهيم ، فقد أصبحا منافسين خطيرين له . واختفى محمد عن الأنظار ، وتنقل بين المدينة وعدن والسند والكوفة ، ثم استقر في المدينة . وأخذ المنصور ينكل بأسرة النفس الزكية ليرغمه على الظهور من مخبئه . وفي سنة ١٤٥ هـ ظهر محمد ، وبإيعه أهل الحجاز بالخلافة ، وتلقب بأمير المؤمنين ، وبعث أخاه

(١) الفخرى ص ١٤٦

ابراهيم ليأخذ البيعة له من أهالى البصرة ، ونجح ابراهيم في الاستيلاء على دار الامارة وهزم قوات الخليفة المنصور ، وانضم اليه الامام أبو حنيفة .

وكان المنصور قد بدأ فى بناء مدينة بغداد ، فتوقف عن اكمال البناء ليتفرغ للقضاء على ثورة الأخوين العلويين الثائرين . وبدأ المنصور بالطريق السلمى ، فحاول اقناع محمد أن يكف عن ثورته ، ولكن محمدا بعث برسالة الى المنصور أعلن فيها أنه انما يثور للمطالبة بحقه الذى سلبه الخلفاء العباسيون ، وجاء فى هذه الرسالة : « فان الحق حقنا ، وانما ادعيتهم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وان أبانا عليًا كان الوصى وكان الامام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا » . وتبادل المنصور والنفس الزكية الرسائل ، وتساءل المنصور : من هم أصحاب الحق فى ميراث الرسول ، نسل العباس بن عبد المطلب عم الرسول ، أم نسل على بن أبى طالب ابن عم الرسول ؟ . فكان مما قال المنصور فى رسالته : « ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره — أى العباس — فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر — يقصد الخلافة — غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله الا ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا اسلام ، فى دنيا ولا آخرة ، الا والعباس وارثه ومورثه » .

هذا هو رأى كل من العلويين والعباسيين فى الآخرين ، وهذه
هى القضية بينهما ، والخلافة هى محور القضية . وسكت اللسان ،
ليتكلم السيف . وبعث المنصور بجيش كثيف تولى قيادته
ولى عهده عيسى بن موسى . وأراد المنصور أن يضرب عصفورين
بحجر واحد ، فان قُتل عيسى ، فقد تخلص منه ومهد الطريق
أمام ابنه المهدي ليصبح ولى عهده ، وان نجح عيسى فى مهمته ،
فقد تخلص المنصور من التأثيرين العلويين . فقد قال المنصور
عند انقضاءه عيسى لقتال النفس الزكية : لا أبالى أيهما قتل
صاحبه ! . ونجح المنصور فى القضاء على هذه الثورة العلوية
الخطيرة .

ضعف شأن الحزب العلوى فى عصر الخليفة المهدي فقد
وجه المنصور اليه ضربة عنيفة ، اذ قتل أبرز زعمائه ، النفس
الزكية وأخاه ابراهيم ، فانكمش العلويون ، وأخذوا يضمّدون
جراحهم ، ويقضون فترة هدوء ، يستعدّون فيها لمعركة قادمة ،
فهم لا يتنازلون عن حقهم فى الخلافة . وقد تلقى الحزب العلوى
ضربات قوية فى العصر الأموى ، ولكن العلويين استثمروا فى
مناهضة الخلفاء الأمويين ، فتعددت ثوراتهم ، واعتمدوا على
اعتناق كثير من الفرس المسلمين مبادئ الشيعة ، وحبهم لآل
الرسول ، ولأولاد على بن أبى طالب . وخاصة بعد زواج
الحسين بن على من ابنة يزدجرد الثالث آخره أكاسرة الفرس .

وجنى المهدي ثمار جهود أبيه المنصور ، فلم تقم للحزب
العلوى فى عهده قائمة ، واضطر العلويون الى الاستكانة

والركون الى الهدوء . ولجأ المهدي الى سلاحين يتقى بهما
أخطار العلويين ، فقد أغدق عليهم الصلات والأموال ، كما
استدعى اليه بعض زعماء العلويين ليقيموا في بغداد ، ووفّر
لهم أسباب الحياة الرغدة ، حتى يكونوا تحت ناظريه ، أما من
أراد من العلويين الإقامة في المدينة المنورة ، فقد كلف المهدي
ولاياته في المدينة بمراقبة حركاتهم ، وأمر هؤلاء الولاة بأن
يحسنوا معاملتهم .

ركن العلويون الى الهدوء طوال خلافة المهدي ، ثم عادوا
الى الثورة في عهد ابنه الخليفة الهادي ، فقد ثاروا في مكة
والمدينة بزعامة الحسين بن علي حفيد الحسن بن علي بن
أبي طالب ، في سنة ١٦٩ هـ ، وهي السنة التي مات فيها المهدي .
واضطر الهادي الى مواجهة هذه الثورة بقواته الحربية ، ونجح
في القضاء على الثورة ، وقتل زعيمها . ومن واجبتنا أن نُنصف
الخلفاء العباسيين فنقول انهم كانوا يقاتلون العلويين وهم
كارهون لذلك ، فقد كانوا يدافعون عن خلافتهم . وحدث أن
أبدى رجال الخليفة الهادي سرورهم حين حملوا رأس الحسين
ابن علي الى الهادي ، فزجرهم وبكى وقال : أتيتموني
مستبشرين ، كأنكم أتيتموني برأس رجل من الترك أو الديلم ،
انه رأس رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا ان
أقل جزائكم عندي أن لا أثيبكم شيئاً ١ .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣٦

وكان عداء الحزب العلوى للعباسيين دافعا للمهدى الى عزل وزير من أكفأ وزرائه ، وهو يعقوب بن داود . فقد كان هذا الوزير مقرباً الى المهدى ، لعدله وكفاءته ، مما جعله موضع حسد وحقد باقى رجال الدولة ، فكادوا له ، واتهموه بالميل الى العلويين ، وأنه يعمل على تحويل الخلافة اليهم ، وخاصة الى الزعيم العلوى اسحاق بن الفضل . حتى اذا طلب يعقوب من المهدى أن يولى اسحاق حكم مصر ، تأكد من صدق السعيايات . ثم حدث أن أطلق يعقوب سراح أحد العلويين دون اذن الخليفة ، وكان المهدى قد أمره بقتله ، فأصبح شك المهدى يقينا ، فعزل الوزير .

المهدى يحفظ التوازن بين العرب والفرس :

يدعو الاسلام الى المساواة بين المسلمين جميعا ، عربهم وعجمهم ، فقد قال المولى عز وجل (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) . كما قال سبحانه وتعالى (انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم) . كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » .

ولكن خابت آمال الموالى الفرس بعد اعتناقهم الاسلام ، فلم يصبح لهم فى العهد الأموى من الحقوق ما للمسلمين العرب . وترفع العرب وتعصبوا على الفرس . ولم يكن هؤلاء الموالى من طبقات الفلاحين ، بل من الذين يعترف العرب أنفسهم بثقافتهم ، وكان فريق كبير منهم من أصل رفيع معروف .

وبجانب هؤلاء كان هناك آلاف الموالى يمثلون الأيدي العاملة في الدولة . وقد أبى العرب الاختلاط بالعناصر غير العربية ، وحافظوا على طابعهم العسكرى ، لتكون مهنتهم الحرب والسياسة ، واعتمدوا على الموالى في الصناعة والتجارة والحرف . ولا شك أن في ذلك كسبا للموالى ، فقد سيطروا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ودواوين الحكومة .

أغفلت الدولة الأموية وضع تنظيم العلاقات بين المسلمين العرب وشعوب البلاد التي فتحها المسلمون ، بل أدت سياسة الأمويين الى تعقيد الحياة القانونية والمسائل الدينية الداخلية^١ . وزاد المشكلة تعقيدا أن الأمصار المفتوحة عرفت الحركات الاجتماعية قبل الفتح الاسلامى^٢ . وكان الأمويون في حاجة الى الأموال الكثيرة ، فحادوا في أواخر العصر الأموى عن نظام عمر بن الخطاب الذى يعفى الداخلين فى الاسلام من دفع الجزية . وبجانب هذه الدوافع الاجتماعية والاقتصادية ، كانت هناك دوافع سياسية لثورات الموالى الفرس على الحكم الأموى . فقد ظهرت بينهم نزعة قومية تدفعهم الى احياء المجد الفارسى القديم^٣ .

أدّى التنافس بين العرب والفرس فى العصر الأموى الى ظهور الشعوبية التى بدأت تنادى بمساواة العرب بالموالى ، ثم

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٣٩

(٢) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٤٠

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل ج ٢ ص ١١٥

تطورت في العصر العباسي ، فصارت تنادي بأن الفرس أرفع درجة من العرب . فزعم الشعوبيون أن أخطب الناس الفرس ، وأن الفرس أكثر معرفة من العرب بأمور الحرب . وكان معظم العرب لا يحسنون الكتابة والحساب ، فاعتمدوا على الموالي في وظائف الدولة . ومن ثم شعر الموالي بأهميتهم وعلو شأنهم ، وأدركوا حاجة الدولة الأموية اليهم في الحرب ، كما شعروا بفضلتهم على الأدب والعلم والدين ، وعلى تقدم الزراعة والصناعة والنجارة ١ .

ولا شك أن هذا الشعور الذي اختلج في نفوس الموالي أدى بهم الى التفكير في الخروج على الخلافة الأموية ، فانضموا الى كل حزب وكل ثائر يعارض الأمويين ، مما أدى الى حرج الدولة الأموية ٢ .

حاول الدعاة العباسيون منذ سنة ١٠٠ هـ استمالة الشيعة والموالي الفرس الى جانبهم ، فأعلنوا أنهم لا يسعون الى الخلافة ، وانما يعملون على القضاء على الدولة الأموية ، وأخذوا البيعة للرضا من آل محمد . وعرف العباسيون كيف يغرون الموالي على الانضمام اليهم ، فاتخذوا حق بنى هاشم في الخلافة أساسا سياسيا ، ونادوا بتحسين أوضاع الموالي ومساواتهم بالعرب واشراكهم في الأمر متخذين ذلك جوهر برنامجهم الاجتماعي ، ووعدوا بالعدل واتخاذ الشئنة والكتاب دستورا .

(١) انظر كتابنا (تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي) ص ١٦٢

(٢) Nicholson : Lt. Hist. of the Arabs. P. 247.

وعملت الدعوة العباسية على جمع كل عناصر المتذمرين تحت لوائها ، وبعثت الوعي القومى عند الفرس ، وقوت فيهم روح التوثب والسيادة ، بل روح احياء المجد القديم المفقود^١ .

كانت معركة الزَّاب التى قامت بين الأمويين والخراسانيين فى جمادى الآخرة سنة ١٣١ هـ ، هى الفاصلة فى حياة الدولة الأموية ، واستعاد الموالى حريتهم وحقوقهم بعد أن فاز العباسيون بالخلافة ، وصار الفرس يلون المناصب الكبرى فى الدولة الجديدة^٢ . كما حلت محل العناصر العربية طبقة من الموظفين من كافة الأجناس التى دانت لسلطان الخلافة ، واختلط الموالى بالعرب ، وانتقل مركز العالم الاسلامى من الشام الى العراق^٣ .

أقام العباسيون بغداد لتكون حاضرة لخلافتهم ، وتحولوا عن دمشق عاصمة الأمويين ، فقد كان أهل الشام هم الجند المخلص لبنى أمية . كما أن دمشق بعيدة عن خراسان منبع الثورة ، ومصدر الدعوة ، وذخيرة العباسيين وعمادهم . كما أن دمشق منتحية ناحية الغرب وليست فى الوسط ، وقد أصبحت الدولة تمتد من الصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا . والعراق يحقق هذه الأغراض ، فبغداد قريبة من خراسان ، قريبة من

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٨٨ - ٨٩

(٢) الفخرى ص ١١٤ ، ومن ص ١٢٨ - ١٣١

Lammens : Etudes sur le Siecle des Omayyades, (٣)
P. 468.

الشرق ، بعيدة عن الروم ، كثيرة الخيرات ، صالحة لأن تكون نقطة اتصال بين الفرس والأمم السامية^١ .

ومن الحقائق التاريخية الثابتة ، أن الطابع الفارسي ظهر واضحا في العصر العباسي الأول ، واقتبس الخلفاء العباسيون كثيراً من نظم الفرس الحكومية ، وألوانا من حياتهم الاجتماعية ، واعتمدوا على العناصر الفارسية في حكم الدولة العباسية ، واحتفلوا بالأعياد الفارسية ، وكان هذا نتيجة حتمية طبيعية ، لأن العباسيين اعتمدوا على الفرس في القضاء على الدولة الأموية وإقامة الخلافة العباسية . ولكن الخلفاء العباسيين ، رغم تقريبتهم للفرس ، لم يهملوا العناصر العربية ، بل عملوا على حفظ التوازن بين الفرس والعرب .

كان الخلفاء العباسيون عربا هاشميين ، وكانوا يفخرون بذلك . وهم وإن حفظوا للفرس جميلهم فانهم لم ينسوا عربيتهم . وكان الخلفاء العباسيون إذا شعروا بطغيان الفرس على نفوذهم وضعوا حداً لاستبدادهم بل ونكلوا بهم . كما فعل أبو العباس بأبي سلمة الخلال ، والمنصور بأبي مسلم الخراساني ، والمهدي بيعقوب بن داود ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل .

حقاً كان للفرس في العصر العباسي الأول نفوذ كبير في الدولة ، ولكن ليس هذا معناه انعدام نفوذ العرب . وإن كانت

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ١٨٠

المناصب الكبرى في أيدي الفرس ، فقد كان الخليفة عربيا هاشميا ، وكان له قواده من العرب وولاته من العرب ، الى جانب القواد والولاة الفرس . ولذا يمكننا أن نقول ان الدولة العباسية جعلت كفة الفرس هي الراجحة ، ولكن الخلفاء العباسيين لم يهملوا العرب ، وعملوا على أن يمسكوا بميزان القوى في أيديهم .

واتبع الخليفة المهدي هذه السياسة الرشيدة ، فقد عمل على أن يحفظ التوازن بين العناصر العربية والعناصر الفارسية ، وسخر هذه العناصر كلها لخدمة الدولة العباسية وتدعيم أسسها . ولم يكن من حسن السياسة في العصر العباسي أن يعتمد الخليفة على العناصر العربية وحدها وإهمال الفرس تماما . فقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس والخراسانيين ، وكانت العناصر الفارسية تمثل حينئذ غالبية أهالي العراق . كما أن العصبية القبلية ، وعصبية العرب المضربين والعرب اليمنيين ، أدت الى ضعف العناصر العربية ، وكان العرب يميلون الى بنى أمية ويتمنون عودة دولتهم التي تعصبت للعنصر العربي . ولذا كان المهدي يسير الظروف ، ويتمشى مع تيار الأحداث السياسية وتطور الحياة الاجتماعية .

ولم يهمل الخليفة المهدي العناصر العربية ، فقد كان معظم ولاة الأمصار الاسلامية من العرب . كما أغدق صلاته على زعماء ووجوه العرب ، وخاصة من بنى هاشم . وقد رأيناه يرحل الى بلاد الحجاز قلب العروبة وقتئذ ، ويغدق الأموال

على أهلها ، حتى اذا عاد الى بغداد صحب معه خمسمائة من العرب الأنصار ليكونوا حرسا خاصا له . كما رحل المهدي الى بلاد الشام والتقى بزعمائها العرب ، وصلى بهم في مساجدهم ، وأجزل لهم العطاء .

ولا ننسى أن المهدي نشأ نشأة عربية ، من والدين عريين ، وكان أستاذه ورائده المفضل الضبي الذي أمدّه بالثقافة العربية الأصيلة ، ونشأ يجيد اللغة العربية ، وتميز بالبلاغة والفصاحة ، وقرب اليه العلماء والفقهاء والشعراء من العرب . ولم تذكر المصادر التاريخية أى نبأ عن تعصب المهدي ، سواء للعرب أو الفرس ، بل هى تشيد بعدله وتسامحه وميله الى المساواة ، وعفوه عن أعدائه .

المهدى والزنادقة

تميز العصر العباسى بظهور حركات خطيرة ، هى حركات الزنادقة ، التى ظهرت فى شكل سلسلة طويلة ذات حلقات متتالية مترابطة ، وكان من نصيب عصر المهدى حلقة من هذه الحلقات . وحركة الزنادقة تهدد الدين الاسلامى ، فهى تدعو الى آراء تخالف تعاليم الاسلام ، مما يحتّم على الخلفاء العباسيين وعلى عامة المسلمين محاربة الزنادقة دفاعاً عن الاسلام الحنيف . كما اعتبر الخلفاء العباسيون الزنادقة خارجين على طاعة الدولة ، وثواراً سياسيين ، فقد عملوا على احياء الدولة الفارسية المجوسية البائدة ، والقضاء على الدولة العباسية الاسلامية . ولما كان الزنادقة يحاربون الاسلام ، فانهم بالتالى لا يخضعون لدستور الاسلام وهو القرآن الكريم ، وهو دستور الدولة العباسية ومصدر قوانينها ونظمها وتقاليدها .

بدأت حركات الزنادقة فى العصر العباسى الأول فى عهد الخليفة الثانى أبى جعفر المنصور ، فظهرت حركة الراوندية ، ثم ظهرت حركة المقنعية فى عهد المهدى ، وتوالى حركات الزنادقة ، وكان أكثرها خطورة حركة الأفشين والمازيار فى عهد الخليفة المعتصم . وقد ارتبطت حركات الزنادقة بالعقائد المجوسية (الزرادشتية ، والمزدكية ، والمانوية) من جهة ،

وبالروح القومية الفارسية من جهة أخرى ، مما يجعلنا نبحث عن هذه الجذور والأصول .

المجوسية كأساس للزندقة :

اشتهر الفرس — والجنس الآرى عامة — بأنهم ميالون الى عبادة المظاهر الطبيعية ، فالسماء الصافية ، والضوء ، والنار ، والهواء ، والماء ينزل من السما ، جذبت أنظارهم ، وجعلتهم يعبدونها ، على أنها كائنات الهية ، وسموا الشمس « عين الله » ، والضوء « ابن الله » ، كما أن الظلمة والجذب ونحوهما كائنات الهية شريرة ملعونة ١ .

عبد الفرس أول أمرهم ما عبده قدماء الآريين من قوى الطبيعة ، وخاصة الشمس التى تبدو لهم ظاهرة فى السما ، وأسبغوا عليها صفات الألوهية ، واعتبروها أعظم الموجودات . ووقف الفرس أمام آلهة الخير يستمدون منها المعونة ، ويتوجهون اليها بالصلاة ، ويقدمون لها الضحايا ، ورأوا أن آلهة الخير فى نزاع دائم مع آلهة الشر ، وأعمال الانسان من صلاة ونحوها ، تعين آلهة الخير فى منازلها آلهة الشر ، واتخذوا النار رمزا للضوء ، وبعبارة أخرى رمزا لآلهة الخير ، يشعلونها فى معابدهم ، حتى تقوى على آلهة الشر وتنتصر عليها ، وكانت هذه النار منبعاً لخيال شعري خصب .

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٩٩

عرف الشهرستاني^١ المجوس فقال : « المجوس وأصحاب
الاثنين المانوية وسائر فرقهم المجوسية ، يقال لهم الدين الأكبر
والملة العظمى ، اذ كانت دعوة الأنبياء بعد ابراهيم الخليل عليه
السلام في العموم كالدعوة الخليلية ولم يثبت لها من القوة
والشوكة والملك والسيف مثل الملة الحنيفية ، اذ كانت ملوك
العجم كلها على ملة ابراهيم ، وجميع من كان في زمانه كل واحد
منهم من الرعايا في البلاد على أديان ملوكهم ، وكان لملوكهم
مرجع هو موبذ موبذان أعلم العلماء وأقدم الحكماء يصدر
عن أمره ولا يرجعون الا على رأيه ، ويعظمونه تعظيم السلاطين
لخلفاء الوقت . وكانت دعوة بنى اسرائيل أكثرها في بلاد الشام
وما وراءها من المغرب ، وقل ما سرى من ذلك الى بلاد
العجم » .

الزرادشتية والمانوية والمزدكية :

اعتمدت حركات الزنادقة في عهد المنصور والمهدي على
الديانات المجوسية القديمة ، وخاصة الزرادشتية ، والمانوية ،
والمزدكية ، فقد حاول الزنادقة بعث هذه الديانات الفارسية
القديمة البائدة ، التي تخالف تعاليم الاسلام ، ولذا قاومها كل
من المنصور والمهدي لحماية الدولة من هؤلاء الأعداء ، أعداء
الدين والدولة والمجتمع ، مما يجعلنا نستعرض أسسها في
إيجاز :

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٤٨

ظهر زرادشت — نبي الفرس — فدعا الى تعاليم جديدة أسست على الديانة القديمة بعد اصلاحها . وظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ومات نحو سنة ٥٨٣ ق.م. وجوهر مبادئ زرادشت ، أن في العالم حوادث كثيرة ، منها الخير ومنها الشر ، وهذه الحوادث لا توجد نفسها ، بل لا بد لها من أصل تستند عليه . ويرى زرادشت استحالة نسبة الخير والشر الى أصل واحد . ولذا من الضرورة الايمان بوجود قوتين متضادتين ، واحدة طاهرة مقدسة تفيض عنها الحياة والخير والنور وتسمى (مزدا) ، والأخرى خبيثة تسبب البلاء والشر وتسمى (أهريمان) .

وبين هذين الالهين ، مزدا وأهريمان ، عدااء دائم وحرب مستمرة . فهما يتنازعان الانسان ويحاول كل منهما الانتصار على الآخر . ولكن في النهاية يكون النصر لمزدا ، اله الخير . وتحدث الشهرستاني^١ عن هذين الالهين فقال : « زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن ، وكان أهلها في خير ونعيم خالص ، فلما وجد أهريمان حدث الشرور والآفات والفتن » .

ولزرادشت كتاب مقدس يسمى (أفستا Avesta) وعليه شرح يسمى (زندافست) قال المسعودي^٢ : « واسم هذا الكتاب (ألايستا) وإذا عرب أثبتت فيه قاف فليل (الايستاق)

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٤٩ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ١ .

وعدد سورته احدى وعشرون سورة تقع كل سورة في مائتى ورقة . وكان الفرس يدينون بالبعث والنشور ، ويؤمنون بالحياة الآخرة .

من أبرز مبادئ زرادشت أن أشرف عمل للانسان الزراعة والعناية بالماشية ، فحث الناس على أن يجدوا ويعملوا حتى انه حرم على أتباعه الصوم لأنه يضعفهم عن العمل . ويرى أن الماء والهواء والنار والتراب عناصر طاهرة لا تنجس ، فقدس النار واتخذها رمزا ، وحرم تنجيس الماء الجارى ، وحرم دفن الموتى فى الأرض^١ .

سادت الديانة الزرادشتية فى بلاد فارس وما جاورها حتى انتصر الاسكندر المقدونى على الفرس سنة ٣٣١ ق.م. فانحط شأنها . ثم نهضت فى عصر الأسرة الساسانية التى ابتداء حكمها فى البلاد سنة ٢٢٦ م. وبقيت الزرادشتية دين الفرس حتى كان الفتح الاسلامى ، ففر بعض أتباعها الى الهند حيث لا تزال طائفة (الفريسيين) منهم قائمة حتى الآن . وبقيت فئة فارس تقيم شعائر دينها وتوقد النار فى المعابد فى كل ولاية فارسية تقريبا من بعد انتشار الاسلام بنحو ثلاثة قرون للهجرة .

ومن أشهر المذاهب المجوسية المانوية نسبة الى (مانى) مؤسس المذهب ، وهو رجل فارسى ولد سنة ٢١٥ أو ٢١٦ م . ويرى مانى أن العالم نشأ من أصلين : النور والظلام ، فنشأ عن

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٠٢

النور كل خير ، وعن الظلام كل شر في العالم . وقد امتزج الخير بالشر امتزاجا تاما ، وما يصدر عن الانسان من خير فمصدره اله الخير ، وما يصدر من شر فمصدره اله الشر .

وهذه التعاليم تشابه الى حد كبير تعاليم زرادشت ، ولكنهما يختلفان في أمر جوهرى . ذلك أن زرادشت كثير الأمل في المستقبل ، فهو يتوقع أن يتغلب الخير على الشر ، وإن طال الأمر . وكان زرادشت متفائلا ، أمّا مانى فكان متشائما يائسا يرى أن هذا الامتزاج لا مخلص منه الا بالموت . ويرى زرادشت أن يعيش الانسان حياة طبيعية ، فيتزوج وينسل ، ويعنى بزرعه ونسله وماشيته ويقوى بدنه ولا يصوم ، وأنه بهذه المعيشة ينصر اله الخير على اله الشر .

أمّا مانى فانه يميل الى الرهينة ، ويرى ان امتزاج النور بالظلمة في هذا العالم شر ، ومن أجل هذا حرّم النكاح حتى يستعجل الفناء ، ودعا الى الزهد ، وشرع الصيام سبعة أيام في كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة ، يتوجه فيها المصلى نحو الشمس ، ونهى أصحابه عن ذبح الحيوان لما فيه من ايلام . ويرى مانى أن وجود الانسان جناية جناها أهله ويجب اقراضه^١ .

اعتنق هرمز ملك الفرس مذهب مانى وأيده ، كما اعتنقه كثير من الفرس . فلما مات هرمز وخلفه بهرام الأول ، أقدم

(١) يرى بعض المفكرين أن هذه النظرة التشاؤمية تشبه فلسفة أبى العلاء المعرى وفلسفة شوبنهاور في العصور الحديثة .

على قتل ماني واضطهد أصحابه . ولكن التعاليم المانوية لم تمت ، بل حاول أتباعها احياؤها في عصرى المنصور والمهدى .

أما المزدكية ، فقد ظهر مزدك في القرن الخامس الميلادى (حوالى سنة ٤٨٧ م) ، وهو رجل فارسى من نيسابور ، دعا الناس الى مذهب ثنوى (ثنائى) جديد ، فكان يقول بالنور والظلمة ودعا الى شيوعية فوضوية . فكان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء ، وأهم ما تجب فيه المساواة المال والنساء . وكان مزدك ينهى الناس عن التباغض والقتال ، ورأى أن السلام يتحقق اذا أباح النساء والأموال وجعلها شركة شائعة بين الناس جميعا ^١ . وتحدث الطبرى ^٢ عن اعتناق سفلة الناس هذه المبادئ لأنها ترضى شهواتهم فقال : « ... فافترض السفلة ذلك واغتنموه ، وكانوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وحملوا (قباز) على تزوين ذلك وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا الا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به » .

ونجح المسلمون فى القضاء على الدولة الفارسية الساسانية، وتنفس كثر من الفرس الصعداء ، فقد غضبوا لمناصرة الأكاسرة الساسانيين لדיانة زرادشت وافساح المجال لكهنتها حتى أصبح

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٨٨ وما بعدها .

لهم نفوذ كبير في الدولة ، ثم اضطهدوا كل الديانات الأخرى .
وأزال العرب الفاتحون نظام الطبقات والدين ، ولم يبق من
المعتنقين للزرادشتية القديمة الا قليل من الأتباع يسمون (كبر)
أو (بارث) .

انتصر الاسلام على الديانات المجوسية ، واعتنق كثير من
الفرس الدين الاسلامي وتعلموا اللغة العربية ، ولكنهم لم
يصبحوا في جملتهم كالعرب في عقيدتهم أو في نزعاتهم أو في
عقليتهم . بل اعتنقوا الاسلام وحاولوا صبغه بصبغتهم الفارسية،
ولم يتجردوا من كل عقائد الدين القديم وتقاليده ، ففهموا
الاسلام بالقدر الذي يسمح به دين قديم اعتنقه قومه أجيالا ،
وكذلك تعلم الكثير منهم اللغة العربية ولكن لم يترك خياله
الفارسي . ولذا دخلت في الاسلام تعاليم جديدة ، ونزعات دينية
جديدة ، ظهر أثرها فيما بعد ، وأظهرها في الاسلام التشيع
والتصوف ، وكان من أثر ذلك أيضا أن يغمر الأدب العربي
بالحكم والقصص الفارسية ١ .

ثم يتخذ المسلمون الحروف العربية وحدهم بل اتخذها
الزرادشتيون أيضا ، فنشأت لغة فارسية حديثة ومحتوية على
كثير من الكلمات العربية . أما بقايا الآداب الفهلوية القديمة فقد
كثر الغلط في فهمها ، لأنها فهمت بصعوبة كثيرة وبدراسات
العلماء الأوروبيين ٢ .

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٩٨

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٩٩

ولم يكن ارتداد الفرس الزرادشتيين عن ديانة زرادشت
بالأمر الصعب ، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور هذه
الديانة ، حتى انه لم يعد لأتباعها هناك مركز يجتمعون حوله ،
فوجدوا السبيل سهلا وميسورا لتدينهم بالاسلام . ويؤكد
أرنولد^١ أن القوة والعنف لم تكن السبب في اتساع نطاق
تحويل الناس الى الاسلام ، بدليل هذه المعاملة الطيبة التي
عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بدينه القديم .
تأثر الفرس بزواج الحسين بن علي بن أبي طالب من
(شاهبانو) إحدى بنات يزدجرد الثالث آخر أكاسرة الفرس
الساسانيين . وقد رأى الفرس في أولاد شاهبانو والحسين
وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم
القومية . وهذا الشعور الوطني يفسر لنا تعلق الفرس الشديد
بعلي بن أبي طالب والأسرة العلوية ، واتخاذهم أحيانا موقف
العداء من الأسرة العباسية ، ومحاولتهم تحويل الخلافة من
العباسيين الى العلويين .

ومن تسامح المسلمين ، أنهم اعتبروا المجوس أهل ذمة
وأخذوا منهم الجزية ، فيذكر الماوردي^٢ أن « أهل الكتاب هم
اليهود والنصارى ، وكتابهم التوراة والانجيل ، ويجرى
المجوس مجراهم في أخذ الجزية منهم ، وإن حرم أكل ذبائحهم
ونكاح نسائهم . وتتؤخذ من الصابئة والسامرة اذا وافقوا

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٣٨

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٣٧

د والنصارى فى أصل معتقدهم » . ويذكر الشهرستانى ^١
- سجوس لهم شبهة كتاب ، ولكن الثابت تاريخيا أن الرسول
صالح مجوس أهل هجر على أن يأخذ منهم الجزية . وقد أكد
عبد الرحمن بن عوف للخليفة عمر بن الخطاب أن الرسول قال :
(سنوا بهم سنّة أهل الكتاب) ^٢ . واستمر الولاة الأمويون
يجمعون الجزية من المجوس مثل سائر أهل الذمة .

واتبع العباسيون سياسة الخلفاء الراشدين والأمويين ،
وعاملوا المجوس معاملة طيبة ، واعتبروهم أهل ذمة . وكان
الفرس والحراسانيون عماد الدولة العباسية ، فحرص الخلفاء
العباسيون على ارضائهم .

عوامل ظهور حركات الزندقة فى عهدى المنصور والمهدى :

تميز العصر العباسى ، وخاصة فى عصرى المنصور والمهدى ،
بشيوع لفظ « الزندقة » ، وارتباطه بالمجوسية فى معظم
الأحيان . وإن كان هذا اللفظ قد شاع فى أواخر العصر
الأموى ، إلا أن ذلك كان على نطاق محدود . ففي العصر
الأموى ، اتهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن
يزيد بن عبد الملك بالزندقة فى العصر الأموى ، كما اتهم الوليد
ابن يزيد بنفس الاتهام . كما كان الجعد بن درهم ، مؤدب

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٤٨

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٦

مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، زنديقا ^١ . ويرجع السبب في عدم انتشار الزندقة في العصر الأموي ، أن الدولة الأموية كانت دولة عريية ، وكانت منزلة الموالي ، وخاصة الفرس ، أدنى من العرب . والعرب لا تعرف الزندقة ولا تميل اليها .

فلما قامت الدولة العباسية ، انتعش الموالي الفرس ، ووصلوا الى كثير من النفوذ ، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعا لمّا اعتنقوا الاسلام ، وكانوا لا يجراؤون في العصر الأموي أن يرفعوا أصواتهم ، فكان همهم الأول أن يتحرروا سياسيا لا دينيا ، فكانت دعوتهم السرية واجتماعاتهم وتداييرهم للسياسة لا للدين والزندقة . فلما نجحوا في القضاء على الدولة الأموية ، واعتبروا الدولة العباسية دولتهم ، ظهرت الديانات القديمة ، وكانت الزندقة . ويرى (فون كريم) ^٢ أن بعض الموالي ظلوا مخلصين في قرارة نفوسهم لمعتقداتهم الدينية القديمة ، وقبلوا الاسلام ظاهريا فقط . ويرى (ديموبين) ^٣ أن كبار الملاك من الموالي اعتنقوا الاسلام ليخضعوا للنظام الاسلامي ولكنهم احتفظوا بدينهم وعاداتهم .

كان هناك دوافع سياسية لثورات الموالي الفرس على الحكم العربي الاسلامي . فقد ظهرت بينهم نزعة قومية تدفعهم الى احياء

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٧٢

(٢) فون كريم : الحضارة الاسلامية ص ٧٤

(٣) ديموبين : النظم الاسلامية ص ٧٥

المجد الفارسي القديم ، وفي ذلك يقول ابن حزم ^١ : « ان الفرس كانوا من سعة المثلث وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسهم حتى انهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة » .

ظهرت حركات الزندقة في العصر العباسي الأول بصورة خطيرة ، تهدد كيان الدولة العباسية والمجتمع الاسلامي ، فتعاليم الزنادقة تبعد تماماً عن تعاليم الاسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من التعاليم الفاسدة ، التي تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية ، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للانحيار .

وكانت الكوفة — التي ظهر فيها الدعاة العباسيون — في مستهل القرن الثاني للهجرة مهداً لتشيع متطرف غير اسلامي . وخلط بعض الفرس بين الاسلام والديانات والعقائد القديمة التي كانت سائدة في بلاد العراق قبل ظهور الاسلام (كديانة الفرس القدماء (Parsece) والمناوية والصابئة وغيرها) . وذلك للتوفيق بينه وبين تلك الديانات المختلفة . وكان الدعاة يقومون بنشر الدين الاسلامي بين الناس بحماس وحمية رغم

(١) ابن حزم : الفصل في الملل ج ٢ ص ١١٥

هذا التغير الذى طرأ عليه فى ذلك الحين ويدافعون عنه باخلاص
وغيره . يدل على ذلك ما كان من الحكم بالاعدام على كثير من
الغلاة والمبتدعين منذ أيام على بن أبى طالب الى عصرى
المنصور والمهدى^١ .

ارتبطت الزندقة بالمجوسية عامة والمانوية خاصة . فالجاحظ
الذى عاش فى عصر المأمون العباسى تحدث عن كتب الزندقة
فوصفها وصفا دقيقا ، يشابه تماما ما نعلمه عن كتب المانوية .
ثم جاء الأصفهاني بعده (+ ٣٤٨ هـ) فتحدث عن الزنادقة
فى كتابه (الأغانى)^٢ فقال : انهم « كانوا يعرفون بالثنوية وعبادة
الهيئتين ، واتباع تعاليم مانى » . كما أن ابن النديم فى كتابه
(الفهرست) يذكر أن كلمة الزنادقة كانت تطلق على أصحاب
مانى ومعتنقى مذهبه ، وليست كلمة عامة تطلق على كل كافر
أو ملحد .

أما من الناحية اللغوية ، فيذكر الجوهري فى المصباح :
« والزنديق من الثنوية ، وهو معرب ، والجمع الزنادقة ، وقد
ترندق ، والاسم الزندقة » . وجاء فى لسان العرب : « الزنديق
القائل ببقاء الدهر ، فارسى معرّب (زندر) أى يقول ببقاء
الدهر » . ويرى البعض أن كلمة زنديق فى الأصل معناها
بالفارسية الذى يتبع (زند) ، ثم أطلق على المانوية ، لأنهم

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٩٦

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٧٣ و ٨٦

كانوا يأخذون (زند) وغيره من الكتب المقدسة ، ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل .

المنصور والزنادقة :

تتبعنا أصول وجذور حركات الزندقة في العصور السابقة للعصر العباسي . ولكن الزندقة لم تتخذ الشكل الايجابي العملي الثوري ، الا في العصر العباسي ، وبدأت أول حلقة في سلسلة حركات الزنادقة في عصر المنصور ، ثم كانت الحلقة الثانية في عهد ابنه الخليفة المهدي ، تكمل ما بدأه الزنادقة في عهد المنصور ، فقد كانت حركة المقنعية في عهد المهدي تنمة لحركة الراوندية في عهد المنصور .

ظهر في عصر المنصور رجل أبرص ، يدعى (الأبلق) ، وأسس جماعة الراوندية ، نسبة الى مدينة راوند القريبة من أصفهان ، التي كانت مهد دعوتهم . ونادى الأبلق بمبادئ غريبة على الاسلام ، فقد زعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم قد انتقلت الى علي بن أبي طالب ، ثم حلت في الأئمة العلويين على التوالي ، حتى انتهت الى الامام ابراهيم بن محمد ، وهو سبط العباس عم الرسول . وزعم الراوندية أن هؤلاء الأئمة العلويين آلهة ، واستحلوا الحرمات . فكان كل راوندي يدعو الآخرين من أعضاء الجماعة الى منزله ، فيقدم لهم الطعام والشراب ثم يبيح لهم الحرمات . وعلم الوالي أسد بن عبدالله القسري بهذه الجماعة ومبادئهم الخطيرة ، فقتل وصلب عددا كبيرا منهم .

ومضت جماعة الراوندية في ضلالها والحادها ، وأرادوا
استرضاء الخليفة المنصور ، فتوجهوا اليه بالعبادة واعتبروه
الههم . وخرجت جماعة منهم يحملون السلاح الى الخضراء ،
وهي القبة التي بناها المنصور في بغداد ، حتى اذا رأوا المنصور
صاحوا : أنت أنت . أى أنت الله . ولم يرض المنصور عن هذا
الكفر والالحاد ، فخرج بنفسه في جماعة من جنده فقاتلهم ،
وقتل عددا منهم ، وهرب الباقون وهم يصيحون أيضا : أنت
أنت ١ .

وأمر المنصور ولاته وعماله أن يتبعوا الراوندية في كل
مكان ، فألقوا بكثير منهم في السجن . ولكن الباقين جمعوا
شملهم وأعلنوا الثورة المسلحة . وتوجهوا الى السجن ، وأطلقوا
سراح المسجونين من الراوندية ، وخرجوا جميعا لقتال المنصور .
وأبدى المنصور شجاعة وثباتا ، حتى انه خرج لقتالهم ماشيا ،
فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، لولا أن سارع الى نجده معن
ابن زائدة الشيباني ، الذي نجح في صد الراوندية ، وكافأه
المنصور بأن ولاه حكم بلاد اليمن .

كان أبو جعفر المنصور ينظر الى الراوندية كأعداء سياسيين
لدولته ، لأنهم من أتباع عدوه أبى مسلم الخراساني ، الذين
يعملون على تحويل الخلافة الى ملك كسروي ، كما كان ينظر
اليهم باعتبارهم زنادقة ، يريدون أن تعود المجوسية أو شكل
من أشكالها ، كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها ،

فعاملهم كما عامل أبا مسلم ، وقتلهم شر قتلة ، الا أنه لم يستطع مع ذلك أن يقضى عليهم قضاء تاما ، فظهروا في صور مختلفة نراها في مثل ثورات المقنع الخراساني في عهد الخليفة المهدي ، ثم في ثورة بابك الخزمي في عصر المأمون والمعتصم^١ .

اتهم ابن المقفع بالزندقة ، ومن أقدم النصوص في ذلك ما حكى عن الجاحظ : « أن ابن المقفع ومطيع بن اياس ويحيى ابن زياد كانوا يتهمون في دينهم » . ويروون أن الخليفة المهدي قال : « ما وجدت كتاب زندقة الا وأصله ابن المقفع » . ويروى الجهمشيارى أن سفيان بن معاوية لما أراد قتل ابن المقفع بتحريض من المنصور قال له : « والله يا ابن الزندقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة » .

الزندقة في عصر المهدي :

كانت الدوافع الى الزندقة في العصر العباسي مختلفة متنوعة ، فقوم دعاهم اليها دين ألفوه قديما وهو دين المجوسية ، وكان لهم فيه آباء عديدون ، وكانت لهم عادات وتقاليد أخذها الخلف عن السلف ، ولكنهم أسلموا ليصلوا الى المناصب الكبرى ، دون أن يدخل الايمان الى قلوبهم ، واتخذوا الاسلام ثيابا ظاهرة يخلعونها اذا خلوا الى أهليهم ، وهم اذا أمكنتهم الفرصة كادوا للاسلام والعرب ، ودعوا للشعووية والمجوسية^٢ .

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٩٤

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ١٦٢

وأشهر أنواع الزنادقة في العصر العباسي من كانوا يتظاهرون
بالإسلام بينما هم لا يزالون على الدين الفارسي وهو المجوسية ،
وخاصة مذهب مانى . ذلك أنه كان في ذلك العصر طائفة لم
تؤمن بالإسلام ولكن آمنت بسلطانه ، ورأت أن لا سبيل لنيل
الجاه والسلطان والمال الا بالإسلام ، فاعتنقته ظاهرا وظلت
تخلص لدينها القديم . وقوم من هؤلاء كان لهم غرض أعمق
من هذا ، اذ رأوا أنهم لا يستطيعون افساد العقيدة الإسلامية
الا بالانتساب اليها أولا حتى يؤمن جانبهم ، وحتى يسهل على
النفوس الأخذ بقولهم ، ثم هم بعد ينفثون تعاليمهم على أشكال
مختلفة ، طورا في العلم والدين ، وطورا في الأدب ، وطورا في
وضع مثالب العرب ، ومن حين لآخر كان يثعر على بعضهم
فينكل بهم ، ولكنهم لا يبيدون ، أحيانا يعملون أفرادا ، وأحيانا
يعملون جماعات .

من هؤلاء الزنادقة : عبد الكريم بن أبى العوجاء الذى
وضع ألف حديث نبوى مكذوب واعترف بجريمته فقتله الخليفة
أبو جعفر المنصور ، وحماد الراوية الذى أفسد الأدب واللغة .
وصالح بن عبد القدوس الذى دس معانى الزندقة فى الأشعار .
ويونس بن أبى فروة الذى ألف كتابا فى مثالب العرب والإسلام
ليتقرب به الى ملك الروم . وكان هؤلاء وأمثالهم يتزندقون
تزندقا علميا ، فهم يدينون بعبادى مانى أو مزدك ، ويؤمنون
بالنور والظلمة ، وبعبارة عامة يدينون بدين المجوس عن علم ،

ثم يتظاهرون بالاسلام ، حتى يتجنبوا تنكيل أولى الأمر
والمسلمين بهم ، أو توسلا الى اضلال الناس ^١ .

اشتهر بالزندقة في هذا العصر كثيرون ، منهم الحمادون الثلاثة
(حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد بن الزبرقان) ، وبشار
ابن برد ، وابن المقفع ، ويونس بن أبى فروة ، ومطيع بن اياس ،
وعبد الكريم بن أبى العوجاء ، وصالح بن عبد القدوس ، وعلى
ابن الحليل ، وابن مناذر . ونجد في ترجمتهم في الأغاني
للأصفهاني وغيره ضروبا من القصص التي توضح زندقتهم ،
وكان بينهم علاقات ود أو عدااء .

وكان معظم الزنادقة من الموالي الفرس ، وزندقتهم تستر
وراءها ديانة مجوسية . ولكننا نجد بعض الزنادقة من العرب ،
بل من الهاشميين من اتهم بالزندقة ، مثل الحسين بن عبد الله بن
عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن معاوية بن
عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وقد أمر الخليفة المهدي بالقبض
على داود بن علي ويعقوب بن الفضل ، وكلاهما من البيت
العباسي ، واتهما بالزندقة ، وأقرّا بذلك للمهدي . ولكن
انتشار الزندقة بين العرب كان نادرا ، ومعظمهم تزندقوا لميلهم
الى المجون والعبث ، فقد كانت الزندقة تبيح الحرمات . كما
أصبحت الزندقة وسيلة للخلاص من الخصوم السياسيين .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٥٧

حركة المقنعية في عهد المهدي :

ظهرت في عهد المهدي الحلقة الثانية من حلقات حركات الزندقة في العصر العباسي ، واتخذت شكلا ايجابيا ثوريا . وركز المهدي جهوده حتى نجح في القضاء عليها ، فقد كان المهدي من أكثر الخلفاء العباسيين تديثنا وتمسكا بتعاليم الاسلام ، وكما يقول ابن طباطبا^١ عنه : « كان المهدي شهما فطنا كريما شديدا على أهل الإلحاد والزندقة لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم » .

ظهر في عهد المهدي في سنة ١٦١ هـ ، في قرية من قرى مرو بخراسان ، رجل يدعى حكيم المقنع ، وكان قبيح الحلقة ، أعور قصيرا . ويرجع سبب تسميته المقنع ، الى أنه أدرك قبح وجهه ممّا يدعو الى نفور الناس ، فأراد اخفائه عنهم ، فصنع قناعا من الذهب على صورة وجه انسان وركبه على وجهه . ولم يفض المقنع الى أتباعه بسر اخفائه هذا القناع الذهبي ، فذهب الى أنه يشع من وجهه نور ساطع يبهر الأنظار وقد يحرق من يقع عليه !!

وكان المقنع في بداية الأمر يعتنق مذهب (الرزامية) ، وهم فرع من فروع حزب الشيعة الكيسانية الذي ساق الامامة الى محمد بن علي بن أبي طالب المعروف باسم (ابن الحنفية) ، ثم الى ابنه هاشم ، ثم الى علي بن عبد الله بن العباس ، ثم الى ابنه محمد ، ثم الى ابنه ابراهيم الامام ، ثم الى أخيه أبي العباس أول

(١) الفخرى ص ١٦١

الخلفاء العباسيين . ثم انتقلت الامامة منه الى أبى مسلم
الخراسانى داعية العباسيين الأول .

نادى المقنع بنظريية « تناسخ الأرواح »^١ ، كما ادعى
الألوهية ، فزعم المقنع أن الله خلق آدم فتحوّل فى صورته ،
ثم فى صورة نوح ، ثم الى صورة ابراهيم ، ثم الى صورة واحد
فواحد من الأنبياء والحكماء ، ثم فى صورة محمد ، ثم تحول
بعده فى صورة على بن أبى طالب ، ثم انتقل فى صورة أولاده ،
ثم الى صورة أبى مسلم الخراسانى ، وزعم المقنع أنه انتقل من
أبى مسلم اليه ، ولذا طلب من أنصاره أن يعبدوه ويسجدوا له .

ودعا المقنع الى تقديس أبى مسلم ، وزعم أن روح الله قد
حلّت فى أبى مسلم ، وأن ذلك من عوامل انتصاره على بنى أمية
ونجاحه فى قتل آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد . وزعم أن
أبا مسلم قد أصبح الها بحلول روح الله فيه ، وأنه حى لم يموت ،
وأنه سيعود يوما لينتقم من أعدائه وينشر العدل والسلام ، وأن
الذى قتله المنصور لم يكن أبا مسلم ، بل هو شيطان اتخذ
صورة أبى مسلم^٢ .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا^٣ عن تعاليم المقنع الزائفة ، فقال :
« كان هذا المقنع رجلا أعور قصيرا من أهل مرو ، وكان قد

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٦٢

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٧ ، البغدادى :

الفرق بين الفرق ص ٣٤١ وما بعدها .

(٣) الفخرى ص ١٦٢

عمل وجهها من ذهب وركبه على وجهه لئلا يثرى وجهه ، وادّعى الألوهية ، وكان يقول ان الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح ، وهكذا هلمّ جرّاً الى أبى مسلم الخراسانى ، وسمّى نفسه هاشما ، وكان يقول بالتناسخ ، وبايعه خلق من ضلال الناس ، وكانوا يسجدون الى ناحيته أين كانوا من البلاد ، وكانوا يقولون فى الحرب : يا هاشم أعنّا . واجتمع اليه خلق كثير .

وعمل المقنع على هدم أركان الاسلام ، فأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأباح لأتباعه أن يتبعوا تعاليم مزدك التى تدعو الى الاباحية والفوضى الاجتماعية ، فهى تبيح المال والنساء للجميع . وقد حارب الأكاسرة الساسانيون المزدكية ، فمن المبادئ المقررة فى سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة التامة على النظام الاجتماعى الفارسى القديم القائم على الأسرة والملكية ، فلمّا ظهر مزدك فى أوائل القرن الخامس ، ودعا الى نهلته الشيوعية الهادمة لنظامى الأسرة والملكية ، وافتنن به العامة ، فان كسرى أنو شروان تجرد لمناهضته ، فقضى على مزدك وأتباعه ، كما قضى من قبل بهرام الأول على مانى وأصحابه ١ .

وأدرك المقنع أنه لكل نبي معجزة ، فما بالكم وقد ادعى الألوهية . ولذا فقد أظهر المقنع قمرا يطلع ويراه الناس على

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٣٦

مسيرة شهر ، ثم يأفل . ولم تمدنا المصادر التاريخية القديمة بمعلومات وافية نستطيع أن نصل بها الى حقيقة هذه الخدعة التى لجأ اليها المقنع ، ولكننا نعتقد أنه لجأ الى وسائل علمية وزعم أنها معجزة من معجزاته . وكان قد سبقه فى زمن سالف له رجل ادعى النبوة فى بلاد ما وراء النهر فى ناحية كش ، تسميه كتب التاريخ (الممخرق) وتسمى أتباعه (الممخرقين) ، وادعى أنه يطلع بدرا فى السماء ، فحفر بئرا واسعة فى بعض جبال تلك الناحية ، فطرح فيها الزئبق الكثير فوق الماء ، فكان شعاعه يظهر فى الجو كأنه البدر . ونعتقد أن المقنع لجأ الى مثل هذه الحيلة .

تحدث الشاعر أبو العلاء المعرى عن بدر المقنع الزائف ، فى بيت من أبيات شعره ، فأنشد :

ففى انما البدر المقنع رأسه ضلال وغى مثل بدر المقنع
كما أشار الشاعر أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك الى بدر المقنع فى احدى قصائده :

اليك فما بدر المقنع طالعا بأسحر من الفاظ بدر المعمم
كانت المجوسية لا تزال لها رواسب فى أعماق بعض أهالى الأطراف الشرقية من الدولة العباسية ، فهى دين متوارث عن الآباء والأجداد ، ولذا لقيت دعوة المقنع الزائفة هوى فى نفوسهم ، وقبولا منهم . فانتشرت آراؤه ومبادئه فى بخارى وسمرقند ومنطقة بحر قزوين . والتجأ المقنع الى قلعة حصينة فى كش ،

وجمع فيها كمية وفيرة من الطعام حتى يمكنه أن يتحمل حصارا طويلا قد يضرب حول القلعة^١.

شعر الخليفة المهدي بخطورة دعوة المقنع ، فهي تهدم أركان الاسلام ، كما أنها تمجد أبا مسلم الخراساني الذي تخلصت الدولة العباسية منه ، كما تدعو الى مبادئ مزدك الفوضوية التي تهدد سلامة المجتمع الاسلامي ونظم الدولة الاسلامية ، وقد رأينا كيف حاربت الدولة الفارسية المجوسية تعاليم المزدكية حين أدركت خطورتها كدعوة هدامة اباحية .

أمر المهدي واليه في خراسان ، معاذ بن مسلم ، أن يقضى على دعوة المقنع ، فقاد جيشا يزيد عدد جنده على سبعين ألف مقاتل . وانضم اليه قواد من أعظم القواد العباسيين ، وهم عقبة بن مسلم ، وجبرائيل بن يحيى ، وليث مولى المهدي . وحاصر الجيش العباسي القلعة طويلا ، ورغم توافر التموين في القلعة إلا أن كثيرا من أنصار المقنع ضاقوا بالحصار الطويل ، وخرجوا من القلعة يسلمون أنفسهم الى قائد المهدي ، وبقي المقنع في عدد قليل من أنصاره^٢.

ورأى الخليفة المهدي وقد تخلى أنصار المقنع عنه ، أن يوجه اليه ضربة حاسمة ، فبعث بجيش كبير بقيادة سعيد الحرشي ، الذي حاصر قلعة كش طويلا ، وبدأ الطعام ينفذ من القلعة ، وأخذت سهام الجيش العباسي تنهار على من في القلعة فتقتل

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٦٧

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٦٧

عددا كبيرا منهم ، وقذف العباسيون القلعة بأحجار المنجنيق
فقوّضوا بناءها .

أدرك المقنع أن نهايته قد قربت ، فيقع في أيدي العباسيين ،
فيقتلوه ويصلبوه ويمثلوا بجثته ، ورأى أن تكون نهايته على
يديه . فأشعل النيران في القلعة ، وأحرق كل ما فيها من دواب
وثياب ومتاع ، وأذاب النحاس والسكر في تنور ، وجمع نساءه
وأولاده ، وطلب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم في النار ليرتفعوا
إلى السماء . وأبى أتباعه أن يستجيبوا إلى طلبه ، أما لحبهم
الحياة أو لاكتشافهم كذبه واحتياله . ولكن المقنع أبى أن يموت
وحده ، وأصر على أن يشاركه أتباعه مصيره ، فأعد سربا شرابا
مسموما ، وطلب من أتباعه أن يشربوا منه ، وقال لهم : أنا
صاعد إلى السماء ، فمن أراد أن يصحبني فليشرب من هذا
الشراب . ولم يفتن أتباعه إلى حقيقة هذا الشراب المسموم ،
فشربوا منه ، فماتوا . وألقى المقنع بجثثهم ، وبجثث نسائه
وأطفاله في النيران . ثم ألقى بنفسه أخيرا في النار ، حتى لا يظفر
العباسيون بجثته وجثث أسرته وأتباعه ١ .

ولكن موت المقنع لم يضع حدا لتعاليمه التي اعتنقها بعض
أهالي بلاد ما وراء النهر ، وأصبحوا يعرفون باسم « المقنعية
المبيضة » الذين زعموا أن المقنع كان الها ، وأنه تصوّر في كل
زمان بصورة خاصة . وأصبح له أشياع في بلاد ما وراء النهر

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٧٤ ، الفخرى ص ١٦٢

وفي تركستان ، حيث اتخذوا في كل قرية مسجدا يصلثون فيه ويستحلون الميتة والخنزير ، ويبيحون النساء ، وإن ظفروا بمسلم لم يره مؤذن مسجدهم قتلوه ، وأخفوا جثته ^١ .
أُصيبَت الحية ولكنها لم تقتل ، فقد اختفت حركات الزندقة في عهد المهدي وولديه الهادي وهارون الرشيد ثم الأمين ، لتظهر مرة أخرى في عصر المأمون الذي ظهرت في عهده حركة الخرمية البابكية ، وهي استمرار لحركات الراوندية في عصر المنصور ، والمقنعية في عهد المهدي . وكانت طائفة الخرمية قد أسسها مزدك في عهد قباد أبي كسرى الأول المعروف بأنو شروان ، ولذا كانت تسمى الخرمية المزدكية تمييزا لها عن الخرمية البابكية .

ومن مبادئ الخرمية البابكية تحويل المثلث من العرب المسلمين الى الفرس المجوس ، وكأنهم بهذه المبادئ يحاربون الاسلام والعروبة . فيذكر المؤرخ المقدسي : « فإن الخرمية احتالوا في ازالة المثلث الى العجم ، فموتوا هذه النحلة وزيتوها للجهال ودعوا اليها في السر ، ومحصول أمرهم التعطيل والاحاد » ^٢ . كما يقول المقدسي عنهم أيضا : « هم فرق وأصناف ، غير أنهم يجمعهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة ، وأن الوحي لا ينقطع أبدا ، وكل ذي دين مصيب ما لم ير كيد نحلتهم وخسف مذهبهم »

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٩٦

(٢) المقدسي : البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٤

ويعظمون أمر أبي مسلم ، ويلعنون أبا جعفر على قتله ،
ويكثرون الصلاة على فيروز ، لأنه من ولد فاطمة بنت
أبي مسلم . ولهم أئمة يرجعون اليهم في الأحكام ، ورسـل
يدورون بينهم يسمونهم (فرشتكان) ، ولا يتبركون بشيء
مثل تبركهم بالخمور والأشربة . وأصل دينهم القول بالنور
والظلمة . ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء ، وإباحة كل
ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع »^١ .

وتحدث نظام الملك في كتابه (سياسة نامه) عن تعاليم
الخرمية فقال : رفض الخرمية جميع الفروض الدينية كالصلاة
والصيام والزكاة والحج ، وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر
والمحرمات وشيوعية النساء ، وهى مبادئ مزدك . وعملوا
جهدهم للقضاء على الاسلام قضاء تاما . كما أنهم لم يشعروا
بأى ميل أو عاطفة ازاء أحد من أهل البيت ، وإن كانوا قد
اتخذوا من أسمائهم سبيلا الى جذب الأنصار اليهم ، لنشر
دعوتهم التى ترمى الى هدم الاسلام .

المهدى ينشئ ديوان الزنادقة :

أدرك المهدى خطورة الزنادقة على الاسلام والدولة ،
فاجتهد فى « طلب الزنادقة والبحث عنهم فى الآفاق وقتلهم »^٢ .
وأنشأ المهدى ديوانا خاصا لمقاومة حركة الزنادقة ، بالطرق

(١) البدء والتاريخ ج ٤ ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٨٩ .

الايجابية أو الوسائل السلمية ، وأصبح رئيس هذا الديوان يطلق عليه اسم « صاحب الزنادقة » وعهد المهدي اليه بتتبع الزنادقة وقتلهم ، والعمل على محو تعاليمهم من النفوس بالتوعية والنصح والارشاد . ويتحدث ابن طباطبا^١ عن كراهية المهدي للزنادقة فقال : « وكان المهدي شديدا على أهل الاتحاد والزندقة ، لا يزال يتطلع عليهم ويفتك بهم » . كما قال السيوطي^٢ : « وجد المهدي في تتبع الزنادقة وابدانهم ، والبحث عنهم في الآفاق والقتل على التهمة » .

وقف المهدي من الزنادقة موقفا حاسما ، واعتبرهم كفارا لمحدثين ، عقابهم القتل . وعند رحيله الى الشام ، زار مدينة حلب ، وكان قد علم بانتشار الزندقة بين بعض أهلها ، فأمر بقتلهم والتمثيل بجثثهم . واتهم الشاعر بشار بن برد بالزندقة ، فلما رحل المهدي الى البصرة أمر بالقبض على بشار ، وطلب من حمدويه صاحب الزنادقة أن يعاقبه ، وقال : اضربه ضرب التلف^٣ .

مثل صالح بن عبد القدوس أمام المهدي متهما بالزندقة ، فأراد المهدي قتله ، فقال صالح : أتوب الى الله . ثم أنشد :

ما يبلغ الأعداء من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه

(١) الفخرى ص ١٦٥

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣

(٣) الأصفهاني : الأغاني ج ٢ ص ٧٣

والشيخ لا يترك أخلاقه

حتى يثوارى فى ثرى رسمه

وكاد المهدي أن يطلق سراحه ، حتى اذا سمع البيت الأخير ، قال : ألم تقل والشيخ لا يترك أخلاقه ؟ قال : بلى . فقال المهدي : فذلك أنت لا تدع أخلاقك حتى تموت . ثم أمر بقتله ^١ . واتهم البعض أبا العتاهية بالزندقة لأنه يذكر الموت فى شعره ولا يذكر الجنة والنار .

وكان بعض الذين اعتنقوا مبادئ الزندقة من جهلاء الناس الذين خدعوا بتعاليمها التى ترضى الشهوات والأطماع ، فأراد المهدي توعيتهم ومساعدتهم على العودة الى الطريق لقويم ، واقناعهم بفساد الزندقة . فألف المهدي هيئة علمية لمناظرتهم ، وأمر بتأليف الكتب التى تنقض تعاليم الزندقة وتبين فسادها ومناقضتها لتعاليم الاسلام . مما أدى الى عودة بعض المنحرفين الجهلاء الى حظيرة الاسلام ^٢ .

المهدي يعزل وزيره لاعتناق ابنه الزندقة :

كانت الزندقة سببا فى عزل المهدي لوزيره معاوية بن يسار ، وكان من أخلص وأمهر الوزراء فى العصر العباسى . وكان اتهم بعض الحاقدين على الوزير لابنه بالزندقة كافيا ليأمر المهدي بقتل الابن ، وعزل الوزير .

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٥

(٢) الفخرى ص ١٦٤

كان الربيع بن يونس حاجبا للخليفة المنصور ، وصحبه في رحلته الأخيرة الى مكة للحج ، حيث مات المنصور قرب مكة ، وقد مرّ بنا كيف أخفى الربيع موت المنصور ونجح في أخذ البيعة للمهدى من عيسى بن موسى وسائر بنى هاشم ، ممّا مهد الطريق أمام خلافة المهدى ، في جوّ من السلام والهدوء . ولّى المهدى معاوية بن يسار الوزارة ، ووثق فيه ، وفوض إليه أمور الدولة ، وكان جديرا بهذا المنصب الكبير ، فقد كان كاتباً للمنصور ، وكان ينوى أن يوليّه الوزارة . وأبدى ابن يسار كفاءة عظيمة في إدارة شئون الدولة العباسية .

قدم الربيع بن يونس ، حاجب المنصور ، من مكة الى بغداد ، بعد أخذه البيعة للمهدى بالخلافة ، ورأى أن يبدأ بزيارة الوزير معاوية بن يسار قبل أن يمثل بين يدي الخليفة . وتعمّد الوزير أن تطول فترة انتظار الربيع قبل أن يأذن له . حتى اذا دخل الربيع الى مجلسه ، لم يقم له . ثم سأله معاوية عن مسيره وحاله ، فشرع الربيع يحدثه بما جرى في مكة من موت المنصور ، واجتهاده في أخذ البيعة للمهدى ، فقاطعه معاوية وقال : قد بلغنى الخبر فلا حاجة الى اعادته ! واغتاض الربيع ، وقام من فوره وغادر المجلس غاضبا ، والتقى بابنه الفضل فأقسم له على الكيد للوزير والعمل على عزله عن منصبه فقال : على كذا وكذا ان لم أبذل مالى وجاهى فى مكروهه وازالة نعمته .

ومضى الربيع الى قصر الخلافة ، فطلب المهدى منه أن يبقى

حاجبا له كما كان حاجبا لأبيه المنصور من قبل . وحاول الربيع بكل وسائله أن يوقع بين المهدي ووزيره ابن يسار ، دون جدوى . فرأى أن يتحالف مع أعداء الوزير ، ويرسمون خطة ترمى الى الخلاص منه .

سأل الربيع أحد أعداء الوزير عن حيلة يلجأ اليها للكيد للوزير ، فأجاب : لا والله ما عندي حيلة تنفذ عليه فانه أعف الناس فرجا ويذا ولسانا ، ومذهبه مستقيم ، وحذقه في صناعته ما عليه مزيد ، وعقله وكفاءته كما علمت ، ولكن ابنه ردىء الطريقة مذموم السيرة والقول يسرع اليه ، فان تهيتاً حيلة من جهة ابنه فعسى ذلك !.

وأبدى الربيع اعجابه بهذه الفكرة ، فقبل هذا الرجل بين عينيه ، وبدأ يسعى بابن الوزير الى المهدي « أنواعا من السعائيات ، فتارة يرميه ببعض حرم المهدي وتارة يرميه بالزندقة »^١ . وتكررت السعائيات ، حتى أيقن المهدي بزندقة ابن الوزير ، ونحن نعلم كراهيته الشديدة للزنادقة .

ولكن المهدي كان عادلا ، فرأى أن يتحقق بنفسه من صدق الاتهام ، فأمر باستدعاء ابن الوزير ، فقدم اليه مع أبيه ، وسأله المهدي عن شيء من القرآن الكريم ، فلم يحر جوابا ، ولم يتمكن من تلاوة بعض الآيات الكريمة . فقال المهدي لوزيره : ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن ؟ فأجاب الوزير :

(١) الفخرى ص ١٦٥

بلى يا أمير المؤمنين ولكن فارقنى مذ مدّة فنسيه . فقال
المهدى : قم فتقرب الى الله بدمه . فقام ابن يسار فعثر ووقع
وارتعد . فالتمس العباس بن محمد ، عم المهدى ، من الخليفة
أن يعفى الوزير من قتل ابنه بيده ، وأن يتولى غيره ذلك عنه .
فأمر المهدى بعض من كان حاضرا بقتله فضربت عنقه .

استمر معاوية بن يسار يتولى الوزارة « الا أنه ظهر عليه
الانكسار ، وتئمّر قلبه ، وتئمّر أيضا قلب المهدى منه »^١ .
حتى كان يوم دخل فيه الوزير يعرض على المهدى بعض الرسائل
التي وردت من الولايات الاسلامية ، وطلب المهدى اخلاء مجلسه
حتى ينفرد بالوزير ، فخرج الحاضرون عدا الربيع الذى أصرّ
على البقاء فى المجلس ، حتى اذا استفسر المهدى منه عن سر
اصراره على المكوث ، قال الربيع : كيف أخرج وأنت وحدك
وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه معاوية ،
وقد قتلت بالأمس ولده ، وأوغرت صدره ، فكيف أدعك معه
على هذه الحال وأخرج ؟!

وتمالك المهدى نفسه وقال : يا ربيع انى أثق بأبى عبد الله
فى كل حال . ثم قال للوزير : اعرض ما تريد فليس دون الربيع
سر . ثم رأى المهدى أن يتخلّص من وزيره ، فقال لحاجبه
الربيع : انى أستحيى من أبى عبيد الله بسبب قتل ولده ، فاحجبه

(١) الفخرى ص ١٦٥

عنى . فحجبه عنه ، واتقطع الوزير فى داره ، وعاش فى زوايا
النسيان ، وما لبث أن مات سنة ١٧٠ هـ ١ .

الزنادقة فى وصية المهدي للهادي :

أمر المهدي بتتبع الزنادقة فى كل مكان ، وقتلهم . وتحدث
المؤرخ المسعودى^١ عن جهود المهدي فى محاربة الزنادقة ، فقال :
« انه أمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم فى
أيامه ، واعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى ،
وابن ديسان ومرقيون ، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ،
وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنف فى
ذلك ابن أبى العوجاء ، وحمام عجرو ، ويحيى بن زياد ، ومطيع
ابن اياس ، من تأييد المذاهب المافوية والديسانية والمارقونية .
فكثرت بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم فى الناس . وكان المهدي
أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف
الكتب فى الرد على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ،
وأقاموا البراهين على المعاندين ، وأزالوا شبه الملحدين
فأوضحوا الحق للشاكرين » .

ورأى المهدي أن يلفت نظر ابنه الهادي الى خطورة
الزنادقة ، حتى لا تتعرض الدولة اذا تولى الهادي الخلافة الى

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢٢ ، الفخرى ص ١٦٦

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢٢

الأخطار التي لمسها المهدي في عهده وعهد أبيه أبي جعفر المنصور .

قال المهدي لابنه الهادي : « يا بني ان صار لك هذا الأمر ، فتجرد لهذه العصابة — يعنى أصحاب مائى — فانها فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها وتحوتبا ، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق ، لتتقدمهم من ضلال الظلمة الى هداية النور . فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له . فانى رأيت جدك العباس فى المنام قلبنى سيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين »^١ .

وقد عمل الهادي بوصية أبيه المهدي ، فقد اشتد — حين تولى الخلافة — على الزنادقة ، فقتل كثيراً منهم ، وكان يقول : لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها ، حتى لا أترك منها عينا تطرف ! وأمر الهادي بأعداد ألف جذع لصلب جثث الزنادقة عليها . وأدت هذه الشدة الى اختفاء حركات الزندقة فى عهد هارون الرشيد والأمين والمأمون ، ثم عودتها الى الظهور فى صورة خطيرة فى عهد الخليفة المعتصم .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٨٨

سياسة المهدي الخارجية

علاقات المهدي ببلاد المغرب :

فتح الأمويون بلاد المغرب ، وبنوا فيها مدينة اسلامية جديدة ، هي مدينة القيروان ، التي أصبحت حصن الاسلام ، ومركزا للعرب المسلمين ، توسعوا منه غربا حتى بلغوا شواطئ المحيط الأطلسي ، ثم عبر المسلمون مضيق جبل طارق وفتحوا شبه جزيرة أيبيريا التي أصبح اسمها بعد الفتح العربي الاسلامي بلاد الأندلس .

ولم يكن فتح المغرب سهلا ، فقد قاوم البربر الفتح العربي ، ولكنهم بعد فترة بدأوا يعتنقون الاسلام ويتعربون ، واستمر الولاة العرب على سياسة تعريب البربر ، وادماجهم في جيوشهم ، وتولييتهم المناصب الحكومية . وبرز منهم قواد عظماء مثل طارق ابن زياد فاتح الأندلس .

ولكن صلات الصداقة بين العرب والبربر لم تدم طويلا ، لأن البربر رأوا أنهم لم يكافأوا على ما قدموه من خدمات ، كما كانوا يؤملون . ورغم اعتناقهم الاسلام لم يعاملهم العرب معاملة تنم عن المساواة . ولذا اعتنق البربر مذهب الخوارج ،

لأنه كان يلائم نزعاتهم الديموقراطية ، وأخذوا يشيرون الفتن والقلق في وجه العرب طوال العصر الأموي ^١ .

وخفّت حدة مقاومة البربر للحكم العربي الاسلامي في العصر العباسي وان لم تختف تماما . فقد كانت الدولة العباسية تساوي بين العناصر العربية والعناصر الأخرى غير العربية ، بينما كانت الدولة الأموية عربية تماما ، تتعصب للعروبة ، ولكل ما هو عربي .

حدثت قلاقل وثورات في بلاد المغرب في عهد أبي جعفر المنصور ، فقد ثار عليه واليه بالمغرب محمد بن الأشعث ، فولّى حكم هذه البلاد الأغلب بن سالم ، فقدم الى القيروان سنة ١٤٨ هـ . وثار البربر على الأغلب وقتلوه على أبواب القيروان سنة ١٥٠ هـ . واعتنق البربر مبادئ الخوارج . وولى المنصور أبا جعفر عمر بن حفص ، في سنة ١٥١ هـ ، فنجح في القضاء على الثورة ، وهدأت الأمور نحو ثلاث سنين ، ثم عادوا الى الثورة ضد عمر بن حفص ، فبعث المنصور جيشاً يتألف من ستين ألف فارس سنة ١٥٤ هـ نجح في اخماد الثورة تماما ، فعاد الأمن والسلام مرة أخرى الى بلاد المغرب ^٢ .

ولذا هدأت الأمور في بلاد المغرب طوال خلافة المهدي ، فلم تهم فتن أو ثورات ، وشعر أهلها بالطمأنينة والهدوء . وكان من أبرز جوانب سياسة المهدي أن يحفظ التوازن بين العناصر

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ١٧٦

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٥٦

العربية والعناصر غير العربية ، تلافياً لخطر الصدام بين طبقات المجتمع الاسلامى فى الدولة العباسية . ولم تعد الفتن والقلاقل الى المغرب الا بعد وفاة المهدي بسنوات .

العلاقات بين المهدي وبلاد الأندلس :

نجح العباسيون فى القضاء على الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ ، وبدأ عهد الدولة العباسية . وتتبع أبو العباس ، أول الخلفاء العباسيين ، أفراد الأسرة الأموية بالقتل والتنكيل ، ونجح أحد الأمويين ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، المعروف بالداخل ، فى الهرب من أيدي أبى العباس ، ولجأ الى بلاد الأندلس ، آخر حدود الدولة الاسلامية فى الغرب ، حيث أنشأ دولة أموية جديدة . وأصبحت الدولتان العباسية فى المشرق والأموية فى الأندلس فى عدااء وخصام .

وأخذت الدولة العباسية تناهض الدولة الأموية فى الأندلس وتعمل على القضاء عليها . فقد التقى جيش عباسى بقيادة العلاء ابن مغيث اليحصبى ، قدم من افريقية ، بجيش عبد الرحمن الداخل فى نواحي اشبيلية ، انتهت بانتصار الأمير الأموى^١ .

ولا شك أن انسلاخ بلاد الأندلس عن الدولة العباسية قد فتّ فى عضدها . ولم يتمكن أبو جعفر المنصور من إعادة سلطان العباسيين الى هذه البلاد ، فعمل على استمالة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٠٠

عبد الرحمن ، وأرسل اليه الرسل . وكثيرا ما كان يظهر إعجابه به وبمقدرته ، وعزيمته التي جعلته وهو شريد طريد يستطيع أن يؤسس هذا الملك الواسع في تلك البلاد البعيدة ، وكان المنصور يسمى عبد الرحمن (صقر قریش)^١ .

وأخفت سياسة المنصور في التقرب من عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس الأموي ، ورأى أن يكيد له بأن يتحالف مع أعدائه ، فأرسل سفرائه الى بلاط (بين) ملك الفرنجة ، وطلب منه أن يساعده ضد عبد الرحمن الداخل ، وأقام سفراء المنصور في بلاط (بين) عدة سنين ، ثم عادوا الى بغداد وفي رفقتهم بعض سفراء الفرنجة الذين عادوا الى بين بالهدايا الفاخرة التي تمثل الحضارة العباسية الزاهرة . ولكن هذه الصلات الدبلوماسية لم تؤد الى نتيجة مثمرة ، سوى ما ولدته في نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على الدولة الأموية بالأندلس ، كما كف عبد الرحمن عن أن يتخذ عداؤه للخليفة العباسي شكلا ايجابيا حرييا .

ولذلك نرى أن المنصور ، وان كان لم ينجح في القضاء على عبد الرحمن الداخل في الناحية الحربية ، فانه قد نجح الى حد بعيد في الناحية السياسية ، ووضع أسس السياسة التي سار عليها أبناؤه فيما بعد^٢ .

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٨٢

(٢) المصدر السابق .

وصف المرحوم الشيخ الحضري^١ الموقف بين المنصور والمهدي وبين عبد الرحمن الداخل فقال : كما كان منظر الخلافة في داخل المملكة باهرا ، كان كذلك مظهرها في نظر الأمم الأخرى ، إلا أنه يؤسف له سوء العلاقة بين الخلافة المشرقية ببغداد وبين أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل ، فقد كان المنصور والمهدي يهتمان بأمره ويودعان إزالة دولته ، ولكن الشقة بين الرحلتين بعيدة ، فلم يمكن واحدا منهما أن يجرد له جيشا يخترق صحارى افريقية ويغزوه في بلاد الأندلس ، فاكتفى كل من الفريقين بمعاداة الآخر .

تحدث المؤرخ ابن الأثير عن العداء بين المهدي وبين عبد الرحمن الداخل فقال : ان المهدي وجّه عبد الرحمن بن حبيب الفهري الى بلاد الأندلس ، فسار من افريقية وعبر البحر ، وكتب الى سليمان بن يقطان بـرشلونة ، يحثه على الدخول في طاعة العباسيين . فلم يجب سليمان طلبه ، فثارت ثائرة الفهري ، وطرد الداخل الغالة من جنده ، وأحرق سفنه ليحول ذلك دون هربه على أن قائد المهدي تحصّن بناحية بلنسية وصمد للأمويين ، وأوقع الرعب في قلوبهم ، وبذل عبد الرحمن الداخل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاقتفى أثره رجل من البربر وتتبع خطواته حتى عثر عليه وقتله غيلة وحمل رأسه الى أمير بلاد الأندلس .

وروى المؤرخ الطبرى^١ أن المهدي وعبد الرحمن الداخل تبادلا رسائل حوت قذفاً وشتماً . فقد روى الطبرى عن هشام الكلبى أنه قال : « بينا أنا فى منزلى منذ أيام بين الظهر والعصر ، اذ أتانى رسول المهدي فسرت اليه ودخلت عليه وهو جالس خال ليس عنده أحد وبين يديه كتاب ، فقال : ادن يا هشام . فدثوت فجلست بين يديه . فقال : خذ هذا الكتاب فاقراه لا يمنعك ما فيه مما تستفظعه ، فألقيته من يدي ، ولعنت كاتبه . فقال لى : قد قلت لك ان استفظعته فلا تلقه ، اقرأه بحقى عليك حتى تأتى على آخره . فقرأته ، فاذا كتاب قد ثلبه فيه كتابه ثلثاً لم يبق له فيه شيئاً . فقلت : يا أمير المؤمنين ، من هذا الملعون الكذاب ؟! قال : هذا صاحب الأندلس . قلت : فالثلب والله يا أمير المؤمنين فيه وفى آبائه وفى أمهاته . ثم اندرات أذكر مثالبهم ، فسرّ بذلك وقال : أقسمت عليك لما أملت مثالبهم كلها على كاتب ودعا بكاتب من كتّاب السرّ فأمره فجلس ناحية وأمرنى فصرت اليه . فصدّر الكاتب من المهدي جواباً ، وأملت عليه مثالبهم ، فأكثرته ، فلم أبق شيئاً حتى فرغت من الكتاب ، ثم عرضته عليه ، فأظهر السرور ، ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم وجعل فى خريطة ، ودفع الى صاحب البريد وأمر بتعجيله الى الأندلس . ثم دعا لى بمنديل فيه عشرة أثواب من جياذ الثياب وعشرة آلاف درهم

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٩٥

وهذه البغلة بسرجهما ولجامها فأعطاني ذلك وقال لى : اكنتم ما سمعت . » .

العلاقات بين المهدي ودولة الفرنجة :

أدى تطور الأحداث الداخلية فى كل من بلاد الأندلس ودولة الفرنجة الى دخول العلاقات بين العرب والفرنجة فى دور جديد . ففى بلاد الأندلس انتهى عصر الولاة بنهاية الدولة الأموية فى المشرق وقيام الدولة العباسية ، فقد أخذ العباسيون ينكلون بأبناء البيت الأموى ، ونجح أحدهم — كما شهدنا — فى الفرار الى الأندلس ، وهو عبد الرحمن الداخل ، حيث نجح فى انشاء امارة أموية مستقلة .

تولى (بين) الحكم فى دولة الفرنجة ، وبدأ يعمل على القضاء على البيت الميروفنجى ، واستعان بالبابوية فى روما ، وأعلن نفسه ملكا ، وأعلن نهاية حكم الميروفنجين وبداية حكم البيت الكارولنجى نسبة الى (كارل) أى (شارل مارتل) . وبدأ (بين) يعمل على اجلاء العرب عن اقليم سبتمانية واخضاع الأمراء الفرنجة المواليين للعرب ١ .

فقد أدرك (بين) خطورة وجود العرب فى فرنسا على الدولة الكارولنجية ، وأراد (بين) الاستفادة من النزاع الداخلى الذى كان سائدا حينئذ فى بلاد الأندلس ، كما عمل

(١) انظر كتابنا (العرب فى أوروبا) ص ٣٤

على الاستفادة من الصراع التقليدي بين الدولة العباسية في المشرق ، والدولة الأموية في الأندلس .

شعر المنصور بالأسف اذ أفلت عبد الرحمن الداخل من قبضة العباسيين ، ثم نجح في اقتطاع جزء كبير من الدولة العباسية ، ونجح في انشاء دولة أموية جديدة تناوىء الدولة العباسية ، وكان البيت العباسي الهاشمي ، والبيت الأموي في صراع أبدي منذ العصر الجاهلي . وبعث المنصور — كما مر — بنا — بسفرائه وهداياہ النفيسة الى (بين) وحرّضه على قتال الأمير الأموي ، ولكن لم يكن ذلك سهلا ميسورا ، ورأى (بين) أن من مصلحة دولته أن يوثق صلته بالدولة العباسية ، فتبادل مع الخليفة السفراء والهدايا . واضطر عبد الرحمن الداخل الى أن يحد من عدائه للمنصور حتى لا يواجهه عدوين قويين .

واستمر المهدي على سياسة أبيه ، فقد أبدي عداءه لعبد الرحمن الداخل أمير الأندلس ، ووثق صلاته بملك الفرنجة . وكان عهد المهدي مرحلة انتقال في العلاقات بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة ، فقد توثقت الصلات بين ابنه هارون الرشيد وشرلمان ملك الفرنجة ، فتبادلا السفراء والهدايا الفاخرة ، وعقدا معاهدات تجارية بين الدولتين ، وبدأ اطلاق الفرنجة على التراث العربي ، وأرسل الرشيد مفاتيح كنيسة بيت المقدس الى شرلمان . وقد أدى عداء الفرنجة للدولة البيزنطية من جهة ، وللدولة الأموية بالأندلس من جهة أخرى ،

الى توثيق صلات الفرنجة بالعباسيين ، وقد كانت الدولة العباسية على عداء مستمر للدولة البيزنطية وامارة الأندلس .

الصراع بين المهدي والدولة البيزنطية :

لم تنقطع الحرب بين العرب والروم منذ ظهور الاسلام . فقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات : المرة الأولى في عهد عثمان بن عفان ، والثانية في عهد معاوية بن أبى سفيان ، والثالثة في عهد سليمان بن عبد الملك . وقد أضعفت الحروب الأهلية قوة العرب في أواخر الدولة الأموية ، فاتخذ قسطنطين الرابع امبراطور الدولة البيزنطية من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن الاغارات على البلاد الاسلامية المتاخمة لبلاده .

ولما انتقل الحكم الى العباسيين تغيرت صورة الصراع الحربى بين العرب وبين البيزنطيين ، وأصبحت عبارة عن اغارات ، الغرض منها الهدم والتخريب . وهذا يخالف ما كانت عليه الحال في أيام الأمويين ، الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ، ابتغاء احتلال القسطنطينية . ولا شك أن السبب فى ذلك يرجع الى عاملين هامين : أولهما : مناوأة أهالى بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين ، حتى ان عبد الرحمن الداخل فكر فى إعادة هذه البلاد الى سلطان الأمويين ، واعتمد فى تحقيق سياسته على ولاء أهالى بلاد الشام لبنى أمية . وثانيهما : عدم اهتمام

العباسيين بإنشاء أسطول قوى فى البحر المتوسط يضارع
أسطول الأمويين من قبل ، واعتمادهم على الجيوش البرية دون
القوات البحرية ١ .

كان خط الحدود بين الدولتين العباسية والبيزنطية يتكون من
سلسلتى جبال طوروس بمعقلها وحصونها ذات المكانة الحربية
الاستراتيجية الممتازة لوقوعها عند تقاطع الطرق التى تخترق
تلك السلسلة الجبلية الضيقة . وحرص كل من المسلمين والروم
على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة للهجوم
أو الدفاع . فوضع الروم منطقة الأطراف التى واجهت أراضي
الدولة الإسلامية التى سُميت باسم منطقة الممرات أو الثغور
تحت إشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور .

وكان هذا الخط الدفاعى يسير على امتداد جبال طوروس
من الفرات الأعلى الى حدود قيليقيا ، وينقسم الى قسمين :
الأول يمتد من ملطية الى عين زربة ، وكان مخصصا لدفع
الغارات الإسلامية الآتية من شمال العراق . وأهم حصون
هذا القسم ملطية التى تقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المؤدية
من سبيسطة أو سيواس وقيصرية الى أرمينيا وشمالى العراق .
ويعبر هذا الطريق من ملطية الى مرعش عبر جبال طوروس بقلعة
زبطرة . أما القسم الثانى من خط دفاع الروم فكان يواجه

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ١٨٥

الشام ومهمته الدفاع عن أراضى الروم ضد الحملات
الشامية^١.

وقد بدأ البيزنطيون يشنون اغاراتهم على أراضى الدولة
العباسية فى عهد أبى جعفر المنصور ، فغزا قسطنطين الرابع
بعض أراضى الشام سنة ١٣٧ هـ ، واستولى على ملطية وخرَّب
حصونها . غير أن العرب تمكنوا من استردادها فى السنة
التالية ، ورمموا حصونها ، وأقاموا فيها حامية كبيرة .

تحدث المؤرخ ابن الأثير عن هذه الغزوة فى حوادث
سنة ١٣٩ هـ ، فقال : « وغزا مع صالح بن على (العباسى)
أخته أم عيسى ولبابه بنتا على ، وكاتتا نذرتا ان زال ملك
بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله ... وكان الفداء بين المنصور
وملك الروم ، فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من
الروم ، وبنها وعمرها ، وردَّ إليها أهلها ، وندب إليها جندا
من أهل الجزيرة ، فأقاموا بها وحموها . ولم يكن بعد ذلك
صائفة فيما قيل الا سنة ١٤٦ هـ لاشتغال المنصور بابنى
عبد الله بن الحسن بن على (وهما الثائران العلويان) .
ويقصد ابن الأثير بالصائفة أن الغزو كان فى الصيف ، أما
الشواتى فهى الحروب بين العرب والروم فى فصل الشتاء^١ .

فقد كان للمسلمين أوقات معينة يغيرون فيها على أراضى

(١) العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٨٩

(٢) الكامل ج ٥ ص ١٢٧ ، تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٨٥

دولة الروم ، فتحدث بعض الاغارات في فصل الربيع والصيف وتسمى الصوائف ، وأخرى في الشتاء وتسمى الشواتى . فغزو الربيع يبدأ من منتصف مايو حيث تكون الخيول قد سمت وقويت من رعيها في كلاً الربيع ومراعيه ، ويستمر الغزو ثلاثين يوماً أى الى منتصف الشهر التالى . وفى هذه الاغارات تجد الخيول غذاء وفيراً فى مراعى الروم التى تمر بها . ثم يجنح المسلمون الى السكينة ويريحون خيولهم من منتصف يونيو الى منتصف يوليو حيث تبدأ اغارات الصيف ، وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوماً .

أما اغارات الشتاء ، فلم يقدم المسلمون عليها الا فى حالات الضرورة القصوى ، دون أن يعنوا فى التوغل داخل أراضى الروم . فلم تستغرق الشواتى أكثر من عشرين يوماً ، يأخذ فيها الجند مؤنهم الضرورية التى تقوم بأودهم خلال هذه الأسابيع الثلاثة . وكانت تلك الشواتى تقع عادة فى الفترة ما بين أواخر فبراير وال نصف الأول من مارس^١ .

وكانت الحرب بين العباسيين والبيزنطيين تشتعل من حين الى حين حتى سنة ١٥٥ هـ ، حيث طلب الامبراطور قسطنطين الرابع الصلح مع العباسيين ، على أن يؤدى لهم جزية سنوية . وقرأ فى الطبرى عن الصوائف فى سنة ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ هـ ، وذلك فى أواخر عهد الخليفة المنصور .

(١) الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٩٥

وفي سنة ١٥٩ هـ خرج الخليفة المهدي على رأس جيش كثيف لغزو بلاد الروم ، ووصل الى بردان وعسكر به ، وأرسل العباس بن محمد فنجح في الوصول الى أقرة . وفي سنة ١٦١ هـ ، تولى قيادة الصائفة ثمامة بن الوليد ، الذي زحف بجيشه حتى نزل دابق ، والتقى بجيش الروم الذي بلغ عدده ثمانين ألفا ، فلم يحفل به ثمامة اغترارا بقوته وكثرة جنده وهزم الروم على مقربة من مرعش التي حاصرها ، ولكن الدائرة دارت عليه وقتل كثير من جنده .

وقوى الروم بهذا الانتصار ، فأغاروا على « الحدث » في سنة ١٦٢ هـ وهدموا سورها ، فولّى الخليفة المهدي أمر الصائفة قائده الحسن بن قحطبة ، الذي لم ينجح في الانتصار على الروم وعاد أدراجه .

وفي سنة ١٦٣ هـ ، احتفل المهدي بأمر الصائفة ، وولى أمرها ابنه هارون ، وفرض البعوث على جميع الأجناس من أهل خراسان وغيرهم ، وخرج المهدي مع الجيش حتى آتى (بردان) فأقام بها نحو من شهرين يتعباً ويتهاً ويعطى الجنود ، وأخرج صلات لأهل بيته الذين شخصوا معه ، وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات في عهد المهدي فتح الله عليهم فيها فتوحات كثيرة ، وأبلاهم في ذلك الوجه بلاء جميلاً ففتحوا حصن (سمالا) بعد أن أقاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة ، وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت ، وكان فتحها على ثلاثة

شروط ، ألا يقتل أهلها ، ولا يرحلوا ، ولا يفرق بينهم ، فأعطوا ذلك ، فنزلوا ، ووفى لهم هارون ، ثم قفل بالمسلمين سالمين إلا من كان أصيب منهم في سمالا^١ .

وفي سنة ١٦٥ هـ ، أعاد المهدي الكرّة على بلاد الدولة البيزنطية ، فجمع جيشا يبلغ نحو مائة ألف جندي ، وعبر نهر الفرات . ثم ولّى ابنه هارون قيادة الجيش ، فوصل هذا الجيش الى سواحل البسفور ، وأرغم الملكة (ايريني) أرملة (ليو الرابع) ، وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس ، على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنوية تقضى على دفعتين ، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء في الطريق عند عودتهم الى بلادهم ، وأن تسلم أسرى المسلمين . و انتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الفريقين لمدة ثلاث سنين . وبلغت هذه الحروب من الشدة بحيث ذهب بعض المؤرخين الى القول بأن عدد قتلى البيزنطيين بلغ ٥٤ ألفا والأسرى خمسة آلاف .

سجّل شاعر المهدي ، مروان بن أبي حفصة ، هذا الانتصار في قصيدة رائعة ، فهو يخاطب هارون الرشيد فيقول :

أطفت بقسطنطينيّة الروم مسندا

اليها القنا حتى اكتسى الذل سورها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها

بجزيتها والحرب تغلى قدورها

(١) الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ٩٢

تحدث الطبرى^١ عن شروط هذا الصلح ، وما غنمه المسلمون من البيزنطيين ، فقال : « والذي وقع عليه الصلح بينه - أى هارون بن المهدي - وبينها - أى ايرين - تسعون أو سبعون ألف دينار تؤديها في نيسان الأول في كل سنة ، وفي حزيران ، فقبل ذلك منها . فأقامت له الأسواق في منصرفه ووجهت معه رسولا الى المهدي بما بذلت ، على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعرض ، وكتبوا كتاب الهدنة الى ثلاث سنين ، وسلمت الأسارى ، وكان الذى أفاء الله على هارون الى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس ، وستمائة وثلاثة وأربعين رأسا ، وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألفا ، وقتل من الأسارى صبرا ألفان وتسعون أسيرا ، وممّا أفاء الله عليه من الدواب الذلل بأدرانها عشرون ألف دابة ، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس ، وكانت المرتزقة سوى المطوعة ، وأهل الأسواق مائة ألف ، وبيع البرذون بدرهم ، والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدرع بأقل من درهم ، وعشرون سيفاً بدرهم » .

وهذه الحملة هى التى رفعت ذكر هارون ، مما جعل أباه يلقبه بذلك اللقب المشرف (الرشيد) ويعيّنه ولياً ثانياً للعهد بعد أخيه الأكبر موسى الهادى .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٨٠ .

ولقد ثبت أن هذه كانت آخر مرة وقف فيها جيش عربى أمام أسوار العاصمة المتكبرة . ولقد كانت جملة الحملات التى وجهت الى بيزنطة أربع ، ثلاث منها أرسلت فى عهد الأمويين أرسلها معاوية بن أبى سفيان وسليمان بن عبد الملك ^١ .

وفى رمضان سنة ١٦٨ هـ ، أى قبل انقضاء مدة الهدنة ، تقض الروم الصلح وغدروا ، فوجه المهدي اليهم على بن سليمان ابن على وهو والى الجزيرة وقنسرين ، ويزيد بن بدر البطل فى سرية ، فردوا الروم وغنموا وظفروا .

وكان من أثر هذه الانتصارات التى أحرزها المهدي على البيزنطيين ، أن هابه الملوك ، وأرسل اليهم رسلا يدعونهم الى الطاعة ، فدخل أكثرهم فى طاعته ، ومنهم ملك كابل ، وملك طبرستان ، وملك السند ، وملك طخارستان ، وملك فرغانة ، وملك أشروسنة ، وملك سجستان ، وملك الترك ، وملك التبت ، وملك الصين ، وملوك الهند ^١ . كما كانت جهود المهدي التى أدت الى هزيمة البيزنطيين ، عاملا على بداية سلسلة طويلة من الانتصارات فى عهد ابنه هارون الرشيد .

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٧١

(١) انظر تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٧٩ ، تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٨٧

المهدى يغزو الهند :

ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند الى عهد بعيد ، فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول الى جوار ربه بخمس عشرة سنة . ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد الى القرن الثامن عشر الميلادى ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا ممالك كان لها أثر يذكر فى تقدم الحضارة الاسلامية . وفى عهد معاوية بن أبى سفيان غزا المهلب بن أبى صفرة بلاد السند سنة ٤٤ هـ ، وامتدت فتوحه الى الأراضى الواقعة بين كابل والملتان ، ثم امتدت فتوح المسلمين فى هذه البلاد ، فشملت البوقان والقيقان والدجيل . ثم واصل محمد بن القاسم فتوحه فى هذه البلاد حتى بلغ نهر السند ، وكان يعرف اذ ذاك بنهرمران . وهناك التقى بدهر ملك السند ، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتتلوا قتالا شديدا انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه .

ولما قامت الدولة العباسية ، ولّى أبو جعفر المنصور هشام ابن عمرو الثعلبى بلاد السند . وفى عهده فتحت كشمير ، وكانت قد انتقضت ، وهدم البدّ وهو مكان عبادتهم ، ويشبه الكنائس والبيع ، وبنى فى موضعه مسجداً^١ .

كان المسلمون يملكون الى نهر مران ، الفاصل بين السند والهند ، فأراد المهدى أن يغزو جيشه بلاد الهند ، فوجّه جيشاً

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٩٢

كثيفا بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعى ، ليغزو الهند بطريق البحر . وتحدثت الطبرى ^١ عن هذه الغزوة واستعدادات المهدي ، فقال : « وجّه عبد الملك بن شهاب المسمعى فى البحر الى بلاد الهند ، وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخصهم معه ، وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المراتبات ألفا وخمسمائة رجل ، ووجه معه قائدا من أبناء أهل الشام ، يقال له ابن الحباب المذحجى فى سبعمائة من أهل الشام ، وخرج معه من مطوعة أهل البصرة بأموالهم ألف رجل فيهم ، فيما ذكر الربيع بن صبيح ، ومن الأسواريين والسباييجه أربعة آلاف رجل ، فولى عبد الملك بن شهاب المنذر بن محمد الجارودى الألف رجل المطوعة من أهل البصرة ، وولى ابنه غسان بن عبد الملك الألفى رجل الذين من فرض البصرة ، وولى ابنه عبد الواحد بن عبد الملك الألف والخمسمائة رجل من مطوعة المراتبات ، وأفرد يزيد بن الحباب فى أصحابه ، فخرجوا ، وكان المهدي وجّه لتجهيزهم حتى شخصوا أبا القاسم محرز بن ابراهيم ، فمضوا لوجههم حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند فى سنة ١٦٠ هـ . »

وصل جيش المهدي الى مدينة باربد من بلاد الهند سنة ١٦٠ هـ ، فحاصروها بعد قدومهم بيوم ، وأقاموا محاصرين لها يومين ، فنصبوا المنجنيق وآلات الحصار ، وتحاشد الجند

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٥٣

العباسيون ، وحض بعضهم بعضا ، حتى فتحوها عنوة ، ودخلت
خيولهم من كل ناحية الى المدينة ، وانكمش أهالى البلدة على
أنفسهم ، وأشعل العباسيون النيران والنفط ، وغلبوا أهلها
على أمرهم . ولم يقتل من المسلمين فى هذه المعركة الا بضعة
وعشرون رجلا . وأقام العباسيون فى هذه المدينة حتى يطيب
لهم 'الريح فيواصلون غزوهم ، ولكن تفشى بينهم عدة أمراض
قضت على نحو ألف جندي ، واضطروا الى الانسحاب الى
ساحل من سواحل فارس ، يقال له بحر حمدان ، فعصفت عليهم
فيه الريح ، فكسرت كثيرا من سفنهم ، فغرق منهم بعض ،
ونجا البعض الآخر . ويعلق الخضرى على هذه الغزوة فيقول :
ويظهر أن هذه الغزوة ليست الا اغارة لا عملا يقصد به توسيع
المملكة ١ .

نصير الدين والعلم

ال خليفة المتدين :

يجمع المؤرخون على أن الخليفة المهدي كان من أعظم الخلفاء ، أمويين أو عباسيين ، تدينا ، وتمسكا بتعاليم الاسلام الرشيدة . فقد كان المهدي تقيا ورعا متواضعا ، تميز بأخلاق كريمة سمحة ، يعفو عن أعدائه ويغفر لهم هفواتهم ، كما كان كريما يثمدق الأموال على رجاله وسائر رعاياه ، وحاكما عادلا ، يحرص على تحقيق الرخاء لشعبه ، ويخفف الضرائب والأعباء عن كاهلهم ، غيورا على الاسلام ، فقد تتبع الزنادقة والملحدين بالقتل والسجن ليكونوا عبرة لغيرهم .

تحدث السيوطي^١ عن تدين المهدي ، فقال « وكان جوادا ممدحا ، مليح الشكل ، محبا الى الرعاية ، حسن الاعتقاد ، تتبع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقا كثيرا ، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين » .

اهتم المهدي ، مثله مثل سائر الخلفاء العباسيين ، بصبغ الدولة العباسية في جميع نواحيها بصبغة دينية . فقد كان الأمويون — باستثناء الخليفة عمر بن عبد العزيز — لا يتصلون

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧١

برجال التشريع ورجال الدين على العموم اتصالا وثيقا ، الا في أحوال نادرة ، بل قصر الخلفاء أنفسهم على النواحي السياسية مع قمع الثورات الداخلية والفتوحات الخارجية ، وتنظيم شؤون الدولة المالية ، وما الى ذلك ، وتركوا العلماء يدرسون ويفتون ، وعيّنوا القضاة وتركوهم يقضون بما يرون ، كأن السياسة منفصلة عن الدين ، وكأن وظائفهم سياسية بحتة .

حتى اذا سقطت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية ، صبغ الخلفاء العباسيون دولتهم بصبغة دينية ، ورأينا النزعة الدينية عند الخلفاء العباسيين الأولين واضحة جلية ، ورأينا اتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين أقوى وأوضح ، فأبو جعفر المنصور يقرب العلماء ويصلهم ، ويهتم بتربية ابنه تربية دينية وينصحه ويعظه ، ورأينا المهدي يشتد على الزنادقة وينشئ ديوانا للبحث عنهم والتنكيل بهم ، ويعمل على توعية الناس حتى لا يتأثروا بآراء الزنادقة ، وتمسك المهدي بتعاليم الدين ، وعقد مجالسا حضرها الفقهاء والعلماء ، وكان المهدي راوية من رواة الأحاديث النبوية ، وغير ذلك مما سنراه مفصلا في هذا الفصل .

فقد أراد الخلفاء العباسيون ألا يكونوا سياسيين فحسب ، بل سياسيين ودينيين معا . وقد كان لاتجاه العباسيين هذا الاتجاه أثر واضح في التشريع ، وهو صبغ أعمال الدولة كلها بصبغة دينية ، فنظام الرى ، ونظام الضرائب ، وحفر الترع ، وجباية الأموال ، ونظام الدواوين ، كلها مسائل دينية ، يضع

الفقهاء كتباً حولها ، ويشتفتى فيها الفقهاء ، ويجتهدون فيها
اجتهاداً دينياً . وهكذا كل ما دق من الأمور وعظم مرجعه فتوى
المفتين وقضاء رجال الدين ، وهذا — من غير شك — يجعل
مهمة الفقهاء واسعة النطاق ^١ .

روى السيوطى ^٢ رواية تدل على تقوى المهدي وحبّه
لرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وأسند عن ابراهيم
ابن زافع أن قوماً من أهل البصرة تنازعوا اليه في نهر من أنهار
البصرة ، فقال : ان الأرض لله في أيدينا للمسلمين ، فما لم يقع
له ابتياع منها يعود ثمنه على كافتهم وفي مصلحتهم ، فلا سبيل
لأحد عليه . فقال القوم : هذا النهر لنا بحكم رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، لأنه قال (من أحيا أرضاً ميتة فهي له) ، وهذه
موات ، فوثب المهدي عند ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم
حتى ألصق خده بالتراب وقال : سمعت لما قال وأطعت ، ثم
عاد ، وقال : بقى أن تكون هذه الأرض مواتاً حتى لا أعرض
فيها ، وكيف تكون مواتاً والماء محيط بها من جوانبها ؟ فان
أقاموا البيّنة على هذا سلمت » .

روى الطبرى ^٣ قصة توضح إيمان المهدي ، وتوجهه بالدعاء
الى الله في كل شدة من الشدائد ، فقد روى : « قال الحسن
الوصيف : أصابتنا ريح في أيام المهدي حتى ظننا أنها تسوقنا

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٦٣

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧

(٣) الطبرى ج ٦ ص ٣٨٦

الى المحشر فخرجت أطلب أمير المؤمنين ، فوجدته واضعا خده على الأرض ، يقول : اللهم احفظ محمدا في أمته ، اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم ، اللهم ان كنت أخذت هذا العالم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك . قال : فما لبثنا الا يسيرا حتى انكشفت الريح وانجلي ما كنا فيه .

وكان المهدي يتأثر بالقرآن الكريم . فقد كان أمر بسجن موسى بن جعفر العلوي ، ثم حدث أن قرأ في صلاته (فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) ، فأتته صلاته والتفت الى حاجبه الربيع وأمره باحضار موسى ، فلما جىء به قال له : يا موسى انى قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لى أنك لا تخرج على . فقال : نعم . فوثق له فخلاه .

ومن الأخبار الطريفة التى رويت عن المهدي ، أنه كان حريصا على الأخلاق والتمسك بالفضائل ، حتى أنه كان يشجع الشباب على الزواج ، كما كان يحسن الى المتعفين من هؤلاء الشباب .^١

وروى الطبرى أن المهدي أمر بالصوم فى سنة ١٦٦ هـ ليستسقى للناس فى اليوم الرابع ، فلما كان فى الليلة الثالثة أصابهم الثلج ، فأنشد لقيط بن بكير المحاربى فى ذلك :

يا امام الهدى ستقينا بك الغيث و زالت عنا بك اللأواء
بت تعنى بالحفظ والناس ثوًا م عليهم من الظلام غطاء
رقدوا حيث طال ليلك فيهم لك خوف تضرع وبكاء

حقيقة شرب المهدي النبيذ :

كان الخليفة المنصور لا يحب الشراب ، ولا يسمح بشرب
الخمر على مائدته . ولما قدم بختيشوع الطبيب ، أمر المنصور
بطعام لغذائه . فلما وضعت المائدة بين يديه طلب شرابا ، فقيل
له : لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين . فقال : لا آكل طعاما
ليس معه شراب . فأخبر المنصور بذلك ، فقال : دعوه .

لم يشرب الخليفة المهدي الخمر ، كما كان يشربها غيره من
الخلفاء الأمويين والعباسيين ، ولكنه شرب النبيذ مرات قليلة ،
تكاد تكون نادرة ، دون أن يحب شربه أو يقبل عليه . فيروى
الطبري ^١ : « وكان المهدي لا يشرب النبيذ الا تخرجنا ، ولكنه
كان لا يشتهي » .

وقد اختلف الفقهاء في تحليل أو تحريم النبيذ . فقد تناول
بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين النبيذ وقالوا انه غير محرم ،
ووافقهم على ذلك بعض فقهاء العراق ، بينما كان فقهاء الحجاز
يحرمونه ، مثله مثل سائر أنواع الخمر . وقد بحث ابن عبد ربه
هذه المسألة في كتابه (العقد الفريد) ^٢ ، ثم ذكر أن تحريم الخمر

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٨٦

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ٣٥٢

مجمع عليه بحيث انه لا اختلاف فيه بين اثنين من الأئمة والعلماء .
ولكن النيذ كان موضع الاختلاف . ثم ذكر ابن عبد ربه أن
الخمير حرّمه القرآن ، والنيذ قد حرّمه السنة ، وما كان محرّما
بالكتاب فلا يحل منه لا قليل ولا كثير . وما كان محرّما بالسنة
فإن فيه فسحة أو في بعضه . فقال البعض : قد جعل الله فيما أحل
عوضا مما حرم ، فحرّم الربا وأحل البيع ، وحرم السفاح وأحل
النكاح ، وحرم الديباج وأحل الوشي ، وحرّم الخمير وأحل
النيذ غير المسكر . ولذا ذهب بعض الناس الى أن نيذ التمر
ليس خمرا .

أجمع فقهاء الحجاز على تحريم النيذ ، بينما أحل بعض
فقهاء العراق شربه . ويذكر (جولد تسيهر)^١ أن الفقهاء في
المشرق أعملوا ذكاءهم ليحدثوا من دائرة هذا المنع الذي يتّسع
لأشربة أخرى ، وذلك بواسطة التفسير ، فسعوا الى اثبات أنه
فيما عدا خمير العنب لا تحرّم الأشربة الأخرى مثل نيذ التفاح
والتمر .

تساءل الناس كثيرا في العراق : ما المراد بالخمير ؟ أهى عصير
العنب وحده ، أم كل مسكر خمير ؟ وظهر في عالم الفقه (مسألة
النيذ) . وذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل
الى سد الباب بتاتا ، ففسروا الخمير بما يشمل جميع الأنبذة
المسكرة من نيذ التمر والزبيب والشعير والذرة والعسل

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٦١

وغيرها ، وقالوا : كلها تسمى خمرا ، وكلها محرمة . أما الامام أبو حنيفة ففسر الخمر في الآية القرآنية التي حرمتها بعصير العنب مستندا الى المعنى اللغوي لكلمة الخمر وأحاديث أخرى ، وأداه اجتهاده الى تحليل بعض أنواع من الأنبذة كنبذ التمر والزبيب ان طبخ أدنى طبخ وشرب منه قدر لا يسكر ، وكذلك نبذ العسل والتين والبر والعسل ^١ .

كان النبيذ في العصر العباسي يصنع من أنواع عديدة من الفاكهة ، وخاصة العنب والتمر والزبيب والتفاح والمشمش ، ومن الذرة ، ويختلف باختلاف طرق صناعته ، فقد يكون عصير بعض ثمار الفاكهة أو منقوعها ، وقد يضيفون اليه العسل ثم يضعوه على النار ، وكانوا اذا أقبلوا على شربه صفّوه ، وتناولوه في أقداح كبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه فيما بعد ^٢ .

كان المهدي — كما روى الطبري — يشرب النبيذ في أوقات نادرة ، مضطرا اليه ، أمّا لارضاء بعض جالسيه ، أو مشاركة لهم في سمرهم ، وكان غالبا لا يشرب النبيذ ، وإنما يسمح لأصحابه بشربه في مجلسه ، وكان وزير المهدي يعقوب بن داود يشير عليه بالألا يسمح لأصدقائه بشرب النبيذ في مجلسه .

قال الوزير يعقوب بن داود : « وكان أصحابه — أي أصحاب المهدي — عمر بن بزيع والمعلّى مولاه والمفضل ومواليه يشربون عنده بحيث يراهم ، وكنت أعظه في سقيهم النبيذ وفي

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ١٢٤

(٢) انظر كتابنا (الحضارة العربية الاسلامية) ص ٢١٦

السمع وأقول انه ليس على هذا استوزرتنى ولا على هذا صحبتك ، أبعد الصلوات الخمس فى المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ وتسمع السماع ؟ فكان — أى المهدي — يقول : قد سمع عبد الله بن جعفر . قلت : ليس هذا من حسناته « ١ » .

هذه هى رواية الطبرى ، نقلها عن يعقوب بن داود وزير المهدي ، ونحن لا نعتقد فى صحتها ، فقد ساءت العلاقات بين المهدي ويعقوب ، اذ أقدم المهدي على قتل ابن الوزير لاثامه بالزندقة ، ثم عزل الوزير من منصبه . مما أثار أحقاد الوزير على المهدي . ومهما كان رأى ، فهذا الوزير ينفى عن المهدي شربه الخمر أو النبيذ ، ويقصر اثاره للمهدي على أنه سمح لأصحابه بشرب النبيذ فى مجلسه . ونحن نعتقد أن المهدي لم يكن يشرب النبيذ على وجه الاطلاق ، لما لمسناه منه دائماً من تدبث وتقوى وورع وتمسك بتعاليم الاسلام ، فى حياته العامة والخاصة .

ومن الأدلة التى نسوقها على صحة رأينا ، ما رواه الأصفهاني فى كتابه الأغاني ، فقد كان المهدي يستمع الى غناء ابراهيم الموصلى ويطلب لغنائه ، حتى اذا علم المهدي أن الموصلى يفرق فى شرب الخمر ، نهاه عن ذلك ، وأمره بالكف عن شرب الخمر ،

حتى اذا عصا الموصلى أمره ، أمر بضربه ثلاثمائة سوط ، وقيّده
وحبسه^١

اهتمام المهدي بالأماكن المقدسة :

اهتم المهدي بالأماكن المقدسة في مكة والمدينة . وقد رأينا
اهتمام المهدي بإنشاء البريد بين مكة والمدينة وبين بلاد اليمن
جنوباً وبلاد العراق شمالاً . فأنشأ محطات البريد ، وزود الطريق
بالماء ليرتوى منه الحجاج . كما اهتم المهدي بشئون الحج ،
وتيسيره على المسلمين ، وكانت مواكب الحج التي تخرج الى
الحجاز أعظم المواكب التي شهدتها بلاد العراق . كما حرص
المهدي على التوسيع على أهالي مكة والمدينة ، فزاد من
أعطياتهم وأغدق عليهم الصلوات والمنح .

وعمل المهدي على احياء السنة النبوية ، فأمر بنزع المقاصير
من المساجد الجامعة ، وتقصير المنابر وتصييرها الى المقدار الذي
عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم^٢ . وكان معاوية بن
أبي سفيان قد ابتدع المقصورة فكان يصلى فيها هو وكبار
رجال حاشيته ، فقد شهد مصرع الخليفين عمر بن الخطاب
وعلى بن أبى طالب فى المسجد أثناء الصلاة ، كما تعرض معاوية
لمحاولة لاغتياله فى المسجد ، وسار الخلفاء الأمويون وولاتهم فى
الأمصار الاسلامية على منواله فى اتخاذ المقاصير فى المساجد

(١) الاصفهاني : الأغاني ج ٥ ص ٥ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٦٨ .

الجامعة . ولكن المهدي أمر بإزالتها لأنها تتنافى مع الحكمة المقصودة من صلاة الجماعة ، حيث يتساوى المسلمون جميعاً أمام خالقهم .

وأمر المهدي بنزع المقصورة التي في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فنزعت ، وأراد أن ينقص منبر رسول الله فيعيده إلى ما كان عليه قبل إضافات معاوية بن أبي سفيان » فذكر عن مالك بن أنس أنه شاور في ذلك ف قيل له ان المسامير قد سلكت في الخشب الذي أحدثه معاوية ، وفي الخشب الأول ، وهو عتيق فلا تَأْمَنُ ان خرجت المسامير التي فيه وزعزعت أن يتكسر ، فتركه المهدي » ١ .

أكرم المهدي أهل المدينة ، فاختر خمسمائة رجل من الأنصار ، وصحبهم معه إلى حاضرتة بغداد ليكونوا حرساً خاصاً له وأنصاراً ، وأجرى عليهم أرزاقاً ، سوى أعطياتهم ، وأقطعهم عند قدومهم معه إلى بغداد قطيعة تعرف بهم . وتزوج المهدي خلال إقامته في المدينة بفتاة من أهلها هي رقية بنت عمرو العثمانية ٢ .

وأمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام ، فدخلت فيه دور كثيرة ، وتولى أمر ذلك يقطين بن موسى ، واستمر البناء حتى وفاة المهدي ٣ .

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٦٧

(٢) المصدر السابق .

(٣) الطبري ج ٦ ص ٣٩٠

نزع المهدي كسوة الكعبة التي كانت عليها ، وكساها
كسوة جديدة ، ويروى الطبري أن « حجة الكعبة فيما ذكر
رفعوا اليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من
الكسوة ، فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت
مجردة ، ثم طلى البيت كله بالخلوق وذكر أنهم لما بلغوا الى
كسوة هشام ووجدوها ديباجا تخينا جيدا ، ووجدوا كسوة من
كان قبله عامتها من متاع اليمن »^١ .

وامتد اهتمام المهدي الى سائر المساجد ، فقد أمر بالزيادة
في المسجد الجامع في البصرة ، فزيد فيه من مقدمه مما يلي
القبلة ، وعن يمينه مما يلي رحبة بنى سليم ، وتولى بناء ذلك
والى البصرة محمد بن سليمان^٢ .

واهتم المهدي بتكريم أهل مكة والمدينة ، فأمر بمد الأسطة
الحافلة بأحسن أنواع الطعام ، فأطعمهم الطير وخبز السميد ،
وجلب لهم الثلج من بلاد الشام ، بسبب ارتفاع الحرارة في بلاد
الحجاز ، وكانت هذه أول مرة يجلب فيها الثلج الى هذه البلاد
كما أسلفنا .

روى المؤرخ السيوطي^٣ أن المهدي استن سنة جديدة ،
فقال : « أسند عن الأصمعي قال : سمعت المهدي على منبر
البصرة يقول : ان الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٦٦

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٦٨

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٨

فقال : (ان الله وملائكته يصلّون على النبي) الآية ،
آثره بها من بين الرسل اذ خصّكم بها من بين الأمم . قلت :
وهو أول من قال ذلك في الخطبة ، وقد استنها الخطباء الى
اليوم » .

اهتمام المهدي برعاياه :

تجلّى اهتمام المهدي برعاياه في صور كثيرة ، فقد دفع
عنهم خطر حركات الزندقة ، ونصب ديوان المظالم وجلس للنظر
في مظالم رعاياه بنفسه ، وخفف من أعباء الضرائب ، واهتم
بالزراعة والصناعة والتجارة مما حقق الرخاء الاقتصادي ،
وأقام البريد بين الولايات الاسلامية ، واختار أحسن الوزراء
سيرة وعدلا ، ودقق في اختيار قواده وموظفيه ومعاونيه ،
واهتم بال عمران والانشاء ، فاتسعت بغداد في عهده ونمت
حضارتها ، وشجع العلماء والأدباء والفنانين . فلا عجب أن
أحبته الرعية ، مسلمون وذميون ، عرب وفرس ، أحرار
وأرقاء .

وهذه هي بعض روايات المؤرخين تدور كلها حول اهتمام
المهدي بشئون الرعية . فيقول ابن طباطبا ^١ : « وكان المهدي
ينظر في الدقائق من الأمور » كما قال أيضا : « في أيامه ظهرت
أبهة الوزارة » . وقال أيضا : « وكان يشاور في الأمور دائما » ،
وقال : « وكان يجلس في كل وقت لرد المظالم » .

(١) الفخرى ص ١٦٢ - ١٦٣

وتحدث المسعودي^١ عن حب أهالي الدولة العباسية للمهدي ، وعلل هذه المحبة في قوله : « وكان المهدي محباً الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وانصف المظلوم ، وبسط يده في الاعطاء » .

وروى السيوطي كثيراً من الروايات تدل كلها على حرص المهدي على تحقيق مصالح رعاياه . فروي أن المهدي كان يمر يوماً بموكبه في شوارع بغداد فسمع رجلاً يصيح منشداً هذين البيتين :

قل للخليفة : حاتم لك خائن
فَخَفَ الاله وأعفنا من حاتم
ان العفيف اذا استعان بخائن
كان العفيف شريكه في المآثم

فأمر المهدي بعزل كل عامل من عماله يتسمى باسم حاتم ، فقد كان من العسير على المهدي أن يصل الى حاتم هذا المشكو منه^٢ .

وحدث مرة أن اعترضت امرأة موكب المهدي ، فقالت :
يا عَصَبَةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر في حاجتي .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٢

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧

فقال المهدي لأصحابه : ما سمعتها من أحد قط ، اقضوا حاجتها ، وأعطوها عشرة آلاف درهم^١ .

وأمر المهدي بأن تقوم الدولة بالاتفاق على المجذومين والمسجونين ، وتوفير ضروريات الحياة لهم^٢ . وكانت الدولة قبل المهدي لا تتكفل بالمسجونين ، فكانوا يخرجون في كل صباح من سجنوهم وهم في قيودهم الحديدية ، الى الطرقات المجاورة للسجن ، يتسولون ، فيحسن الناس عليهم بما يسد رمقهم ، ولكنه كان مشهدا يدعو الى النفور . كما كان المجذومون عاجزين عن الكسب ، يلجأون الى التسول ، ويعرضون غيرهم للعدوى ، ولذا أمر المهدي بأن تعولهم الدولة ، وهذه هي صورة لانسانية المهدي .

أخذ الناس يشعرون بعد موت المنصور بشيء من الراحة ، وقد أجهدوا أنفسهم في عهده بما يتطلبه تأسيس دولة من مشقة ، وتذليل صعوبات جمّة ، وملوا الافراط في الجد والاقتصاد اللذين اتصف بهما المنصور ، وتطلعوا لحياة فيها سعة في المال ، وطرف من النعيم ، فوجدوا ذلك في الخليفة المهدي . وفي الحق ان السنوات العشر التي حكمها كانت جسراً بين حياة الجد والجفاف والعمل في عصر

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٧٣

المنصور ، و حياة الرفاهية والترف في عصر الرشيد ومن بعده ^١ .

المهدي نصير العلم :

اشتهر المهدي باقباله على العلم ، واكتساب ألوان مختلفة من الثقافة ، نتيجة نشأته العربية . فقد حرص أبوه المنصور على تعليمه وتثقيفه ، فقد كان يعدّه ليتولى الخلافة بعده ، ولذا عهد بتربيته الى أحد علماء عصره وهو المفضل الضبي .

أما المفضل ، فعربي من ضبة ، ومن أشهر علماء الكوفة ، يروون أنه خرج على المنصور مع ابراهيم بن عبد الله بن حسن ، فظفر به المنصور ثم عفا عنه ، وعهد اليه بتربية ابنه المهدي ، وقد اشتهر بالنحو ومعرفة الانساب وأيام العرب وروايته للشعر ، وعُرف بالصدق فيما يروي . مات سنة ١٦٤ أو ١٦٨ أو سنة ١٧٠ هـ على اختلاف في الروايات . وقد بقي لنا من أهم كتبه كتاب المفضليات ^٢ .

ألّف المفضل الضبي للمهدي أمثال العرب ، وجمع له مختارات شعرهم ، وكان يقول : ما تقرب الى أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هي أقرب من تذكيره اياي يد أسلفت مني اليه أتبعها أختها فأحسن ربها لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل . ومن أشهر انتاج المفضل كتابه (المفضليات) وهي مجموعة

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ١١١

(٢) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٠٦

من القصائد ، تحدث ابن النديم عنها فقال : « انه عملها للمهدى ، وهى مائة وثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص ، وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه ، والصحيحة هى التى رواها عنه ابن الأعرابى » . وما بين أيدينا الآن منها يحتوى على ١٢٦ قصيدة لسبعة وستين شاعرا ، منهم ستة عاشوا حياتهم كلها فى الاسلام ، وأربعة عشر مخضرمون عاشوا أكثر حياتهم فى الجاهلية ثم أسلموا ، وسبعة وأربعون عاشوا وماتوا فى الجاهلية .

وقد روى المفضل القصائد كلها كاملة ، فهى قصائد لا مقطعات ، كما فعل أبو تمام فى ديوان الحماسة ، فقد اختار من القصائد أجودها . أما المفضل فاختر من الشعر أجوده قصائد ، وقد وصلت إلينا هذه القصائد ، ووصل إلينا شرحها القيم لأبى القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى ^١ .

عاصر المهدى كثير من العلماء والفقهاء والأدباء ، نذكر منهم : شعبة ، وابن أبى ذئب ، وسفيان الثورى ، وإبراهيم بن أدهم الزاهد ، وداود الطائى الزاهد ، وبشار بن برد ، وحماد ابن سلمة ، وإبراهيم بن طهمان ، والخليل بن أحمد صاحب العروض ، والمفضل الضبى ، وأبو العتاهية ، وغيرهم ^٢ .

اهتم المهدى بتعظيم العلم وتكريم العلماء ، فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياما معلومة من السنة ،

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٦٨
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٩

يعرضون فيها بضاعتهم من علم أو فن أو أدب أو صناعة حتى يحصل بينهم التنافس ، ويصدروا ما عندهم من النفائس ، ثم يجزيهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم^١ .
وكان المهدي يأذن للشعراء بالدخول عليه مرّة في السنة فيجتمعون ببابه ويتفاخرون بما عندهم من محاسن الشعر وفصاحة الكلام .

وذكر المؤرخ السيوطي^٢ أن المهدي كان من رواة ، الأحاديث ، وأمدنا ببعض الأمثلة ، فقال : « حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن مسلم المدائني — وهو ثقة صدوق — قال : سمعت المهدي يخطب فقال : حدثنا شعبة عن علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة من العصر الى مغربان الشمس حفظها من حفظها ، ونسيها من نسيها ، فقال : (ألا ان الدنيا حلوة خضرة) الحديث بطوله » . ومن الأمثلة التي ذكرها السيوطي أيضا : « حدثني أبو يعقوب بن حفص الخطابي ، سمعت المهدي يقول : حدثني أبي عن أبيه عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه أن وفدا من العجم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — وقد أحفوا لحاهم وأعفوا شواربهم — فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (خالفوهم ، أعفوا لحاكم واحفوا شواربكم) ، واحفوا الشارب : أخذ ما سقط على الشفة منه ، ووضع المهدي على أعلى شفته » .

(١) المدور : حضارة الاسلام ص ٧٤

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٨ ، ٢٧٩

وضرب السيوطي مثلاً ثالثاً للأحاديث النبوية التي رواها المهدي : « عن يحيى بن حمزة قال : صلّى بنا المهدي المغرب فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم : فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : حدثني أبي عن ابن اسحاق أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جهر ببسم الله الرحمن الرحيم : فقلت للمهدي : نأثره عنك ؟ قال نعم » .

وشارك موسى الهادي أباه الخليفة المهدي في الاهتمام بالأحاديث النبوية ، فيروى السيوطي : ^١ « وأخرج البغوي في الجعديات عن حمدان الأصبهاني قال : كنت عند شريك ، فأتاه ابن المهدي ، فاستند وسأل عن حديث ، فلم يلتفت شريك ، ثم أعاد فعاد ، فقال : كأنك تستخف بأولاد الخلفاء ، قال : لا ، ولكن العلم أزيد عند أهله من أن يضيعوه ، فجثا على ركبتيه ثم سأله ، فقال شريك : هكذا يطلب العلم » .

وبعد أن كان في عهد الصحابة المأثور هو حديث رسول الله ، أصبح في عهد التابعين المأثور أقوال الرسول وكبار الصحابة ، وفي عهد التابعين المأثور هذا وقول كبار التابعين وهكذا ، فكلما جاء جيل ورث عن قبله آراء المجتهدين ، وفتوى المفتين ، وقضاء القضاة ^٢ .

أصبحت بغداد في عهد المهدي ، كما يقول ابن رسته ^٣ :

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٥

(٢) ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٦٤

(٣) ابن رسته : الأعلام النفيسة ص ٢٣٣

« وسط الدنيا وسرة الأرض ، والمدينة العظمى التى ليس
نظير فى مشارق الأرض ومغاربها ، سعة وكبرا وعمارة ، ساكن
أصناف الناس ، واثقلوا اليها من جميع البلدان ، وهى مدينة
بنى هاشم ، ودار ملكهم ومحل سلطانهم . وباعتدال هوائها
وعذوبة مائها حسنت أخلاق أهلها ، ونضرت وجوههم ،
وانفتحت أذهانهم ، حتى فضلوا الناس فى العلم والفهم والأدب
والنظر والتمييز . فليس عالم أعلم من عالمهم ، ولا أروى من
روايتهم ، ولا أجدل من متكلمهم ، ولا أعرف من نحويهم ، ولا
أصح من قارئهم ، ولا أمهر من متطبيهم ، ولا أحذق من
مغنيهم ، ولا ألطف من صانعهم » .

المهدى الشاعر :

كان المهدى شاعرا مجيداً ، فقد نشأ منذ حداثة نشأة عربية ،
وربّاه أحد أعلام عصره ، المفضل الضبى ، الذى غرس فيه
محبة الآداب العربية ، فنشأ فصيحاً بليغاً ، يقول الشعر ،
ويتذوقه ، ويشجع الشعراء والأدباء والعلماء .
حرص الخليفة المنصور على تعليم ابنه المهدى ، فعهد به
الى أدباء وعلماء عصره ، فيروى المؤرخ المسعودى ^١ « أن
المنصور كان قد ضمّ الشرقى بن القطامي الى المهدى ، حين خلفه
بالرى وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب ، ومكارم الأخلاق ،
ودراسة الأخبار ، وقراءة الأشعار » .

تحدث (المدور) في كتابه (حضارة الاسلام في دار السلام)^١ عن اهتمام المهدي بالأدب فقال : فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياما معلومة من السنة . يعرضون فيها بضاعتهم من علم أو فن أو أدب أو صناعة حتى يحصل بينهم التنافس ، ويصدروا ما عندهم من النفائس ، ثم يجذبهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم .

وكان المهدي يأذن للشعراء بالدخول عليه مرّة في السنة ، فيجتمعون ببابه ، ويتفأخرون بما عندهم من محاسن الشعر وفصاحة الكلام . فقصده ابن المولى من البادية ، وسكّتم الخاسر من البصرة ، وابن الخياط من مكة ، وأشجع السلمى من الحجاز ، فقالوا فيه الشعر الذى لم يمدح بمثله أحد من الخلفاء .

تردد أبو العتاهية وبشار بن برد على مجالس المهدي ، ولكن المهدي كان يقدم عليهم سلماً للبصرى ومروان بن أبى حفصة ، ويعطيها عطية واحدة ، فأما مروان فانه يلتبس الفصاحة في كلامه تشبهاً بأكابر الشعراء ، وأما سلم فانه يودع أبياته المجون والخلاعة لتكون أنسا في عيون السلطان ، فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعر بون" يشبه أن يكون ناشئاً عمّا فيهما من تباين المشرب بين الافراط عند الأول والتفريط عند الآخر ، فانّ مروان بخيل يضمن بحاله ، وسلم سمح يبذل المال ، يأتى الى دار المهدي على برذون قيمته عشرة آلاف

(١) انظر الأغاني ج ٩ وحضارة الاسلام للمدور ص ٧٦

درهم ، ولباسه الخنز والوشى . ويأتى مروان بأثواب رثه على
حمار يكتريه بدرهم لا يخرج من يده الا بعصب الريق ، مع
كثرة ما أصابه من الملك فى صلات تجاوزت خمسة آلاف دينار
فى عطية واحدة ١ .

وكانت الفصاحة فى كلام مروان أوضح منها فى شعر سلم .
وكان مروان يعلم منافسة العلويين للعباسيين فى الخلافة ، فاتخذ
من شعره وسيلة لتدعيم حق الأسرة العباسية فى الخلافة ،
فاكتسب بذلك رضا الخليفة المهدى ، ومن هذا الشعر السياسى :
يا ابن الذى ورث النبى محمدا

دون الأقارب من ذوى الأرحام

أتى يكون وليس ذاك بكائن

لبنى البنات وراثة الأعمام

فقد كان العلويون الفاطميون يعتمدون فى طلبهم للخلافة على
نسبهم الى السيدة فاطمة بنت الرسول ، بينما اعتمد العباسيون
على انحدرهم من نسل العباس عم الرسول صلى الله عليه
وسلم .

وكافأ المهدى مروان بن أبى حفصة على هذا الشعر بسبعين
ألف درهم ، فأنشد مروان ٢ :

بسبعين ألفا راشنى من حبائه وما نالها فى الناس شاعر قبلى
وكان مروان بن أبى حفصة هو الشاعر الذى سجل الأحداث

(١) المدور : حضارة الاسلام ص ٧٤

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٤٠٢

، عصر المهدي ، فلما أخذ المهدي البيعة لابنه موسى
ة العهد ، أنشد مروان ١ :

موسى بالرصافة بيعة شدة الإله بها عرى الاسلام
موسى الذي عرفت قریش فضله ولها فضيلته على الأقوام
بمحمد بعد النبي محمد حيي الحلال ومات كل حرام
مهدي أمته الذي أمست به للذل آمنة وللإعدام
والى جانب تشجيع المهدي للشعراء ، واغداق الصلات
والعطايا عليهم ، كان هو شاعرا مجيدا ، نظم كثيرا من القصائد
الجيدة الرقيقة ، ومن أشعاره :

ما يكف الناس عنا	ما يملئ الناس منّا
أنما همتهم أن	ينبشوا ما قد دفنّا
لو سكنا بطن الأرض	فلكانوا حيث كنّا
وهم ان كاشفونا	في الهوى يوما مجنّا

كان للمهدي جارية شغيف بها ، وهى كذلك ، الا أنها
تتحاماه كثيرا ، فدرس إليها من عرف ما فى نفسها ، فقالت :
أخاف أن يملنى ويدعنى فأموت . فأنشد المهدي هذه الأبيات :

ظفرت بالقلب منى	غادة مثل الهلال
كلما صح لها ودّ	ى جاءت باعتلال
لا لب الهجر منى	والتنائى عن الوصال
بل لا بقاء على حـ	بى لها خوف الملل

وقد روى السيوطي^١ كثيرا من شعر المهدي ، ثم أبدى رأيه في شعره ، فقال : « شعر المهدي أرق وألطف من شعر أييه وأولاده بكثير » .

وروى الطبري^٢ قصة تبين اهتمامه بالشعر ، فقد رأى إحدى جواريه ، وقد وضعت على رأسها تاجاً فيه نرجس من ذهب وفضة ، فاستحسنه ، وقال (يا حبذا النرجس في التاج) ، ثم دعا شاعرا هو عبد الله بن مالك ، وطلب منه أن يضع بيتا من الشعر يحوى هذه العبارة ، فأنشد :

يا حبذا النرجس في التاج على جبين لاح كالعاج
وأنعم المهدي على الشاعر بأربعين ألف درهم .

وكان المهدي يكره الشعر الماجن ، فقد سأل يوما عمارة بن حمزة : من أرق الناس شعرا ؟ فأجاب : والبة بن الحباب الأسدي وهو الذي يقول :

ولها ولا ذنب لها حب كأطراف الرماح
في القلب يقدح والحشا فالقلب مجروح النواحي
فقال المهدي : صدقت . فقال عمارة : فما يمنعك من منادمته يا أمير المؤمنين ، وهو عربي شريف شاعر ظرف . فأجاب المهدي انه يمنع من منادمته قوله الشعر الماجن ، وضرب المهدي له مثلاً ببيتين ماجنين^٣ .

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٦

(٢) الطبري ج ٦ ص ٤٠٤

(٣) الطبري ج ٦ ص ٤٠٢

ويروى الأصنفهاني في كتابه الأغاني الكثير عن اهتمام المهدي بالشعر والشعراء . وقد ظهر في عهد المهدي فن متميز ، وهو فن رواية الأشعار والأخبار وأيام العرب وأحداثها . فبرز في عهد المهدي اثنان نبغا في هذا الفن ، أحدهما كوفي هو حماد الراوية ، والآخر بصرى هو خلف الأحمر ، وكلاهما غير عربي الأصل ، وكلاهما واسع العلم عارف بالشعر وفنونه ومميزات عصوره ، عالم بالأخبار والأيام والأحداث . وحماد هو الذي جمع السبع الطوال ، أي المعلقة . وأبدي الخليفة المهدي اهتماما بجهود حماد ، وتقييم هذه الجهود^١ .

بين المهدي وأبي العتاهية :

ارتبط اسم الشاعر أبي العتاهية باسم الخليفة المهدي ، قبل أن يرتبط باسم ابنه الخليفة هارون الرشيد . وكتب الأدب والتاريخ حفلت بكثير من أخبار أبي العتاهية في عهد المهدي . تحدث المؤرخ المسعودي^٢ عن أبي العتاهية في عصر المهدي فقال : « وكان أبو العتاهية بائع جرار ، وكان من أسهل الناس لفظا ، وأقدرهم على وزن الكلام ، وكان حلو الألفاظ ، حتى انه يتكلم بالشعر في جميع حالاته ، ويخاطب به جميع أصناف الناس ، قد جعله شعرا ونثرا » .

وكان أبو العتاهية في مقدمة الشعراء الذين مدحوا المهدي

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ٣١٠

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٧

حين تولى الخلافة ، فمدحه بأبيات نالت اعجاب المهدي
واستحسان الناس ، وما زالت تتردد اليوم على الألسنة ، وهي :

أنته الخلافة منقادة إليه تَجَرَّرُ أذيالها
فلم تكْ تصلح إلا له ولم يكْ يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
وان الخليفة من بغض لا إليه ليغض من قالها

وكان أبو العتاهية شابا في عهد المهدي ، تجيش في نفسه
عواطف الحب ، وكان مغمرا بجارية من جوارى الخيزان
زوجة الخليفة المهدي تدعى (عتبة) . ولم تبد الجارية رضاها
عن غزل أبي العتاهية ، بل ضاقت بتشبيه بها ، وشكت الى
مولاتها الخيزان ، ودخل المهدي يوما على زوجته والجارية
تبكى في حرارة شاكية لها أبا العتاهية ، وسألها المهدي عن
حقيقة الأمر ، ثم استدعى اليه أبا العتاهية ، حتى اذا مثل في
حضرتة ، قال المهدي : أنت القائل في عتبة :

الله بيني وبين مولاتي أبدت لي الصدء والملامات
ثم سأله المهدي : ومتى وصلتك حتى تشكو صدءها عنك ؟
فقال أبو العتاهية : يا أمير المؤمنين ، ما قلت ذلك بل أنا الذي
أقول :

يا ناق حثي بنا ولا تهني نفسك فيما ترين راحت
حتى تجيئي بنا الى ملك توجّه الله بالمهابات
يقول للريح كلما عصفت هل لك يا ريح في مباراتي
عليه تاجان فوق مفرقه تاج جمال وتاج اخبات

فنكس المهدي رأسه ، ونكت بالقضيب الذي كان في يده ،
ثم رفع رأسه ، وسأل أبا العتاهية : أنت القائل :

ألا ما لسيّدتى ما لها أدلت بأجمل ادلالها
وجارية من جوارى الملو ك قد أسكن الحسن سربالها

ثم سأله المهدي : وما علمك بما حواه سربالها ؟ فأجابه
معارضاً له فيه :

أتته الخلافة منقادة اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

ثم سأل المهدي أبا العتاهية عن أشياء مختلفة ، فأفحم
أبو العتاهية في الجواب ، فأمر المهدي بجلده نحواً من حد ،
وخرج أبو العتاهية مجلوداً ، فالتقى بالجارية التي يحبها (عتبة) ،
وهو على تلك الحال من الجلد ، فأنشد :

بخ بخ يا عتب من أجلكم قد قتل المهدي فيكم قتيلاً

وتأثرت عتبة بما حدث لأبي العتاهية بسببها ، فتغرغرت
عينها ، وفاض دمعها . ودخلت الجارية الى دار الخيزران باكية ،
وقصد المهدي دار الخيزران ، فوجد عتبة تبكى ، فسألها عن
سبب بكائها ، فأخبرته بتأثرها لما لحق بأبي العتاهية ، فطيب
المهدي خاطرها ، وأمر بمنح أبي العتاهية خمسين ألف درهم ،
ففرّقها أبو العتاهية على من كانوا بباب الخليفة المهدي . وعلم
المهدي بالخبر ، فاستدعى أبا العتاهية ، وسأله : ما حملك على
أن أكرمتك بكرامة فقسمتها ؟ فقال أبو العتاهية : ما كنت لأكل

ثمن من أحببت . فمنح المهدي أبا العتاهية خمسين ألف درهم
أخرى ، وحلف عليه أن لا يفرّقها ، فأخذها أبو العتاهية
وانصرف ^١ .

وكان المهدي ، مثله مثل سائر الخلفاء العباسيين ، يحتفل
بالأعياد الفارسية ، فقد كان الفرس غالبية سكان بلاد العراق
وخراسان ، وفي مقدمة هذه الأعياد يوم النوروز ويوم المهرجان ،
وكان الناس يتبادلون فيهما الهدايا . وحدث أن أبا العتاهية
أهدى الى المهدي في يوم نوروز (أو مهرجان) برنية صينية
فيها ثوب ممسك فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية :

نفسى بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدي يكفيها
انى لأياس منها ثم يطمعنى فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فهم المهدي أن يحقق رغبة أبا العتاهية ، وأن يدفع اليه
عتبة الجارية التى يحبها ويتشبث بها ، وأبت عتبة أن تفارق
مولاتها الخيزران الى ذلك الشاعر بائع الجرار ، فقالت للمهدي :
يا أمير المؤمنين ، مع حرمتى وحقى وخدمتى تدفعنى الى بائع
جرار يكتسب الشعر ؟ واستدعى المهدي أبا العتاهية اليه ،
ووضّح استحالة تحقيق طلبه الذى أشار اليه فى بيته ، وقال
له : أما عتبة فلا سبيل لك اليها ، وقد أمرنا لك بملء البرنية مالا .
وخرجت عتبة فوجدت أبا العتاهية يناقش موظفى القصر ، فقد
أرادوا أن يملأوا البرنية بالدراهم ، وأصر أبو العتاهية على أن

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢٦

يملأوها له بالدنانير ، وتألمت عتبة لانشغال أبي العتاهية عنها
بالمال ، فقالت له : أما لو كنت عاشقا لعبة لشغلت عن العين
الورق ! ١ .

ونظم أبو العتاهية كثيرا من القصائد ، يتغزل فيها بعتبة
جارية الخيزران ، ومن هذه القصائد تفتبس هذين البيتين :

يا عتب ما أنت إلا بدعة خلقت

من غير طين ، وخلق الطين

انى لأعجب من حب يقربنى

ممن يباعدننى عنه ويقصينى

واستمر أبو العتاهية على حب عتبة وعشقها . وحدث أن
زوجة المهدي ريطة ابنة أبي العباس ، أرادت أن تشتري رقيقا
للعنق . فقد كان من عادة وجوه المسلمين في ذلك أن يشتروا
رقيقا ثم يعتقوه تقربا الى الله تعالى ، وتكفيرا عن بعض
الذنوب . وكلفت ريطة بشراء الرقيق رجلا يدعى عبد الله
ابن مالك الخزاعي ، كما طلبت من عتبة أن تشرف على شرائهم ،
وكانت عتبة جارية لها ثم أهدتها الى الخيزران الزوجة الثانية
للمهدي . وعلم أبو العتاهية بالأمر ، فتنكر في زي ناسك ،
وقدم على عتبة ، فلم تظن الى شخصيته الحقيقية ، فقال
أبو العتاهية : جعلني الله فداك ، أنا شيخ ضعيف كبير لا يقوى
على الخدمة ، فان رأيت أعزك الله أن تأمرى بشرائي وعتقي

فعلت مأجورة . ورق قلب عتبة وقالت لعبد الله بن مالك الخزاعي : انى لأرى هيئة جميلة ، وضعفا ظاهرا ، ولسانا فصيحاً ، ورجلا بليغا ، فاشتره واعتقه . ووافق عبد الله على طلبها . فقال أبو العتاهية : أتأذنين لى أصلحك الله فى تقبيل يديك ، شكرا لك على جميل فعلك وما أوليتنى . فأذنت عتبة له بذلك ، فقبّل يدها وانصرف . وفطن عبد الله بن مالك الى حقيقة أبى العتاهية ، فضحك ، وقال لعتبة : أتدريين من هذا ؟ قالت : لا . قال : هذا أبو العتاهية ، وانما احتال عليك حتى قبّل يديك . فسفرت وجهها خجلا وقالت : سوأة لك يا أبا العباس ، أمثلك يعبث ، انما اغتررنا بكلامك !! ١ .

هذا هو أبو العتاهية فى عهد الخليفة المهدي ، شابا عاشقا يتغزل ويتشبيب بالحسان . حتى اذا تقدم فى العمر ، تطور شعره ، فأصبح يميل الى الزهد ، حتى أتى فى هذا الباب بما لم يسبق اليه ، وزاد فى معانيه زيادة بشار وأبى نواس فى أدب اللهو والمجون . وأبو العتاهية فلسف الزهد ، وملا الأدب العربى بالموت والتخويف منه ومما بعده ، واحتقار اللذة ، والجد فى الهرب منها ، وأصبح لشعره صبغة علمية دينية فلسفية .

ويرى المرحوم الأستاذ أحمد أمين ^٢ أنه كان فى نزعة أبى العتاهية عنصر مانوى ، ويستند على عبارة للصولى هى : « كان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد ، وأن الله خلق

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٩

(٢) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٩٥

جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم انه بنى العالم هذه البنية
منهما ، وأن العالم حديث العين والصنعة لا محدث له الا الله .
وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء الى الجوهرين المتضادين قبل
أن تفنى الأعيان جميعا ، وكان يذهب الى أن المعارف واقعة
بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعا . وكان يقول بالوعيد ،
وتحريم المكاسب ، يتشيع بمذهب الزيدية البترية المتدعة
لا ينتقص أحدا ، ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان وكان
مجبورا . ويرى الأستاذ أحمد أمين أن الشعر الدينى الذى كان
يحمل لواءه — فى ذلك العصر — صالح بن عبد القدوس ،
وأبو العتاهية ، فيه نزعة ثنوية كان ينزعها الفرس قديما . وقد
سبق لنا أن تحدثنا عن مذهب المانوية الثنوية عند الفرس فى
فصل (المهدي والزنادقة) فى كتابنا هذا .

بين المهدي وبشار بن برد :

كان المهدي يهتم بالشعر ، ويقرب اليه الشعراء ولكنه
كان — كما مر بنا — يضع سلما البصرى ومروان بن أبى حفصة
فى المقدمة .

وبشار بن برد ، رجل من فارس ، فتح باب التهتك على
مصراعيه ، وسار شعره فى العراق . روى شعراء الغزل شعره ،
وتكسبت به كل نائحة ومغنية ، وكانت النساء تأتیه فى بيته
فيأخذن عنه شعره . قال سوار بن عبد الملك ومالك بن دينار
عن بشار : « ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة (البصرة) الى الفسق

من أشعار هذا الأعمى » . وكان واصل بن عطاء يقول :
« ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى
الملحد ! » . وقد حذا بعض الشعراء حذوه في المجون والخلاعة ،
مثل مطيع بن اياس ، وأبى نواس ، وظهر نوع من أنواع الأدب
الداعر . وهذا نتيجة طبيعية لتطور المدنية ، فلما تقدمت بالناس
حياتهم الاجتماعية وما يتبعها من ترف ، تقدم الشعر والأدب
يسايران عيشة الترف والنعيم ^١ .

قام بشار بن برد بدور كبير في الصراع الاجتماعي في
المجتمع العباسي ، بين العناصر العربية ، والعناصر الفارسية ،
فقد كانت الدولة الأموية دولة عربية قلبا وقالبا ، تعصبت
للعناصر العربية واضطهدت الأجناس الأخرى ، مما جعلها تقف
من الدولة الأموية موقفا عدائيا . وكان الفرس أبرز هذه
الأجناس في عدائهم للأمويين . فقد ظهرت بين الفرس نغمة
جنسية ، وروح قومية ، وأرادوا احياء المجد الفارسي القديم ،
وانضم الفرس الى كل خارج على طاعة الدولة الأموية ، ثم
تعاونوا مع الأسرة العباسية حتى نجحت في القضاء على الدولة
الأموية ، وهكذا قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس .
وعمل الخلفاء العباسيون على المساواة بين العرب والفرس ،
وحفظ التوازن بينهما ، كما رأينا ، ولكن الفرس شعروا
بفضلهم على العباسيين ، فاعتزوا بأنفسهم ، وبدأ صراع بين
الفرس والعرب ، يسميه المؤرخون (الشعوبية) .

(١) ضعى الاسلام ج ١ ص ١٩٢

وأقحم بشار نفسه في تيار الشعوبية ، فقد كان فارسيا
يتعصب لبنى جنسه ، ويشيد بالأعجاد الفارسية السالفة ،
ويعذّبهم المانوى الثنوى البائد ، ولذا كان بشار يدعو الموالى
الفرس الى نبذ ولائهم للعرب ، فيروى الأصفهاني في كتابه
(الأغاني) أن رجلا من بنى زيد شريف قال لبشار : يا بشار ،
قد أفسدت علينا موالىنا تدعوهم الى الانتفاء منا ، وترغبهم في
الرجوع الى أصولهم ، وترك الولاء ، وأنت غير زاكى الفرع ،
ولا معروف الأصل ! فقال له بشار : والله لأصلى أكرم من
الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب
يود أن نسبك له بنسبه !!

واستنكر رجل عربى أن ينظم بشار المولى الفارسى الشعر
العربى ، فقال له : ما للموالى والشعر ؟ فأشدد بشار هذه
الآيات يهجو بها العرب :

أحين كسيتَ — بعد العثرى — خزاً
ونادمت الكرام على العتقار ؟
تفاسخ يا ابن راعية وراع
بنى الأحرار ، حسبك من خسار !
تريغ بخطبة كسر الموالى
وينسيك المكارم صيد فار^١
كان أهل خراسان هم عُدّة الجيش العباسى الذى قاده

(١) تريغ : تريد .

أبو مسلم الخراساني ، وهزم به الجيش الأموي ، وقتل آخر
الخلفاء الأمويين مروان بن محمد ، ولذا افتخر بشار بخراسان ،
فقال :

وهجاني معشر كلهمو
حمق ، دام لهم ذاك الحمق
ليس من جرم ، ولكن غاظهم
شرفي العارض قد سدّ الأفق
مع خراسان ، وبيتي في الذرى
ولدى المسعاة فرعى قد سقى^١
وأوقع بشار الخليفة المهدي يوما في موقف حرج ، فقد وقف
في مجلسه يفخر بالعجم ويقول :

ونبت قوما بهم جنّة يقولون من ذا ؟ وكنت العلم
ألا أيها السائل جاهدا ليعرفني ، أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قریش العجم
حار المهدي فيما يقوله لبشار ، فقد كان — كما رأينا —
يعمل على حفظ التوازن بين طبقتي الفرس والعرب في المجتمع
العباسي ، وكان يدرك أن غالبية أهل العراق وخراسان من أصل
فارسي . فاعتبر فخر بشار بأصله العجمي مسألة شخصية ،
وتوجه بالسؤال الى بشار : من أي العجم أنت ؟ فأجاب : من
أكثرها من الفرسان ، وأشدّها على الأقران ، أهل طخارستان !

(١) سقى سموقا : علا وطال .

ولكن المهدي وقف من بشار بن برد موقفا صارما . فقد
تعالى صيحات الناس بالشكوى من بشار لغزله المكشوف ،
وشعره الداعر . وضجّ الأشراف الى المهدي بالشكوى من
شعره ، مثل يزيد بن منصور خال المهدي ، وطلبوا منه أن يقف
هذا التيار لما خافوا على نسائهم وبناتهم ، فتدخل المهدي في
الأمر ، ونهى بشارا في حزم عن الغزل ، وصوّر بشار ما أمره
المهدي به في شعره فأنشد :

قد عشت بين الريحان والراح والـ
ميزهر في ظلّ مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين فتنة
فتور الى القيروان فاليمن
شعرا تصلى له العواتق والثـ
ب صلاة الغواة للوثن
ثم نهاني المهدي فانصرفت
تقسي صنيع الموفق اللقن
فالحمد لله لا شريك له

ليس يباقي شيء على الزمن
ولكن بشارا استمر في غزله ، وان كان قد لزم الاعتدال ،
وأخفى نواياه الخبيثة ، فقال :

يا منظرا حسنا رأيته	من وجهه جارية فديته
بعثت الى تسومني	ثوب الشباب وقد طويته
والله رب محمد	ما ان غدرت ولا نويته

أمسكت عنه وربما
ان الخليفة قد أبى
ونهانى الملك الهما
بل وقد وفيت ، ولم أضع
عرض البلاء وما ابتغيته
واذا أبى شيئاً أبيته
م عن النساء فما عصيته
عهداً ولا وأياً وأيتته

ولم يسلم الخليفة المهدي من لسان بشار ، فيروى الطبرى
أن بشاراً كان قد هجا صالح بن داود بن طهمان أخا يعقوب
ابن داود والى البصرة فقال :

هثم حملوا فوق المنابر صالحاً
أخاك فضجت من أخيك المنابر

وعلم الوزير يعقوب بهذا الهجاء ، فدخل على المهدي فقال :
يا أمير المؤمنين ان هذا الأعمى المشرك قد هجا أمير المؤمنين .
فقال المهدي : ويلك وما قال ؟ فقال يعقوب : يعفني أمير
المؤمنين من انشاده ذلك . فأصر المهدي على أن ينشده هذا
الشعر . فأنشد يعقوب بيتين وصف فيهما الخليفة بأنه يلهو
ويزنى ، فأمر المهدي بعقابه « فوجه اليه من يلقيه في البطيحة في
الحرارة »^١ .

وأنتهم بشار بالزندقة في عهد المهدي ، ولم يرض الخليفة
عن زندقته ، فقد كان — كما شهدنا — شديداً على الزنادقة .
ولمّا رحل المهدي الى البصرة ، وعلم بزندقة بشار ، أمر بالقبض

(١) الطبرى ج ٦ ص ٤٠٢

عليه ، وطلب من حمدويه الذي كان يتولى ديوان الزنادقة أن يعاقبه ، وقال المهدي له : اضربه ضرب التلف ^١ .

ويتهم المؤرخ أبو الفدا ^٢ بشار بن برد بالزندقة ، فيذكر في حوادث سنة ١٦٦ هـ : « وفيها قُتل بشار بن برد الشاعر على الزندقة ، وكان أعمى خلق ممسوح العينين ، ولمّا قُتل كان قد نيف على التسعين ، وكان بشار المذكور يفضل النار على الأرض ، ويصوّب رأى إبليس في امتناعه من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام » .

اهتمام المهدي بالموسيقى والغناء :

أحبّ العرب منذ فجر تاريخهم سماع الأنغام الشجية التي تهز النفوس ، وتحرك المشاعر ، وكان العرب يحبون الانصات الى الغناء ويعتبرون أنه من سوء الأدب أن يتكلم أحدهم أثناء الغناء ، فقال شاعرهم :

لو كان لى أمر قضيت قضية

ان الحديث مع الغناء حرام

لم يشجع الخلفاء الراشدون الغناء ، لتغلب النزعة الدينية ، وانهماكهم في تثبيت دعائم الدولة العربية الاسلامية ، وانشغالهم في الفتوحات الاسلامية . فلمّا قامت الدولة الأموية في دمشق بدأت تشجع الغناء والموسيقى ، وقد عقد الخلفاء الأمويون

(١) الفخرى ص ١٦٤

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٠

مجالس خاصة لسماع أشهر المغنين في عصرهم ، فكانوا
ينشدونهم الأبيات موقعة على الألحان فيطربون لسماعها .

نال الغناء والموسيقى اهتماما من الخليفة المهدى ، باعتبارهما
لونا من ألوان الفنون . فقد نعمت الدولة العباسية في عهده
بالهدوء ، وندرت الثورات والاضطرابات الداخلية ، وشعر رعايا
الدولة العباسية في عصره بالاستقرار والطمأنينة ، فقد مضت
فترة على قيام الدولة وتخلصت من أعدائها ، وبدأت مرحلة من
الاستقرار والرخاء الاقتصادي ، مما يؤدي الى نهضة أدبية
وأخرى فنيّة . وكثرت الأموال في أيدي الناس ، فبنوا القصور
الفخمة ، وفرشوها بأجمل الرياش ، واشتروا الجوارى المغنيات
والراقصات ، وازدحم الشعراء والموسيقيون والمطربون على
أبوابهم ، وشغلوا أوقات فراغهم بالاستماع الى الموسيقى
والغناء ومشاهدة الرقصات .

كان أبو العباس ، أول الخلفاء العباسيين ، رغم كثرة أعبائه ،
وتوتر أحوال الدولة العباسية في عهده ، يظهر للندماء في مجلسه ،
ثم احتجب عنهم ، كما كان يظهر سروره وابتهاجه لندمائه
ومغنيه ، ويمنحهم العطايا والصلوات ، ويقول : العجب ممن
يتفرح انسانا فيتعجل السرور ، ويجعل ثواب من سرّه تسويفا
وعدة ، « فكان في كل يوم ليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف
أحد ممن حضره الا مسرورا »^١ .

(١) الجاحظ : التاج ص ٣٣

أما أبو جعفر المنصور ، فقد كان بطبعه جادًا في بلاطه ، لا يميل الى عبث أو لهو . وقد رأينا كيف غضب حينما سمع أحد غلمانه يعزف لجواريه على الطنبور ، فأمر حاجبه أن يكسر الطنبور على رأس هذا الغلام ، ثم أمر ببيعه . ولم يظهر المنصور لتدبير قط ، ولم يره أحد يشرب غير الماء ، كما كان لا يشرب أحدًا من ندمائه . روى الطبرى : « لم يثر في دار المنصور لهو قط ، ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث ، إلا نوما واحدا ، فاتنا رأينا ابنا له يقال له عبد العزيز ^١ ، وقد خرج على الناس متنكبا قوسا متعمما بعمامة ، مترديا برداء ، في هيئة غلام أعرابي ، راكبا على قعود ، بين جوالقين فيهما مقل ونعال : ومساويك وما يهديه الأعراب ، فعجب الناس من ذلك وأنكروه ، فعبّر الغلام الجسر وأتى المهدي بالرصافة فأهدى اليه ذلك ، فقبل المهدي ما في الجوالقين ، وملاهما دراهم . وانصرف الغلام ، فعلم أنه ضرب من عبث الملوك ^٢ .

وكان المنصور لا يسرف في عطاء لمطرب أو شاعر أو ملاح ، ويؤنب أولاده اذا أسرفوا في العطاء ، ولا يتغالى في ثوب يلبسه ، ولا مائدة تمد اليه ، انما هو مقتصد في كل ضروب الحياة .

ولذا كانت خلافة المهدي ، مرحلة انتقال بين هذه المغالاة في التشفي والتقتير ، وبين الانطلاق والاسراف في عهد خلفائه ،

(١) توفي عبد العزيز بن المنصور في سن مبكرة .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٣٧٠

فالمهدى أكثر انطلاقا من أبيه المنصور ، وأقل انطلاقا من ابنه هارون الرشيد .

ولمّا تولى المهدي الخلافة « كان في أول أمره يحتجب عن الندماء تشبيها بالمنصور نجواً من سنة ، ثم ظهر لهم ، فأشير عليه أن يحتجب ، فقال : انما اللذة مع مشاهدتهم »^١ .

اجتمع في المهدي حب للفنون الجميلة ، وميل شديد الى الكرم ، فجرى الناس على أثره ، وأنفقوا الأموال على الفنانين ، فظهرت نهضة فنية في عصره ، وبدأ الفن يعرف طريقه الى طبقات الشعب المختلفة .

جلس المهدي للمغنين يستمع الى غنائهم وألحانهم ، بعد أن كان أبوه المنصور لا يطرب الاً للحداء . وتحدث الأصفهاني في كتابه الأغاني عن استماع المهدي لجميع المغنين في عصره ، فكانوا يحضرون مجلسه فيغنونه من وراء الستار ، لا يرون له وجهها ، عدا المغنّي فليح بن أبي العوراء ، فقد سأله في بيتين أن يناديه فأحضره مجلسه بين أهله ومواليه « فكان فليح أول من عاين وجهه في مجلسهم »^٢ .

أغدق المهدي على المغنين عطايا وصالاته على عكس أبيه ، « فقد كان المنصور لا يثيب أحداً من ندمائه وغيرهم درهما ، فيكون له رسماً في ديوان ، ولم يقطع أحداً ممن كان يضاف الى ملهية أو ضحك أو هزل ، موضع قدم من الأرض . أما

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧

(٢) الأصفهاني : الأغاني ج ٤ ص ٩٩

المهدى فكان كثير العطايا يواترها ، قلَّ من حضره الاغناه .
وحسبك بالمهدى أن تخرَّج في قصره ولداه زينة الدنيا ، وبهجة
عصرهما في الظرف والغناء ، ابراهيم بن المهدى ، وعليَّة بنت
المهدى ^١ .

وصف (المدور) في كتابه (حضارة الاسلام في دار
السلام) ^٢ مجلس المهدى ، وتحدث عن مستوى الغناء في عصره
فقال : وكان المهدى اذا اتخذ له مجلسا بداره ضرب للمغنين
ستارة يجلسون وراءها في صفوفهم بحيث لا يرونه الا فليح
ابن أبى العوراء ، وهو أوضح الناس غناء وأعرفهم بالألحان
والأصوات ، وان هو لم يكن أحسنهم صوتا ، فأنما يحسن
الغناء عند من يشبع الألحان ، ويملا الأنفاس ، ويعدل الأوزان ،
ويفخّم الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الأعراب ، ويستوفي
النغم الطوال ، ويحسن مقاطيع النغم القصار ، ويصيب أجناس
الايقاع ، فهو يحسن ذلك كله لمحله الجليل من هذه الصناعة ،
وليس له فيها شريك الا مغنٍّ آخر يقال له عطرده ، قد أدرك
دولة الأمويين في آخر حكمهم ، وأما من سواهما من المغنين
فليس لهم في الصناعة ما للمتقدمين من الفرس ، وأنا لا أعيب
ذلك عليهم لأن الزمن الذى مضى عليهم فى صدر الدولة كان
مضرجا بدماء الحروب ، فانصرف الخلفاء عن النظر فى مطالب

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ١١٢

(٢) ص ٧٧

اللهو والترف الى التماس الأسباب التي يؤيدون بها ملكهم من
الحكمة والسياسة .

وكانت بعض مجالس المهدي تعقد في فصل الصيف في
بستان القصر ، وقد وصف وزير المهدي ، يعقوب بن داود ،
هذا المجلس فقال : « بعث الى المهدي يوما فدخلت عليه ،
فإذا هو في مجلس مفروش بفرش مود متناه في السرو على بستان
فيه شجر ورءوس الشجر مع صحن المجلس ، وقد اكنسى ذلك
الشجر بالأوراد والأزهار من الخوخ والتفاح ، فكان ذلك موردا
يشبه فرش المجلس الذي كافيته ، فما رأيت شيئا أحسن
منه »^١ .

تناهى الى أسماع المهدي ما اشتهر به المغنى ابراهيم
الموصلى من جمال الصوت واجادة الغناء ، فاستقدمه اليه ،
وقرببه ، وكان المهدي أول من رفع من شأنه . ثم علم المهدي
أن الموصلى يشرب ويستهتر ، فطلب المهدي من الموصلى أن
يتخلّى عن استهتاره اذا حرص على ملازمته ، وأخفق الموصلى
في تنفيذ ما أشار به المهدي عليه ، مما أثار غضب الخليفة فأمر
بضربه وحبسه .

روى ابراهيم الموصلى قصته مع المهدي فقال : ان المهدي
دعاني يوما فعاتبني على شربي في منازل الناس والتبذل معهم .
فقلت : يا أمير المؤمنين انما تعلمت هذه الصناعة للذّتي وعشرتي

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٨٤

لاخواني ، ولو أمكنني تركها لتركتهما وجميع ما أنا فيه لله عز وجل . فغضب المهدي غضبا شديدا وقال : لا تدخل على موسى وهارون البتة ، فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن وأصغن ! فقلت نعم . ثم بلغه أنني دخلت عليهما وشربت معهما ، وكانا مستهترين بالنبيذ ، فضربني ثلاثمائة سوط ثم قيدني وحبسني ^١ .

وهكذا ، كان المهدي يحب الاستماع الى الغناء ، ولكنه لم يفرق في اللهو ، وقد رأينا يعاقب ابراهيم الموصلى لأنه لم يكف عن استهتاره وشربه الخمر . وكان المهدي يعتبر الغناء لونا من ألوان الفنون ، وليس من وسيلة للعبث أو اللهو .

روى الطبري ^٢ قصة عن المهدي تبين اهتمامه بالموسيقى ، فقد كان المهدي في رحلة الى بيت المقدس ، فعرض لموكبه رجل يدعى حكم الوادي ، أخرج دنثا له يضربه ، وقال : أنا القائل :

فمتى تخرج العرو س فقد طال حبسها
قد دنا الصبح أو بدا وهي لم تنض لبسها

وحاول حرس الخليفة ابعاد هذا الرجل ، فصاح المهدي فيهم أن يكفوا ، وسأل عنه ف قيل حكم الوادي ، فأدخله اليه ووصله » .

(١) الأصفهاني : الأغاني ج ٥ ص ٥

(٢) الطبري ج ٦ ص ٤٠٤

المهدي: أسرته، شخصيته

الأسرة العباسية :

تتنمى الأسرة العباسية الى العباس بن عبد المطلب ، عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان من وجوه قريش وأثريائهم ، وقد تولى أمر سقاية الحجاج في مكة . ومن أبرز أبناء الأسرة العباسية في عهد الخلفاء الراشدين ومطلع العصر الأموي عبد الله ابن العباس ، وقد آثر الابتعاد عن السياسة ، واشتغل بالدين والعلم ، وبايع لمعاوية بن أبي سفيان بالخلافة في سنة ٤٠ هـ ، وهو عام الجماعة ، الذي اجتمعت فيه كلمة المسلمين على اختيار معاوية ، لوضع حدٍّ للحروب الأهلية : وأصبح عبد الله عضوا بارزا في جماعة أبناء الصحابة في الحجاز ، وكانت تضم الحسين ابن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن ابن أبي بكر وغيرهم . وأرغم معاوية ابن عباس وأبناء الصحابة على البيعة لابنه يزيد بولاية العهد . ولمّا تولى يزيد الخلافة ، طلب البيعة من أبناء الصحابة ، فبايعه ابن عباس ، بينما امتنع الحسين وابن الزبير . ولمّا أراد الحسين الخروج الى الكوفة ليُبايع له أهلها بالخلافة ، تقدم ابن عباس له بالنصيحة ، فأشار

عليه بالبقاء في الحجاز وذكره بتخاذل أهل الكوفة عن أبيه وأخيه ١ .

وكان عبد الله بن عباس عضوا بارزا في الأسرة الهاشمية ، ولم تكن قد تفرعت بعد الى الفرع العلوي والفرع العباسي . وكان استشهاد الحسين بن علي في كربلاء في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية ضربة عنيفة أصابت الحزب الهاشمي ، فقد فقد هذا الحزب زعيمه وقائده . وكان باقي زعمائه مثل ابن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن علي بن أبي طالب (المعروف بابن الحنفية) زاهدين في الخلافة . ولمّا بايع ابن الزبير لنفسه بالخلافة ، وقف ابن عباس منه موقفا سلبيا ، فلم يعلن تأييده له . وحمد يزيد بن معاوية لابن عباس امتناعه عن تأييد ابن الزبير ، فبعث اليه كتابا يشكره فيه على موقفه من ابن الزبير ، وقد ظن أن ذلك طاعة له . ولكن امتناع ابن عباس عن تأييد ابن الزبير لم يكن ولاء منه ليزيد ، فقد كان مقتنعا بأحقية بني هاشم دون غيرهم بالخلافة ، ولذا بعث برسالة الى يزيد يخبره فيها أنه في غنى عن ثنائه عليه ، وذكره في آخر رسالته أنه قتل الحسين بن علي ٢ .

بدأت الدعوة العباسية في سنة ١٠٠ هـ في عصر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، وقام بها الامام محمد بن علي بن

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٠

(٢) انظر تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٠ وكتابنا (عبد الله بن الزبير)

عبد الله بن العباس ، بعد أن ركن العلويون الى الهدوء بعد اخفاق ثوراتهم . ورأى الامام محمد أن يمهّد الأذهان ويعد النفوس لنقل الخلافة من الأمويين الى العباسيين ، فطلب من دعاة أن تكون دعوة الناس الى البيعة للرضا من آل بيت الرسول دون تحديد . ويمكن تقسيم الدعوة العباسية الى قسمين : الأول ويبدأ في مستهل القرن الأول للهجرة ، وينتهي بانضمام أبي مسلم الخراساني ، وكانت الدعوة في هذا الدور خالية من أساليب العنف والشدة ، اذ كان الدعاة يجوبون البلاد الاسلامية ، متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج . ويبدأ الدور الثاني بانضمام أبي مسلم الخراساني الى الدعوة العباسية ، وهنا يدخل النزاع بين الأمويين والعباسيين في دور العمل ، وهو دور الحروب التي انتهت بزوال الدولة الأموية^١ . مات الامام محمد بن علي العباسي سنة ١٢٥ هـ ، فحمل لواء الدعوة العباسية ابنه ابراهيم ، وفي عهده بدأ الصدام الحربي بين العباسيين والأمويين . ونجح الأمويون في القبض على الامام ابراهيم وسجنوه في حران ثم قتلوه . وانتقلت الأسرة العباسية الى الكوفة (صفر ١٣٢ هـ) واختفوا عن الأنظار حتى طلب أتباعهم منه أن يخرجوا للناس ويأخذوا البيعة ، فاستجابوا لهم ، وتمت البيعة بالخلافة لأبي العباس بن ابراهيم ، رغم أن أخاه أبا جعفر المنصور كان أكبر سناً ، لأن أم أبي العباس عربية . ثم نجح أبو مسلم الخراساني في القضاء

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٢

على الدولة الأموية وقتل مروان بن محمد آخر خلفائها ، فبدأت خلافة أبي العباس الحقيقية في ٣ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ .

أسرة المهدي :

وُلد محمد المهدي في سنة ١٢٦ هـ في الحميمة من أرض الشراه ، وأبوه هو أبو جعفر المنصور ، وأمه أروى بنت منصور ابن عبد الله الحميري ، من العرب اليمنيين الحميريين . وكان عمر المهدي عند قيام الدولة العباسية ست سنوات . ولما تولى أبوه المنصور الخلافة كان عمره عشر سنوات . وأعدَّ المنصور ابنه — كما رأينا — ليتولى الخلافة بعده ، فولاه اخماد الثورات في خراسان سنة ١٤١ هـ ، وكان عمره حينئذ ١٥ سنة ، ثم أمره بغزو طبارستان . وعاد الى بغداد سنة ١٤٤ هـ حيث تزوج من ريطة بنت أبي العباس . وفي سنة ١٤٧ هـ ولاه المنصور ولاية العهد وقدمه على عيسى بن موسى . ثم عاد المهدي الى الري بخراسان فأقام حاكماً لها حتى سنة ١٥١ هـ . حتى اذا عاد بنى المنصور له ولجندة مدينة الرصافة على الجانب الشرقي من بغداد . ثم ولاه المنصور امارة الحج سنة ١٥٣ هـ . وفي سنة ١٥٥ هـ أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد . واشترك المهدي في مهام الدولة ، حتى مات المنصور ، فتولى الخلافة في ٦ من ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ (٧ أكتوبر سنة ٧٧٥ م) .

كانت ريطة بنت أبي العباس الزوجة الأولى للمهدي ،

تزوجها وهو في الثامنة عشرة من عمره . ثم تزوج من الخيزران ، وكانت في الأصل جارية يمانية ، وأنجب منها ابنه موسى الهادي وهارون الرشيد اللذين توليا الخلافة بعد أبيهما المهدي على التوالي . وفي ذلك يقول السيوطي ^١ : « لا تعرف امرأة ولدت خليفتين إلا الخيزران أم الهادي والرشيد ، وولادة بنت العباسية زوج عبد الملك بن مروان ، ولدت الوليد وسليمان ، وشاهنورد بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى ، ولدت للوليد بن عبد الملك يزيد الناقص وإبراهيم ، ووليا الخلافة » وكان للخيزران نفوذ كبير في عصر المهدي ، فكان يقصدها طلاب الحاجات ، لتتوسط لهم عند المهدي ، مما سنفضله بعد قليل في هذا الفصل .

ومن أبرز أولاد المهدي — غير موسى الهادي وهارون — إبراهيم ومنصور . وقد قاما بدور كبير في عهد الخليفة المأمون ابن هارون الرشيد . فقد أراد المأمون تحويل الخلافة من البيت العباسي الى البيت العلوي ، فبايع زعيم العلويين (علي رضا) بولاية العهد ، وأمر الناس بطرح السواد شعار العباسيين واستبداله بالخضرة شعار العلويين ، مما أدى الى غضب البيت العباسي ، فبايع إبراهيم بن المهدي بالخلافة . وكان المأمون حينئذ في مرو بخراسان ، وشعر بخطورة الموقف ، فخرج بجيشه الى بغداد ، واضطر إبراهيم الى الفرار ، ولكن جند المهدي نجحوا في القبض عليه ، ثم عفا المأمون عنه وقرَّبَه اليه ^٢ .

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨١

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥

ولكن ابراهيم بن المهدي لم يتحول عن عدائه للمأمون ، فقد قامت ثورة جديدة تزعمها أحد العباسيين ، وهو ابراهيم ابن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ، واشتهر باسم ابن عائشة ، ودبّر ابن عائشة مؤامرة لاغتيال المأمون تمهيدا للبيعة لابراهيم بن المهدي . ونجح المأمون في القبض على ابن عائشة ثم قتله وصلبه . كما قبض على ابراهيم بن المهدي وهو متزى^١ بزى امرأة ، وتعمّد المأمون أن يراه سائر بنى هاشم والقواد والجند وهو في هذه الملابس النسائية ، وتوسل ابراهيم للمأمون أن يعفو عنه ، فاستجاب له وعفا عنه ، فكبر ابراهيم ثم خرّ ساجدا ، ونظم قصيدة رائعة في مدح المأمون ، فقد كان شاعرا مجيدا ، أشاد فيها بكرمه لعفوه عنه ، واعتذر فيها عن أخطائه . ويعتبر ابراهيم بن المهدي من ظرفاء ذلك العصر وشعرائهم . أما هارون الرشيد بن المهدي ، فيعتبره المؤرخون من أشهر الخلفاء العباسيين ، ويعتبرون عصره من العصور الذهبية للدولة العباسية . وتحدث ابن طباطبا^١ عن الرشيد فقال : « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يحج سنة ويفزو سنة ، كذلك مدة خلافته الا سنين قليلة ، وكان يصلى في كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشيا ولم يحج خليفة ماشيا غيره ، وكان اذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، واذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابعة والكسوة الظاهرة » .

(١) الفخرى ص ١٧٥

لم تدم خلافة موسى الهادي سوى سنة وثلاثة أشهر ، ثم خلفه أخوه هارون الرشيد . ولذا نعتبر عهد الرشيد امتدادا لعهد أبيه المهدي ، فقد ورث الرشيد دولة راسخة الأسس ، عظيمة المهابة ، كثيرة الأموال ، فأكمل رسالة أبيه ، وجنى ثمار جهوده .

بين المهدي وابنه الهادي :

كان موسى الهادي أكبر أولاد المهدي ، وقد ولّاه أبوه عهده ، وعهد لهارون بالخلافة من بعده . ثم فكر المهدي في تقديم الرشيد على الهادي ، بسبب إثارة أياه ، ومشاركة أمه الخيزران له في محبته ، لولا أن مات قبل أن يضع مشروعه موضع التنفيذ .

وصف المسعودي^١ موسى الهادي فقال : « كان موسى قاسي القلب ، شرس الأخلاق ، صعب المرام ، كثير الأدب محبا له . وكان شديدا شجاعا جوادا سخيا » . ووصفه ابن طباطبا^٢ فقال : « كان الهادي متيقظا غيورا كريما شهما ايذا شديدا البطش جرىء القلب مجتمع الحس ذا اقدام وعزم وحزم » . وتحدث السيوطي^٣ عنه فقال : « قال الذهبي : وكان يتناول المسكر ، ويلعب ، ويركب حمارا فارها ، ولا يقيم أبهة الخلافة ،

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣٥

(٢) الفخرى ص ١٧١

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٩

وكان مع ذلك فصيحاً ، قادراً على الكلام ، أدبياً ، تعلوه هيبة ، وله سطوة وشهامة . وقال غيره : كان جبّاراً ، وهو أول من مشى الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة ، والأعمدة ، والقسي . الموترة ، فاتبعه عمّاله به في ذلك ، وكثر السلاح في عصره . ويبدو أن الهادي قد اكتسب هذه الصفات نتيجة قضائه أكثر أيامه في الغزو والحرب .

عمل المهدي على أن يعد ابنه موسى الهادي للخلافة ، كما أعده أبوه المنصور من قبل لهذا المنصب الخطير ، وكان المهدي عند حسن ظن أبيه . وأراد المهدي أن يكون ابنه الهادي جديراً بأن يقدمه على عيسى بن موسى في ولاية العهد ، وقد مرّ بنا ما بذله المهدي من جهود كثيرة في سبيل ارغام أو اقناع عيسى بالتنازل عن حقه في ولاية العهد . ولكن الهادي خيَّب ظن أبيه فيه ، فانصرف الى شرب الخمر ، وقضى معظم وقته مع الندماء ، مما أثار غضب المهدي عليه ، فبدأ يفكر في تقديم أخيه الأصغر هارون عليه في ولاية العهد ، لولا أن عاجلته منيته .

صور المؤرخ ابن طباطبا محاولات المهدي المتكررة لاثناء ابنه الهادي عن الطريق الذي اختاره الهادي للسير فيه ، ولم يستمع لنصائح أبيه المهدي ، فقال : « حدثت عبد الله بن مالك ، وكان يتولى شرطة المهدي ، قال : كان المهدي يأمرني بضرب ندماء الهادي ومغنيه وحبسهم صيانة له عنهم ، فكنت أفعل ما يأمرني به المهدي . وولى الهادي فأيقنت بالتلف . فاستحضرني يوماً فدخلت عليه وهو جالس على كرسي والسيف والنطع بين

يديه ، فسلمت . فقال : لا سلم الله عليك ، أتذكر يوم بعثت
إليك في أمر الحراني وضربه فلم تقبل قولي ، وكذلك فعلت في
فلان وفلان — وعدد ندماءه — فلم تلتفت إلى قولي ! قلت :
نعم ، أفتأذن في ذكر الحجة . قال : نعم . قلت : ناشدتك الله لو
أنك قلدتني ما قلدني المهدي وأمرتني بما أمر فبعثت إلى بعض
بنيك بما يخالف أمرك فاتبعت قوله وتركت قولك أكان يسرُّك
ذلك ؟ قال : لا . قلت : فكذلك أنا لك وكذلك كنت لأبيك .
فاستدنانني فقبلت يده ، ثم أمر لي بالخلع . وقال : ولئيتك
ما كنت تتولاه فامض راشدا . فمضيت مفكرا في أمري وأمره .
وقلت حدث يشرب والقوم الذي عصيته في أمرهم هم ندماءؤه
ووزراؤه وكتابه ، وكأني بهم حين يغلب الشراب عليه يغلبون
على رأيه ويحسنون له هلاكى .

اقتدى الهادي بما فعله أبوه المهدي مع عيسى بن موسى ،
وعزم على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، وشجعه على
ذلك رجال بلاطه . ولكن يحيى بن خالد بن برمك نصح له بأن
يعدل عن هذا الأمر ، لصغر سن ابنه جعفر ، واحتراما للعهد
الذي أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده ، ودرءا لما عسى
أن يقوم به أهل بيته من انتزاع الخلافة من ابنه إذا آلت إليه
قبل بلوغه سن الرشد ، وأشار عليه أن يترث في هذا الأمر حتى
يكبر ابنه ويطلب من أخيه هارون النزول له عن الولاية .
ولكن الهادي لم يستمع إلى هذه النصيحة ، وأمر بسجن يحيى
البرمكى .

أما هارون ، فكان يميل الى اجابة أخيه بعد أن ضيق عليه واضطهده ، وخط رجال بلاط الهادي من شأنه ، فأشار عليه يحيى البرمكي أن يستأذن أخاه في السفر طلبا للصيد ، فأذن له ، وطال غيابه حتى أخذ الهادي يثحّ عليه في العودة ، ويبالغ في تحقيره واهاتته ، وهو ينتحل من الأعذار ما يطيل بقاءه ، حتى أتاه نعيه والبيعة له .

ذهب بعض المؤرخين الى القول بأن عزّم الهادي على اخراج هارون من ولاية العهد ، دفع بأمه الخيزران الى السعى في موته ، وان كنا نشك في ذلك . على أن مما يسترعى النظر ، أن العداء كان مستحكما بين الهادي وأمه ، وأن هذا العداء قد ظل على شدته الى يوم وفاته ، حتى ذهب بعض المؤرخين الى القول بأن أمّه دست بعض جواريتها لقتله ، ذلك أن الخيزران كانت لها الكلمة النافذة في عهد المهدي ، فكانت تأمر وتنهى حتى كان الناس يتوافدون على دارها ، ويلجأون اليها لقضاء حاجاتهم ^١ .

تحدث المؤرخ السيوطي ^٢ عن العلاقات بين الهادي وأمه الخيزران فقال : « مات — أي الهادي — في ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ، واختلف في سبب موته ، ف قيل : انه دفع نديما له من جرف على أصول قصب بعد قطع ، فتعلق النديم به فوق ، فدخلت قصبة في منخره ، فماتا جميعا . وقيل : أصابته قرحة في

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٤٣

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٠

جوفه ، وقيل سمته أمه الخيزران لما عزم على قتل الرشيد
ليعهد الى ولده ، وقيل : كانت أمه حاكمة مستبدّة بالأمور
الكبار ، وكانت المواكب تغدو الى بابها ، فزجرهم عن ذلك ،
وكلّمها بكلام وقح ، وقال : لئن وقف ببابك أمير لأضربن
عنقه ، أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو سبحة ؟ !
فقامت ما تعقل من الغضب ، فقيل : اله بعث اليها بطعام
مسموم ، فأطعمت منه كلبا ، فانتثر ، فعملت على قتله لما وعك
بأن غمّوا وجهه ببساط جلسوا على جوانبه ، وخلف سبعة
بنين .

الخيزران زوجة المهدي :

كانت الخيزران جارية يمانية جرشيّة من جوارى الخليفة
المهدي ، أعجب بها ، فأعتقها وتزوجها ، وأنجب منها وليّه
موسى الهادي وهارون الرشيد . ونالت حظوة لدى المهدي ،
مما جعل زوجته الأولى ريطة بنت أبي العباس تتقرب اليها
وتهديها بعض جواريتها .

وأدرك الكثيرون منزلة الخيزران عند زوجها المهدي ،
فكانوا يقصدونها لتتوسط لهم لدى المهدي لقضاء حوائجهم ،
وكان المهدي يستجيب لطلبها لمنزلتها عنده . وأصبح قصرها
قبلة الأنظار ، ومقصد الناس . حتى اذا توفي المهدي وتولى
ابنها الهادي ، أرادت أن تحتفظ بما وصلت اليه من مكانة
وتفوذ ، ولكن الهادي كان غيورا على نسائه ، فنهاها وزجرها

في قسوة ، مما لم تشهده في عهد المهدي ، وحدث صدام بين
الأم وابنها ، مما أدّى — كما رأينا — الى محاولة كل منهما
للتخلص من الآخر . وتحدث الطبرى عن منزلة الخيزران عند
المهدي فقال : « وكانت الخيزران في أول خلافة موسى تفتت
عليه في أموره ، وتسلك به مسلك أييه من قبله في الاستبداد
بالأمر والنهي » ١ .

روى المسعودى ٢ قصة تبين ما كان للخيزران من منزلة
عند زوجها الخليفة المهدي ، واستجابته لمطالبها ورجائها ، وهذه
الرواية تعطينا صورة حياة النساء في قصر المهدي . فروى :
« وكانت الخيزران أم الهادي والرشيد في داره المعروفة بأشناس ،
وعندها أمهات أولاد الخلفاء ، وغيرهن من بنات بنى هاشم ،
وهي على بساط أرمنى ، وهن على نمارق أرمنية ، وزينب بنت
سليمان بن علي أعلاهن مرتبة ، فبينما هن كذلك اذ دخل خادم
لها ، فقال : بالباب امرأة ذات حسن وجمال في أطمار رثة تأبى
أن تخبر باسمها وشأنها غيركن ، وتروم الدخول عليكن .
وقد كان المهدي تقدّم الى الخيزران بأن تلزم زينب بنت
سليمان بن علي ، وقال لها : اقتبسى من آدابها ، وخذى من
أخلاقها ، فانها عجوز لنا قد أدركت أوائلنا .

فقلت الخيزران للخادم : ائذن لها . فدخلت امرأة ذات بهاء
وجمال في أطمار رثة ، فتكلمت فأوضحت عن بيان على لسان ،

(١) الطبرى ج ٦ ص ٤٢١

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٣ - ٣٢٤

فقالوا لها : من أنت ؟ قالت : أنا مزنة امرأة مروان بن محمد ،
وقد أصارني الدهر الى ما ترين ، ووالله ما الأطمار الرثة التي
علىّ الا عارية ، وانكم لما غلبتمونا على هذا الأمر و صار لكم
دوتنا لم نأمن مخالطة العام على ما نحن فيه من الضرر على بادرة
الينا نزيل موضع الشرف ، فقصدناكم لنكون في حجابكم على
آية حالة كانت ، حتى تأتي دعوة من له الدعوة .

فاغرورقت عينا الخيزران ، ونظرت اليها زينب بنت سليمان
ابن علي ، فقالت لها : لا خفف الله عنك يا مزنة ، أتذكرين وقد
دخلت عليك بحرّان وأنت على هذا البساط بعينه ، ونساء
قرابتكم على هذه النمارق ، فكلمتك في جثة ابراهيم الامام ،
فاتهرتني وأمرت باخراجي ، وقتلت (ما للنساء والدخول على
الرجال في آرائهم ؟) فوالله لقد كان مروان أرعى للحق منك ،
لقد دخلت اليه فحلف أنه ما قتله ، وهو كاذب ، وخيّرني بين
أن يدفنه أو يدفع اليّ جثته ، فاخترت جثته ، وعرض عليّ مالا
فلم أقبله !

فقالت مزنة : والله ما نظن هذه الحالة أدتني الى ما ترينه
الا بالفعال التي كانت مني ، وكأنك استحسنته ، فحرّضت
الخيزران على فعل مثله ، انما كان يجب أن تحضّيها على فعل
الخير وترك المقابلة بالشر ، لتحرز بذلك نعيمها ، وتصون بها
دينك . ثم قالت لزينب : يا بنت عم ، كيف رأيت ضيع الله بنا
في العقوق ، فأحببت التأسى بنا ؟

ثم ولّت باكية ، وكرهت الخيزران أن تخالف زينب فيها ،

فغمزت الخيزران بعض جواريتها ، فعدلت بها الى بعض المقاصير ، وأمرت بتغيير حالها ، والاحسان اليها .

فلما دخل المهدي عليها ، وقد انصرفت زينب ، وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه في كل عشية ، قصت الخيزران عليه قصتها ، وما أمرت به من تغيير حالها ، فدعا بالجارية التي ردتها ، فقال لها : لما رددتها الى المقصورة ما الذي سمعتها تقول ؟ قالت : لحقتها في الممر الفلاني وهي تبكي في خروجها مؤتسية ، وهي تقرأ (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

ثم قال المهدي للخيزران : والله والله لو لم تفعلني بها ما فعلت ما كلمتك أبدا . وبكى بكاء كثيرا ، وقال : اللهم اني أعوذ بك من زوال النعمة . وأنكر فعل زينب ، وقال : لولا أنها أكبر نسائنا لحلفت ألا أكلمها . ثم بعث اليها بعض الجوارى الى مقصورتها التي أخلت لها ، وقال للجارية : اقرئي عليها السلام مني وقولي لها (يا بنت عم ان أخواتك قد اجتمعن عندي ولولا أني أغمك لجئناك) . فلما سمعت الرسالة علمت مراد المهدي .

وقد حضرت زينب بنت سليمان ، فجاءت مزنة تسحب أذيالها ، فأمرها بالجلوس ، ورحب بها واستدناها ، ورفع منزلتها فوق منزلة بنت سليمان بن علي ، ثم تفاوضوا أخبار

أسلافهم ، وأيام الناس ، والدول وتنقلها ، فما تركت لأحد في المجلس كلاما .

فقال لها المهدي : يا بنت عم ، والله لولا أني لا أحب أن أجعل لقوم أنت منهم من أمرنا شيئا لتزوجتك ، ولكن لا شيء أصون لك من حجابي ، وكونك مع أخواتك في قصرى ، لك ما لهن ، وعليك ما عليهن ، الى أن يأتيك أمر من له الأمر فيما حكم به على الخلق . ثم أقطعها مثل ما لهن من الاقطاع ، وأخدمها وأجازها ، فأقامت في قصره الى أن قبض المهدي وأيام الهادي وصدرأ من أيام الرشيد ، وماتت في خلافته ، لا يفرق بينها وبين نساء بنى هاشم ، وخواص حرائرهم وجواريهم ، فلما قبضت جزع الرشيد والحرم جزعا شديدا .

وهذه الرواية تصور عطف الخيزران على أعدائها ، وكرم أخلاقها ، كما ثبت ما كان عليه المهدي من تسامح وشعور انساني ، فقد أبدى عطفًا وحبًا على هذه المرأة التي تنتسب الى أعدائه بنى أمية .

مدح شاعر المهدي ، مروان بن أبي حفصة ، الخيزران بكثير من القصائد ، نذكر منها هذا البيت :

يا خيزران هَنَّاك ثم هَنَّاك أمسى يسوس العالمين ابنك
أنجبت الخيزران ابنها موسى الهادي في سنة ١٤٤ هـ ، وقد تولى العهد وعمره ١٦ سنة . وأنجبت الخيزران ابنها هارون لثلاث بقين من شهر ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ . وقد ولد الفضل ابن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام ، فأرضعت أم الفضل

وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد . وأنشد
بني حفصة في ذلك هذين البيتين :

كفى لك فخرا أن أكرم حرة
غذتك بثدي والخليفة واحد
لقد زرت يحيى في المشاهد كلها
كما زان يحيى خالدا في المشاهد

وقامت الخيزران بدور كبير في الصراع الذي كان قائما بين
العرب والفرس في خلافة ابنها الرشيد . فقد كان الرشيد يميل
كثيرا الى تولية الفضل بن ربيع ، وهو عربي ، بعض أمور
الدولة ، وكانت السيدة زبيدة زوجة الرشيد تؤيده في ذلك ،
بينما كانت الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك . وكان
الفضل يظن أن الذي حملها على ذلك إنما هو جعفر البرمكي .
فلما ماتت الخيزران ولَّى الرشيد الفضل ديوان الخاتم وغيره من
شئون الدولة ، مما كان في يد جعفر .

بنات المهدي (عليّة ، العباسيّة ، البانوقة) :

اشتهرت من بنات المهدي : عليّة ، والعباسيّة ، والبانوقة .
أما عليّة فتروى المصادر التاريخية أنها كانت نموذجا للمرأة في
العصر العباسي ، فقد اهتمت باختيار ملابسها ووسائل الزينة ،
وابتكرت بعض نماذج الملابس النسائية ، ومنها غطاء للرأس
يسمى (البرنس) ، رصعته بالجواهر ، وحلته بسلسلة ذهبية
مطعمة بالأحجار الكريمة . وحذت سيدات الطبقة الراقية حذوها .

وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزئار البرنس للزينة . أما نساء الطبقة الوسطى فكانن يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ويلفن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأزنادهن ، ولم يجهلن فن التجميل الذي أخذنه عن الفارسيات ، وكان (طابع الحسن) الصناعي مما يتحلّى به الأعرايات ^١ .

وتنافست عليّة بنت المهدي والسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد حول تطوير الأزياء النسائية . فابتكرت زبيدة اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر . وكانت فوق ذلك تسرف في شراء ملابسها وتزيينها ، حتى انها اتخذت ثوبا من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ^٢ . وتفوقت السيدة زبيدة على عليّة في أنها تجيد الشعر ، وكثيرا ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أحياتا شعرية الى زوجها الرشيد . وكانت عليّة من أظرف نساء عصرها ، وكانت مجالسها من أبهى مجالس بغداد . وكان المهدي يقرب السيدة زبيدة زوجة ابنه الرشيد ، فقد كانت من نساء بني هاشم . وأقام المهدي يوم زفافها وليمة لم يسبقه اليها أحد في العصور السالفة له ، ووهب للناس في هذا اليوم أواني الذهب مملوءة بالفضة ، وأواني الفضة مملوءة بالذهب . وتحلّت زبيدة بالخلي والجواهر ، حتى أنها شعرت

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٩ - ٣٩٠

(٢) المدور : حضارة الاسلام ص ٩٥

بصعوبة المشى لكثرة ما عليها من هذه الحلى . وبلغت ثقلات
زواج زبيدة ، كما ذكرت هي ، بين ٣٥ و ٧٥ مليون دينار .

أما العباسية ، فقد اشتهر أمرها في المصادر التاريخية وكتب
الأدب ، وأصبحت محورا لكثير من القصص والروايات ، وأرتبط
تاريخها بنكبة البرامكة .

وتتلخص قصة العباسية ، في أن هارون الرشيد ، لكلفه
بمكانة جعفر بن يحيى البرمكي ، وأخته العباسية ، وحرصه على
حضورهما مجلسه ، أذن لهما في عقد الزواج دون الخلوة ، وأن
الرشيد قد غضب على جعفر لعدم تنفيذ هذا الشرط .

ونحن نستبعد أن يكون الرشيد قد شرط هذا الشرط ،
لما نعرفه عن اتساع أفق الرشيد ، وفهمه للحياة ، وما نعرفه عن
نسب العباسية وحسبها ونسبها ، فهي بنت الخليفة المهدي بنت
المنصور ، وهي كما يقول ابن خلدون : « قريبة عهد ببداوة
العروبة وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ومواقع
الفواحش ، فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها ، أو أين
توجد الطهارة والذكاء اذا فقدا من بيتها ، أو كيف تلحم
نسبها بجعفر بن يحيى ، وتدنس شرفها العربي بمولى من موالى
العجم ؟ ... وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر الى موالى
الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل في ذلك
نظر المنصف ، وقاس العباسية بابنة ملك من ملوك زمانه ،
لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفي سلطان

قومها ، واستنكره ولجّ في تكذيبه . وأين قدر العباسية والرشيد من الناس؟! » .

والحقيقة أن الرشيد نكب البرامكة ، لاستئثارهم بالنفوذ والسلطان دونه ، فيقول ابن خلدون : « وأما نكب البرامكة ، لاستئثارهم بالنفوذ والسلطان دونه ، واحتجائهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه . ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمّروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم ، فتوجه الايثار من السلطان اليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلوات ، واستولوا على القرى والضياح ، من الضواحي والأمصار في سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة وأحقّدوا الخاصة ، وأغصّوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية »^١ .

أما الابنة الثالثة للمهدى ، فهي البانوقة . وكانت تحب ارتداء ملابس الغلمان ، وتقلد السيف . روى الطبرى^٢ :

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٤٠٥

« وذكر على بن محمد عن أبيه ، قال : قدم المهدي الى البصرة ، فمرّ في سكة قريش ، وفيها منزلنا ، وكانت الولاية لا تمرّ فيها اذا قدم الوالي ، كانوا يتشاءمون بها ، قلّ وال مرّ فيها فأقام في ولايته الاّ يسيرا حتى يعزل ، ولم يمرّ فيها خليفة قط الاّ المهدي ، كانوا يمرون في سكة عبد الرحمن بن سمرة ، وهي تساوي سكة قريش . فرأيت المهدي يسير أمامه في يده الحربة ، وابنته البانوقة تسير بينه وبين يديه وبين صاحب الشرطة في هيئة الفتيان ، عليها قباء أسود ومنطقة وشاشية ، متقلدة السيف ، واني لأرى ثدييها قد رفعا القباء لنهودهما . وكانت البانوقة سمراء حسنة القد حلوة . »

ماتت البانوقة في حياة المهدي ، فحزن عليها كثيرا . روى الطبري ^١ : « أظهر عليها المهدي جزعا لم يسمع بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يحجب عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازي واجتهدوا في البلاغة ، وفي الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبة ، فانه قال : يا أمير المؤمنين الله خير لها منك ، وثواب الله خير لك منها ، وأنا أسأل الله ألا يحزنك ولا يفتنك . »

صفات المهدي وأخلاقه :

تحدثنا في الفصول السابقة عن جوانب كثيرة من شخصية المهدي . فقد تحدثنا عن المهدي ، المتدين ، العادل ، المصلح ،

(١) المرجع السابق .

العالم ، الشاعر ، راوية الأحاديث ، الكريم ، المتسامح ،
السياسي البارع ، القائد الشجاع ، سليل الأسرة العباسية
الهاشمية . وتتحدث في هذا الفصل عن جوانب أخرى من
صفات المهدي وأخلاقه :

كان من خلق المهدي : الحياء ، والعفو ، والكرم ، والحلم .
وأحبته لذلك رعاياه ، الخاصة والعامة ، فقد افتتح عهده بالنظر
في المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وأنصف
المظلوم ، وبسط يده في العطاء والمنح ، وردّ الأموال التي
صادرها أبوه ، وأطلق سراح المسجونين السياسيين ، وتسامح
مع العلويين ، وأصلح مرافق الدولة ، وأمر باعالة الدولة
للمسجونين والمجذمين ، واهتم بالأماكن المقدسة ، فزاد في
المسجد الحرام ، وسن سنة كسو الكعبة بكسوة جديدة كل
عام ، ونزع المقاصير في صلاة الجماعة ، وصيّر المنابر على قدر
منبر الرسول ، وقضى على الزنادقة ، وأقام البريد بين اليمن
والحجاز والعراق ، وراقب ولايته ، فساد العدل ، وعمّ الرخاء
في جميع أرجاء الدولة ، وحصّن المدن ، وأصبحت بغداد في
عنده مركزاً للتجارة العالمية ، وارتقت في عصره الفنون والآداب
والعلوم ^١ .

تحدث الطبري ^٢ عن كرم المهدي وحيائه ، فروى هذه
القصة : « جلس المهدي ذات يوم يعطي جوائز تقسم بحضرته

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٠

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٩٥

في خاصة أهل بيته والقواد ، وكان يقرأ عليه الأسماء ، فيأمر
بزيادة ، العشرة الآلاف والعشرين الألف ، وما أشبه ذلك .
فعرض عليه بعض القواد فقال : يخط هذا خمسمائة . قال : لم
حططتني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قال : فوالذي أكرمك بما
أكرمك به من الخلافة لو ثبت لقتلت . فاستحى المهدي منه وقال :
زده خمسة آلاف .

وهذه هي رواية أخرى تثبت ما كان عليه المهدي من حياء :
« غضب المهدي على بعض القواد ، وكان عتب عليه غير مرة ،
فقال : الى متى تذنّب الىّ وأعفّو ؟ ! قال : الى أبد نسيء
ويبقىك الله فتعفو عنا ! فكررها عليه مرات فاستحى منه
ورضى عنه » .

وضرب المهدي أمثلة كثيرة لتسامحه ، وقد مر بنا كيف عفا
عن الثوار العلويين ، وهذه قصة أخرى تثبت تسامحه وميله الى
العفو عن أعدائه : « وكان رجل من ولد عبد الرحمن بن سمرة
أراد الوثوب بالشام ، فحمل الى المهدي ، فخلّى سبيله ،
وأكرمه ، وقرّب مجلسه » ١ .

ادّعى رجل النبوة في عهد المهدي ، فأمر بأن يأتوه به ،
فسأله المهدي : أنت نبي ؟ قال : نعم . قال : والى من بعثت ؟
قال : أتركتموني أذهب الى من بعثت اليه وجهت بالغداة

فأخذتموني بالعشى ووضعتموني في الحبس ! فضحك المهدي
منه وخلقى سبيله ^١ .

وروى المسعودي كثيرا من الروايات عن تسامح المهدي
وميله الى العفو عن أعدائه . وهذه هي إحدى رواياته ، تحدث
عن عفو المهدي عن سفيان الثوري : « قال القعقاع بن حكيم :
كنت عند المهدي ، وأتى سفيان الثوري ، فلما دخل عليه وسلم
تسليم العامة ، ولم يسلم تسليم الخلافة ، والربيع — حاجب
المهدي — قائم على رأسه متكئ على سيفه يرقب أمره ، فأقبل
المهدي بوجه طلق ، وقال له : يا سفيان ، تفر منا ههنا وههنا ،
وتظن أننا لو أردناك بسوء لم تقدر عليك ، فقد قدرنا عليك
الآن ، أفما تخشى أن نحكم فيك بهلوانا ؟ قال سفيان : ان
تحكم في يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل . فقال
له الربيع : يا أمير المؤمنين ، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل
هذا ؟ ائذن لي أن أضرب عنقه . فقال له : اسكت ويلك ،
ما يريد هذا وأمثاله الا أن تقتلهم فنشقى بسعادتهم ، اكتبوا
بعهده على قضاء الكوفة ، على أن لا يعترض عليه في حكم » .

وروى المسعودي ^٢ أيضا عن تسامح المهدي رواية أخرى ،
فقال : « قال الهيثم بن عدي : كنت في مجلس المهدي ، فأقام
الحاجب ، فقال : ابن أبي حفصة بالباب . فقال : لا تأذن له فانه

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٩٨

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣٢

منافق كذاب . فكلّمه الحسن بن قحطبة فيه ، فأدخله ، فقال له المهدي : يا فاسق ، ألسنت القائل في معنى ١ :

جبل تلوذ به نزار كلها صعب الذرى متمنع الأركان
قال : بل أنا الذى أقول فيك يا أمير المؤمنين :
يا ابن الذى ورث النبى محمدا

دون الأقارب من ذوى الأرحام
وأنشده الأبيات كلها ، فرضى عنه وأجازه . وأصبح مروان بن أبى حفصة فى مقدمة شعراء المهدي المقربين اليه .
وأشاد المؤرخ السيوطى ٢ بسماحة أخلاق المهدي ، وروى عنه هذه القصة : « كان المهدي يصلى بنا الصلوات الخمس فى المسجد الجامع بالبصرة لمّا قدمها ، فأقيمت الصلاة يوما ، فقال أعرابى : لست على طهر ، وقد رغبت فى الصلاة خلفك ، فأمر هؤلاء بانتظارى ، فقال : انتظروه ، ودخل المحراب ، فوقف الى أن قيل : قد جاء الرجل . فكبر ، فعجب الناس من سماحة أخلاقه » .

وكان المهدي واسع الصدر حلّما ، لا يغضب ولا يثور ، ويستمع الى شكية الناس مهما كانت ، فدخل على المهدي يوما رجل فقال : يا أمير المؤمنين ان المنصور شتمنى وقذف أُمى ، فأما أمرتنى أن أحله ، والا عوضتنى واستغفرت الله له . فقال

(١) معنى : هو معنى بن زائدة الشيبانى أحد رجالات العصر الاموى ، وقد دافع عن المنصور ضد الزنادقة فعفا المنصور عنه وكافاه بأن ولاه حكم اليمن .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧

المهدى : ولم شتمك ؟ قال : شتمت عدوه بحضرته فغضب .
قال : ومن عدوه الذى غضب لشمته ؟ قال : ابراهيم بن عبد الله
ابن حسن . فقال المهدى : ان ابراهيم أمس . به رحما وأوجب
عليه حقًا ، فان كان شتمك كما زعمت فعن رحمه ذب . وعن
عرضه دفع ، وما أساء من انتصر لابن عمه . فقال الرجل : انه
كان عدوًا له ! فقال المهدى : فلم ينتصر للعداوة ، وانما انتصر
للرحم . فسكت الرجل ، وتأهب للانصراف من مجلس المهدى ،
فقال له المهدى : لعلك أردت أمرا فلم تجد ذريعة عندك أبلغ
من هذه الدعوة . فقال الرجل : نعم . فتبسم المهدى وأمر له
بخمسة آلاف درهم .

وصام الناس فى عهد المهدى شهر رمضان فى صميم
الصيف ، وكان الشاعر أبو دلالة اذ ذلك يطالب بجائزة وعدها
اياهم المهدى . فكتب الى المهدى رقعة يشكو اليه فيها ما لقى من
الحر والصوم ، فقال فى ذلك :

أدعوك بالرحم التى جمعت لنا
فى القرب بين قريتنا والأبعد
ألا سمعت وأنت أكرم من مشى
من منشيد يرجو جزاء المنشيد
حل الصيام فصمته متعبدا
أرجو ثواب الصائم المتعبدا

وسجدت حتى جبهتي مشجوجة

مما أكلف من نطاح المسجد

فلما قرأ المهدي الرقعة دعا به ، فقال له المهدي : أى قرابة
بينى وبينك يا ابن اللخناء ؟ ! قال : رحم الله آدم وحواء .
فضحك المهدي وأمر له بجائزة ١ .

وكان المهدي يهتم بشئون رعاياه ، فتشبه بالخليفة عمر بن
الخطاب ، فكان يخرج في الليل يطوف الطرقات ليطلع على
أحوال الرعية . وفي رحلة الى الحجاز ، خرج يطوف طرقات مكة
في هدأة من الليل ، فسمع أعرابية من جانب المسجد وهي تقول :
قومي مقترون ، نبت عنهم العيون وفدحتهم الديون وعضتهم
السنون ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء
سبيل ، وانضاء طريق وصية الله ووصية الرسول ، فهل من أمر
لى بخير كلاء الله في سفره وخلفه في أهله ؟ ! فأمر المهدي خادمه
نصيرا فدفع اليها خمسمائة درهم ٢ .

وكان المهدي يعود المرضى ويحسن الى الفقراء . مرض
أبو عون عبد الملك بن يزيد ، فعاده المهدي « فاذا منزل رث ،
وبناء سوء ، واذا طاق صنعته التي هو فيها لبن ، واذا مضربة
خاعمة في مجلسه . فجلس المهدي على وسادة وجلس أبو عون
بين يديه . فبره المهدي وتوجع لعلته . وقال أبو عون : أرجو
عافية الله يا أمير المؤمنين ، وألا يميتنى على فراشى ، حتى أقتل

(١) الطبرى ج ٦ ص ٤٠٣

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٤٠٠

في طاعتك ، واني لوائق بأن لا أموت حتى أبلى الله في طاعتك
 ما هو أهله ، فانا قد رثوينا ورثونا . فأظهر له المهدي رأيا
 جميلا وقال : أوصني بحاجتك وسلني ما أردت واحتكم في
 حياتك ومماتك ، فوالله لئن عجز مالك عن شيء توصي به
 لاحتملته كائننا ما كان فقل وأوص . فشكر أبو عون ، ودعا
 وقال : يا أمير المؤمنين حاجتي أن ترضي عن عبد الله بن أبي عون .
 وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه . فقال المهدي : يا أبا عون
 انه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك ، انه يقع في
 الشيخين أبي بكر وعمر ويسىء القول فيهما . فقال أبو عون :
 هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ودعونا
 اليه ، فان كان قد بدا لكم فمرونا بما أحببتم حتى نطيعكم .
 فانصرف المهدي ، فلما كان في الطريق قال لبعض من كان معه
 من ولده وأهله : ما لكم لا تكونون مثل أبي عون والله ما كنت
 أظن منزله الا مبيتا بالذهب والفضة ، وأتم اذا وجدتم درهما
 بنيتم بالساج والذهب !^١

كما كان المهدي متواضعا يميل الى البساطة . فقد روى
 المسعودي^٢ : « خرج المهدي متنزها ومعه عمرو بن ربيع
 مولاه ، وكان شاعره ، فاقطع عن العسكر ، والناس في الصيد ،
 وأصاب المهدي جوع شديد . فقال لعمرو : ويحك ، ارتد لي
 انسانا نجد عنده ما نأكل ، فما زال عمرو يطوف الى أن وجد

(١) الطبري ج ٦ ص ٤٠١

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٠

صاحب مبقلة والى جانبها كوخ له ، فصعد اليه ، فقال له : هل
عندك شيء يؤكل ؟ قال : نعم ، رقاق من خبز شعير ورثيئة ^١ ،
وهذا البقل والكراث . فقال له المهدي : ان كان عندك زيت
فقد أكملت . قال : نعم ، عندي فضلة منه . فقدّم اليهما ذلك ،
فأكلا أكلا كثيراً ، وأمعن المهدي حتى لم يبق منه فضل . فقال
لعمرو : قل شعرا تصف به ما نحن فيه ، فقال عمرو :

ان من يطعم الرثيئة بالزيت وخبز الشعير بالكراث
لحقيق بصفحة أو بشتي . من لسوء الصنيع أو بثلاث
فقال المهدي : بئس والله ما قلت ، ولكن أحسن من ذلك :
لحقيق ببذرة أو بشتي . من لحسن الصنيع أو بثلاث
ووافي العسكر ، ولحقته بالخزائن والخدم والموكب ، فأمر
لصاحب المبقلة بثلاث بدر دراهم .

وروى المسعودي ^٢ أيضا قصة طريفة عن المهدي وشريك
القاضي ، فقال : « دخل شريك القاضي على المهدي يوما ، فقال
له : لا بد أن تجيئني الى خصلة من ثلاث خصال . قال : وما هن
يا أمير المؤمنين ؟ قال : أمّا أن تلي القضاء ، أو تحدثت ولدي
وتعلمهم ، أو تأكل عندي أكلة . ففكر ثم قال : الأكلة أخفهن
على نفسي . فاحتبسه وقدم الى الطباخ أن يصلح له ألوانا من
المخ المعقود بالسكر الطبرزد والعسل . فلما فرغ من غذائه ،
قال له القيم على المطبخ : يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد

(١) الرثيئة : اللبن الحامض يخلط بالسكر .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٢

هذه الأكلة أبدا . قال الفضل بن الربيع : فحدثهم والله شريك
بعد ذلك ، وعلم أولادهم ، وولى القضاء لهم » .

ولوع المهدي بالصيد :

كان الصيد رياضة المهدي المفضلة . وقد حرص على القيام
ب رحلات صيد منظمة ، يصحبه فرسان يتقلدون السيوف ،
ويتبعهم طائفة من الجند والغلمان . وكان الخليفة يسير محاذيا
لنهر دجلة ارتيادا للخضرة التي تجنح اليها الطيور وتسرح فيها
الغزلان ^١ .

واهتم المهدي بأعداد العدة للصيد ، وقلّده في ذلك ولاته
وعمّاله ، حتى انهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب ،
كما عنوا باستخدام الصقر والباز في الصيد ، وعنوا بتربية
الكلاب السريعة العدو ، ووكّلوا بكل كلب شخصا يقوم بتربيته
وتدريبه . وقد رمى الخليفة المهدي غزالا بسهم فأصابه . وكان
ابن عمه على بن سليمان قد اتخذ هذا الغزال هدفا ، ولكنه لم
يصبه وأصاب كلبا فصرعه ، فقال في ذلك أبو دلّامة الشاعر :

قد رمى المهدي ظيّا شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليما ن رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل امرئ يأكل زاده

تحدث (المدور) في كتابه (حضارة الاسلام في دار

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٢٤

الاسلام) ١ ، عن ولوع المهدي بالصيد ، فقال : تجد فيما أنا ذاكر لك عن المهدي أنه يجمع الى خلافة الأمة أبهة الملك ، وهما أمران لم يجتمعا في خليفة غيره ، وربما التمس الطيبات في هذه الأبهة والتأنق في فنون المعيشة الى الغاية التي لم يبلغها ملوك بني أمية من قبله ، فاذا جلس الى الندماء أحب أن يمتنع نفسه بلذة أحاديثهم ، وإشارتهم دون ستارة تحجبهم عن نظره ، وإذا خرج الى الصيد ركب في المواكب العظيمة المزينة ، وربما كان ذلك من أحب الأشياء اليه

وليس الصيد من الملهى التي تشعب على الملوك إلا متى أفرطوا فيه ، وكانوا أقرب الى الأشر منهم الى النزهة والرياضة ، كما نعلم عن صبية الأمويين الذين أجعلوا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعهم في طلب الصيد . وهذا بعيد عن المهدي ، وإنما هو كلف به من غير إفراط به . فقد كان من بين الأمراء من يتأنق أكثر منه في اتخاذ المعدة للصيد ، حتى أنهم صنعوا نصال سهام من الذهب ، كما ورد عن بعضهم في كلام الشعراء :

ومن جوده يرمى العداة بأسهم
من الذهب الأبريز صيغ نصالها
لينفقها المجروح عند انقطاعه
ويشتري الأكفان منها قتيلا

وهذه مباهاة لا ينظر اليها الخليفة من مزاولة القنص ، وإنما عنى باتخاذ الصقور والبيزان وتربية الكلاب التى تسبق الظليم فى عدوها ، يلبسها أطواقا من ذهب ، ويثوكل بكل كلب عبدا يخدمه ، كما يفعل كثير من الأمراء ، وأهل النعمة فى تربيتها للتحريض على الصيد ، اذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذها الا فيما كان لغير الصيد والحراسة . وأما البيزان والصقور فانه لم يسبق الى اتخاذها ، بل كانت معروفة عند العرب من ملوك كنده .

وفاة المهدي :

حكم المهدي عشر سنين وخمسة عشر يوما ، ثم خبا نور ذلك النجم الساطع الذى ملأ الآفاق عدلا واصلاحا وتسامحا . ومات المهدي فى ريعان شبابه ، وعمره ثلاث وأربعون سنة . تولى المهدي الخلافة يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ . ومات ليلة الخميس لسبع بقين من المحرم سنة ١٦٩ هـ ١ .

اختلف المؤرخون فى سبب وفاته ، ورووا روايات مختلفة ، تدور حول موته مسموما ، أو فى حادث خلال رحلة صيد بعد اصطدام رأسه فى باب خربة .

وان كنا نؤيد الروايات التى تذهب الى وفاة المهدي خلال رحلة له للصيد ، الا أننا لا نجد بأسا فى أن نعرض الروايات

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٩

التي تدور حول موت المهدي مسموما ، وكان ذلك مصادفة فقد كان المقصود به احدي جواريه ، نتيجة منافسة بين الجوارى حول الفوز بالتقرب الى الخليفة .

روى الطبرى ^١ قصة حول وضع جارية تدعى (حسنة) السم في الكمثرى لتأكل جارية أخرى كان المهدي يقربها اليه ، مما جعل حسنة تشعر بالغيرة ، ولكن القدر جعل المهدي يأكل الكمثرى المسمومة بدلا من الجارية . قال الطبرى : « ان المهدي كان جالسا في غليّة في قصر بماسبذان يشرف من منظره فيها على سفله ، وكانت جاريته حسنة قد عمدت الى كمثراتين كبيرتين ، فجعلتهما في صينية ، وسمّت واحدة منهما ، وهي أحسنهما وأنضجهما ، في أسفلها وردت القمع فيها ، ووضعتها في أعلى الصينية . وكان المهدي يعجبه الكمثرى ، وأرسلت بذلك مع وصيفة لها الى جارية للمهدي وكان يتحظاها تريد بذلك قتلها ، فمرّت الوصيفة بالصينية التي فيها تلك الكمثرى ، تريد دفعها الى الجارية التي أرسلتها حسنة اليها ، بحيث يراها المهدي من المنظره ، فلما رآها ورأى معها الكمثرى ، دعا بها ، فمدّ يده الى الكمثرى التي في أعلى الصينية ، وهي المسمومة ، فأكلها ، فلما وصلت الى جوفه ، صرخ : جوفى ! وسمعت حسنة الصوت ، وأخبرت الخبر ، فجاءت تلطم وجهها ، وتبكي وتقول : أردت أن أنفرد بك فقتلتك يا سيدي ! فهلك من يومه » .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٩٣

كما روى الطبري^١ رواية أخرى عن موت المهدي : « ذكر
عبد الله بن اسماعيل صاحب المراكب قال : لما صرنا الى ماسبذان
دنوت الى عنانه ، فأمسكت به ، وما به علّة ، فوالله ما أصبح
الا ميتا ، فرأيت حسنة وقد رجعت ، وان على قبتها المسوح ،
فقال أبو العتاهية في ذلك :

رُحْنٌ فِي الْوُشَى وَأَصْبَحَ نَ عَلَيْهِنَ الْمَسُوحُ
كُلُّ نَطَاحٍ مِنَ الدَّهْرِ رَ لَهُ يَوْمَ نَطُوحِ
لَسْتُ بِالْبَاقِي وَلَوْ عُدَّ مَرَّتْ مَا عُمِّرَ نُوْحُ
فَعَلَى نَفْسِكَ تَحْ أَنْ كُنْتُ لَا بَدَّ تَبُوحِ

أما رواية الطبري^٢ عن موت المهدي خلال رحلة صيد ، فقد
رواها واضح قهرمان المهدي ، وهي : « خرج المهدي يتصيد
بقرية يقال لها الرذ بماسبذان ، فلم أزل معه الى بعد العصر ،
وانصرفت الى مضربي ، وكان بعيدا عن مضربه . فلما كان في
السحر الأكبر ، ركبت لاقامة الوظائف ، فاني لأسير في برية ،
وقد اتفردت عمن كان معي من غلمانى وأصحابى ، اذ لقينى
أسود عريان على قتود رحل ، فدنا منى ، ثم قال لى : أبا سهل ،
عظم الله أجرك فى مولاك أمير المؤمنين . فهمت أن أعلوه
بالسوط ، فغاب من بين يديّ ، فلما انتهيت الى الرواق ، لقينى
مسرور ، فقال لى : أبا سهل عظم الله أجرك فى مولاك أمير
المؤمنين . فدخلت فاذا أنا به مسجى فى قبة . فقلت : فارقتمكم

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٣٩

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٩٢

بعد صلاة العصر وهو أسرى ما كان حالاً وأصحّه بدنًا ، فما كان الخبر ؟ ! قال : طردت الكلاب ظبيًا ، فلم يزل يتبعها فاقتحم النطبي باب خربة ، فاقتحمت الكلاب خلفه ، واقتحم الفرس خلف الكلاب ، فدقّ ظهره في باب الخربة ، فمات من ساعته ! » .

وروى المسعودي ^١ أن المهدي شعر في أيامه الأخيرة أنه مفارق للحياة ، بعد حلم رآه في نومه ، فروى : « قال علي بن يقطين : كنا مع المهدي بماسبذان ، فقال لي يوما ، أصبحت جائعا فأتنى بأرغفة ولحم بارد . ففعلت ، فأكل ثم دخل اليهو ونام ، وكنا نحن في الرواق ، فاتبهنا لبكائه ، فبادرنا اليه مسرعين ، فقال : أما رأيتم ما رأيتم ؟ قلنا : ما رأينا شيئا . قال : وقف عليّ رجل لو كان في ألف رجل ما خفي عليّ صوته ولا صورته ، فقال :

كأنتي بهذا القصر قد باد أهله

وأوحش منه ربه ومنازله

وصار عيّد القوم من بعد بهجة

وملك الى قبر عليه جناده

فلم يبق الا ذكره وحديثه

تنادى عليه معولات جلائله

قال عليّ : فما أتت عليّ المهدي بعد رؤياه الا عشرة أيام

حتى توفي . »

كانت وفاة المهدي — كما روى الطبري — في قرية من قرى
ماسبذان يقال لها الرذ ، وصلى عليه ابنه هارون ولم توجد له
جنازة يتحمل عليها ، فحمل على باب ، ودفن تحت شجرة جوز
كان يجلس تحتها ^١ .

ورثاه الشاعر بكار بن رباح بهذين البيتين :

ألا رحمة الرحمن في كل ساعة

على رمّة رمّت بماسبذان

لقد غيّب القبر الذي ثم سؤددا

وكفّين بالمعروف تبتدران

وكان هارون الرشيد مصاحبا أبيه في رحلته هذه الى ماسبذان،
بينما كان ابنه وولي عهده موسى الهادي في جرجان يحارب
أهل طبرستان ، وكان الربيع بن يونس الحاجب نائبا عن الخليفة
المهدي في بغداد .

وبعد وفاة المهدي ، تقدم القواد وموالي الخليفة الى هارون
فقالوا له : ان علم الجند بوفاة المهدي لم تأمن الشغب ، والرأى
أن يحمل وتنادى في الجند بالقفل حتى تواريه ببغداد . واستدعى
هارون يحيى بن خالد البرمكي ، ليستشيريه فيما نصحه به
هؤلاء القواد الموالى ، وقال له : يا أبت ما تقول ؟ فقال يحيى :
ما أرى ذلك . فسأله هارون : ولِمَ ؟ فأجاب يحيى : لأن هذا
ما لم يخف ، ولا آمن اذا علم الجند أن يتعلقوا بمحملة ويقولوا

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٩٤

لا نخليه حتى نعطى لثلاث سنين وأكثر ، ويتحكموا ويشتطوا ،
ولكن أرى أن يوارى ، رحمه الله ، ههنا ، وتوجه نصيراً الى
أمير المؤمنين الهادي بالخاتم والقضيب والتهنئة والتعزية ، فان
البريد الى نصير فلا ينكر خروجه أحداً ، اذ كان على بريد
الناحية ، وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز مائتين مائتين ،
وتنادى فيهم بالقفول ، فانهم اذا قبضوا الدراهم لم تكن لهم
همة سوى أهاليهم وأوطانهم ، ولا عرجة على شيء دون بغداد .

واستجاب الرشيد الى نصيحة يحيى بن خالد البرمكي .
ولمّا وصل الجند الى بغداد « ساروا الى باب الربيع فأحرقوه ،
وطالبوا بالأرزاق وضجوا . وقدم هارون بغداد ، فبعثت
الخيزران الى الربيع ، والى يحيى بن خالد ، تشاورهما في ذلك .
فأما الربيع فدخل عليها . وأما يحيى فلم يفعل ذلك ، لعلمه
بشدة غيرة موسى . وجمعت الأموال حتى أعطى الجند لستين ،
فسكتوا . وبلغ الخبر الهادي ، فكتب الى الربيع كتاباً يتوعده
فيه بالقتل ، وكتب الى يحيى بن خالد يجزيه الخير ، ويأمره أن
يقوم من أمر هارون بما لم يزل يقوم به ، وأن يتولى أموره
وأعماله على ما لم يزل يتولاه »^١ .

ورحل نصير ، صاحب البريد ، كما أمره هارون الرشيد
من ماسبذان ، بعد وفاة المهدي ، الى جرجان ، حيث
كان يقيم موسى الهادي ، الخليفة الجديد . فأعلمه بوفاة المهدي ،

(١) الطبري ج ٦ ص ٤٠٦ - ٤٠٧

والبيعة له بالخلافة ، فعاد الهادي من فوره الى بغداد . وعلى أبواب بغداد ، استقبله وجوه بني هاشم وكبار رجال الدولة ، وفي مقدمتهم الربيع بن يونس ، الذي شرح للخليفة الجديد حقيقة الموقف ، فقبل عذره ، وولاه الوزارة . وكان قدوم الهادي الى بغداد بعد عشرين يوما من وفاة أبيه المهدي ، فوصلها لعشر بقين من صفر من سنة ١٦٩ هـ ، ونزل قصر الخلد فأقام به شهرا ، ثم انتقل الى بستان أبي جعفر ، ثم الى قصر عيساباذ الذي أنشأه أبو المهدي ^١ .

وصف الطبري ^٢ ملامح المهدي فقال : « وكان طويلا مصر الخلق جعدا ، واختلف في لونه ، فقال بعضهم كان أسمر ، وقال بعضهم كان أبيض ، وكان في عينه اليمنى في قول بعضهم نكتة بياض ، وقال بعضهم كان ذلك بعينه اليسرى ، وكان ولداً بائذاً » .

(١) الطبري ج ٦ ص ٤٠٨

(٢) الطبري ج ٦ ص ٣٩٤

المصادر

- ابراهيم العدوى : الدكتور : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم
(القاهرة ١٩٥٨) .
- ابن الاثير : الكامل في التاريخ (بولاق ١٢٧٤ هـ) .
- احمد امين : فجر الاسلام (القاهرة ، الطبعة السابعة) .
- ضحى الاسلام ، ٣ اجزاء ، (القاهرة ١٩٥٦) .
- اونولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم
واخرين (القاهرة ١٩٤٧) .
- الخلافة ، ترجمة جميل معلى (دار اليقظة العربية ١٩٤٦) .
- الأصفهاني : الأغاني (القاهرة ١٢٨٥ هـ) .
- امير على : سيد : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ، ترجمة
رياض رافت (القاهرة ١٩٣٨) .
- امين زكى : كتاب عمران بغداد (بغداد) .
- الالوسى : محمود شكرى : بلوغ الأرب في أحوال العرب (المطبعة
الرحمانية ١٩٢٤) .
- بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية : ترجمة حمزة طاهر (الطبعة
الثانية القاهرة) .
- بالر : Haroun el-Raschid (London, 1881)
- براون : A Literary History of Persia (London, 1909)
- بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه امين فارس
ومنير بعلبكي (بيروت ١٩٤٨) .
- البغدادى : الفرق بين الفرق (القاهرة ١٣٢٨ هـ) .
- البلاذرى : فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات القاهرة ١٩٠١) .
- البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية (ليبزج) .

- المجاحظ : كتاب التاج في أخلاق الملوك (القاهرة ١٣٣٢ هـ) .
- كتاب المحاسن والأضداد (مطبعة السعادة ١٣٢٤ هـ) .
- البيان والتبيين (مطبعة الفتوح ، القاهرة ١٣٣٢ هـ) .
- الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب (مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٣٨) .
- جولدتسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ترجمة على حسن عبد القادر وآخرين (القاهرة ١٩٤٦) .
- جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام (القدس ١٩٢٨) .
- جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى (الطبعة الثانية - القاهرة)
- ابن حتى : الدكتور فيليب : تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع (القاهرة ١٩٥٣) .
- ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل (المطبعة الادبية ١٣١٧ هـ) .
- حسن ابراهيم حسن : الدكتور : تاريخ الاسلام ، الجزء الثانى (القاهرة - الطبعة الاولى) .
- النظم الاسلامية ، بلاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن (الطبعة الاولى) .
- الخضرى : محمد : تاريخ الأمم الاسلامية ، الجزء الثانى (تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة) .
- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد أو مدينة السلام (القاهرة ١٣٤٩ هـ) .
- ابن خلدون مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٨٨٦) .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان (بولاق ١٢٨٣ هـ) .
- خودابخش : صلاح الدين : الحضارة الاسلامية ، ترجمة الدكتور على حسنى الحربوطلى (الحلبي ، القاهرة ١٩٦٠) .
- دوزى : نظرات في الاسلام ، ترجمة كامل كيلانى (الحلبي ١٩٣٣)

الدينورى : الأخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨) .
ديمومبين : النظم الاسلاميه : ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر
(بغداد ١٩٥٢) .

ابن رسته : الأعلام النفيسة (ليدن ١٨٩١) .
لى سترينج : Baghdad During Abbasid Caliphate (Oxford, 1942) .

سيده اسماعيل كاشف : الدكتور : مصر فى عصر الولاة (القاهرة)
السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائلين بالأمة (المطبعة
التجارية ، القاهرة ١٩٥٢) .

الشهرستاني : الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨) .
ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلاميه
(مطبعة الموسوعات ١٣١٧ هـ) .

الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (المطبعة التجارية بالقاهرة ١٩٤٩) .
ابن عبد ربه : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨)
عبد العزيز الدورى : الدكتور : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام
(بغداد ١٩٤٩) .

على حسنى الخربوطلى : الدكتور : فجر القومية العربية فى القرن
الأول الهجرى (القاهرة ١٩٥٨) .
تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (دار المعارف القاهرة
١٩٥٩) .

القومية العربية من فجر الى الظهر (الحلبى بالقاهرة ١٩٥٩)
محمد والقومية العربية (مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦٠)
المجتمع العربى (مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦٠) .
الدولة العربية الاسلاميه (الحلبى بالقاهرة ١٩٦٠)
حياة محمد (ترجمة لكتاب واشنجتون ارفنج) دار المعارف
(القاهرة ١٩٦٠) .

الحضارة الاسلامية ، ترجمة لكتاب خودابخش (الحلبي ،
القاهرة ١٩٦٠) .

المجتمع العربى فى العصور الوسطى ، ترجمة لكتاب ا.و.لين
(القاهرة ١٩٥٩) .

الحضارة العربية الاسلامية (مطبعة الأنجلو - القاهرة ١٩٦٢)
المختار الثقفى (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٣) .

مصر العربية الاسلامية (مطبعة الأنجلو - القاهرة ١٩٦٣) .
البحر المتوسط بحيرة عربية (سلسلة اقرأ ١٩٦٣) .

العرب ورسالتهم الانسانية (سلسلة اقرأ ١٩٦١) .
غروب الخلافة الاسلامية (مؤسسة المطبوعات الحديثة ،
القاهرة ١٩٦٢) .

العرب واليهود فى العصر الاسلامى (سلسلة كتب قومية
١٩٦٣) .

العرب فى أوروبا (سلسلة المكتبة الثقافية ١٩٦٥) .
عبد الله بن الزبير (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٥) .
عبد المطلب جد الرسول (سلسلة اقرأ ١٩٦٦) .
ملكية الأراضى فى الدولة العربية الاسلامية (بحث فى مجلة
جامعة عين شمس) .

المسجد فى فجر الاسلام (بحث فى مجلة جامعة عين شمس)
المجوس والمجوسية (بحث فى مجلة جامعة عين شمس) .
مقالات متنوعة فى مجلة منبر الاسلام .

العمرى : مسالك الأبصار فى الممالك والأمصار (دار الكتب المصرية
١٩٢٤) .

أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .
فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى
أمية ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وزكى ابراهيم
(القاهرة ١٩٣٤) .

- ابن قتيبة : الامامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
المعارف (المطبعة الاسلامية ١٩٣٥) .
عيون الأخبار (دار الكتب المصرية ١٩٢٥) .
القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا (القاهرة ١٩١٣ —
١٩١٧) .
ابن كثير : البداية والنهاية (مطبعة السعادة ، القاهرة) .
كريم : الحضارة الاسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية ،
ترجمة الدكتور طه بدر (مطبعة الفكر العربي بالقاهرة) .
لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر (الحلبي ١٩٤٨)
المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر (مطبعة دار الرجاء
بالقاهرة) .
التنبيه والاشراف (مكتبة الشرق الاسلامية ١٩٣٨)
المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن ١٩٠٦)
المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (بولاق ١٢٧٩ هـ)
المدور : جميل نخلة : حضارة الاسلام في دار الاسلام (القاهرة
١٣٥١ هـ) .

ميور : **The Caliphate (Edinburgh, 1924)**

ابن النديم : الفهرست (المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ)
النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب (دار الكتب المصرية ١٩٣١)
نيكلسون : **Literary History of the Arabs (Cambridge, 1930)**

هل : جوزيف : الحضارة العربية ، ترجمة الدكتور ابراهيم العدوي ،
(القاهرة ، سلسلة ألف كتاب) .

ياقوت : معجم البلدان (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

اليقوبى : تاريخ اليقوبى (ليدن ١٨٨٣) .

كتاب البلدان (ليدن ١٨٩٢) .

أبو يوسف : كتاب الخراج (المطبعة الأميرية ١٣٠٢ هـ) .

فهرس

صفحة

- مقدمة ... ٣
- ١ - **ولى العهد :** ... ١٠
المهدى فى طفولته - المهدى فى بيت المنصور - نشأة
عربية - اعداد المهدى لولاية العهد - تولية المهدى
العهد .
- ٢ - **الخليفة الجديد :** ... ٣٦
وصايا المنصور للمهدى قبيل وفاته - وفاة المنصور
والبيعة للمهدى - مطلع الخلافة - بداية عصر ذهبى -
سياسة رشيدة .
- ٣ - **الخليفة العادل المصالح :** ... ٥٥
أمن وعدل - اهتمام المهدى ببلاد الحجاز - اهتمام
المهدى ببلاد الشام - اصلاح وعمران - رخاء
اقتصادى - اهتمام المهدى بالزراعة - عناية المهدى
بالتجارة - اهتمام المهدى بالصناعة - تطور بغداد
والرصافة والكرخ فى عهد المهدى - حضارة بغداد
فى عهد المهدى .
- ٤ - **حكومة المهدى :** ... ٩٣
نظام الخلافة فى عهد المهدى - المهدى يولى ابنه عهده -
نظام الوزارة فى عهد المهدى - وزراء المهدى - البرامكة

في ظل المهدي - النظم الحكومية في عهد المهدي (الوزير ،
كاتب الرسائل ، الحاجب ، النظام الاداري ، عمال
الأقاليم ، دواوين الحكومة ، البريد ، الجيش ، الضرائب ،
القضاء) .

٥ - تدعيم الدولة العباسية : ١٢٤

دعائم الدولة العباسية - اخماد ثورة أموية في بلاد
الشام - ثورات صغيرة - موقف المهدي من الحزب
العلوي - المهدي يحفظ التوازن بين العرب والفرس .

٦ - المهدي والزنادقة : ١٤٧

المجوسية كأساس للزندقة - الزرادشتية والمانيوية
والمزدكية - عوامل ظهور حركات الزندقة في عهد
المنصور والمهدي - المنصور والزنادقة - الزنادقة
في عصر المهدي - حركة المقنعية في عهد المهدي -
المهدي ينشئ ديوان الزندقة - المهدي يعزل وزيره
لاعتناق ابنه الزندقة - الزنادقة في وصية المهدي
للهادي .

٧ - سياسة المهدي الخارجية : ١٨٠

علاقة المهدي ببلاد المغرب - العلاقات بين المهدي وبلاد
الأندلس - العلاقات بين المهدي ودولة الفرنجة -
الصراع بين المهدي والدولة البيزنطية - المهدي يغزو
الهند .

٨ - نصير الدين والعلم : ١٩٩

الخليفة المتدين - حقيقة شرب المهدي النبيذ - اهتمام

المهدى بالأماكن المقدسة - اهتمام المهدى برعاياه -
المهدى نصير العلم - المهدى الشاعر - بين المهدى
وأبى العتاهية - بين المهدى وبشار بن برد - اهتمام
المهدى بالموسيقى والغناء .

٩ - المهدى : أسرته ، شخصيته : ٢٤١

الأسرة العباسية - أسرة المهدى - بين المهدى وابنه
الهادي - الخيزران زوجة المهدى - بنات المهدى -
(عليّة ، العباسية ، البانوقة) - صفات المهدى
وأخلاقه - ولوع المهدى بالصيد - وفاة المهدى .

المصادر ٢٧٨

أعلام العرب

تصدرها الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع مكتبة مصر - ٣ شارع كامل صدقي

تظهر تباعاً كل يوم ٧ من كل شهر

ظهر منها :

- ١ - محمد عبده الأستاذ عباس محمود العقاد
- ٢ - المتمد بن عباد الأستاذ علي أدهم
- ٣ - جابر بن حيان الدكتور زكي نجيب محمود
- ٤ - عبد الرحمن بن خلدون الدكتور علي عبد الواحد والي
- ٥ - ابن نيمية الدكتور محمد يوسف موسى
- ٦ - مصاوية الأستاذ ابراهيم الابيارى
- ٧ - سيد درويش الدكتور محمود احمد الحفنى
- ٨ - عبد القاهر الجرجاني الدكتور احمد احمد بدوى
- ٩ - عبد الله النديم الدكتور علي الحديدي
- ١٠ - عبد الله بن برزاق الدكتور نصيب الدين الرئيس
- ١١ - مالك الأستاذ أمين الحولى
- ١٢ - القلقشندي الدكتور عبد اللطيف حمزة
- ١٣ - الطبرى الدكتور احمد محمد الحوفى
- ١٤ - الطاهر بيبرس الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٥ - ابن الفارض الدكتور محمد مصطفى حلمى

- ١٦ - المختار الثقفي . . . الدكتور علي حسنى الحربوطلى
- ١٧ - الوليد بن عبد الملك . . . الأستاذ أحمد الشرباصى
- ١٨ - الأصمى . . . الدكتور أحمد كمال زكى
- ١٩ - زكريا أحمد . . . الأستاذ صبرى أبو المجد
- ٢٠ - قاسم أمين . . . الدكتور ماهر حسن فهمى
- ٢١ - شكيب أرسلان . . . الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف
- ٢٢ - ابن قتيبة . . . الدكتور عبد الحميد سند الجندى
- ٢٣ - أبو هريرة . . . الأستاذ محمد عجاج الخطيب
- ٢٤ - عبد العزيز البشرى . . . الدكتور جمال الدين الرمادى
- ٢٥ - الحسناء . . . الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى
- ٢٦ - صاحب بن عباد . . . الدكتور بدوى طبانة
- ٢٨ - الناصر محمد بن قلاوون . . . الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
- ٢٩ - أحمد زكى . . . الأستاذ أنور الجندى
- ٣٠ - حسان بن ثابت . . . الدكتور سيد حنفى حسنين
- ٣١ - المتن بن حارثة الشيبانى . . . العقيد محمد فرج
- ٣٢ - مظفر الدين كوكبورى . . . الأستاذ عبد القادر أحمد ظليمات
- ٣٣ - رشيد رضا الإمام الجاهد . . . الدكتور ابراهيم أحمد العلوى
- ٣٤ - اسحاق الموصلى . . . الدكتور محمود أحمد الحنفى
- ٣٥ - أبو حيان التوحيدى . . . الدكتور زكريا ابراهيم
- ٣٦ - ابن المعتز العباسى . . . الدكتور أحمد كمال زكى
- ٣٧ - الزهاوى . . . الدكتور ماهر حسن فهمى
- ٣٨ - أبو الملاء المهرى . . . الدكتورة عائشة عبد الرحمن
- ٣٩ - أحمد لطفى السيد . . . الدكتور حسين فوزى النجار
- ٤٠ - الجوىلى . . . الدكتورة فوفية حسين حمود
- ٤١ - الناصر صلاح الدين . . . الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
- ٤٢ - عبد الله فكرى . . . الأستاذ محمد عبد الغنى حسن
- ٤٣ - عبد الله بن الزبير . . . الدكتور علي حسنى الحربوطلى
- ٤٤ - عبد العزيز جابوش . . . الأستاذ أنور الجندى

- ٤٥ - ابن رشيق الأستاذ عبد الرموف مخلوف
٤٦ - محمد بن عبد الملك الزياد . الأستاذ محمود الهجرسي
٤٧ - حفنى ناصف الأستاذ محمود فنييم
٤٨ - أحمد بن طولون للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ - محمود حمدي الفلكي . للأستاذ أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ - أحمد فارس الشدياق . للأستاذ محمد عبد الفنى حسن

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدي